

بنت بطوط

المغامرات البحرية

سورة التوبة

فهرس

صفحة

٣	.	.	.	.	.	.	مقدمة
١٢٢ — ٥	.	.	.	.	.	.	آلان جربو
٢٠٢ — ١٢٣	.	.	.	.	.	.	الطراد لمدن
٢٤٩ — ٢٠٣	.	.	.	.	.	.	عائشة

مقدمة

البحر تعبير سما على بقية التعبيرات إسما ومعنى ؛ فهو مهد الكائنات ولحدها ، ومبعث الأمل ، ومنشأ اليأس ، يختار لنفسه من يشاء من الناس فيسعدده ويعلى من شأنه ويرفع من صيته .

إن قلب المرء في فناء سنه ليهتز طرباً لرفيقته ، كما يهتز قلب العاشق الولدان عند مشاهدته محبوبه وإن اشتعل الرأس منه شيباً ، فلا يزال ذلك الفتواد يضطرب حناناً إلى ذكر ياقه وإلى صدى صوت أمواجه المتلاطمة .

إن للبحر قضاء اهتزجت قسوته بعذوبته ، ومخريته بعطفه ، حتى ليعز على المرء أن يضرب عنه صفحاً أو أن يفتنى عنه بعطفه . إننا نالجاً إليه دائماً بأيد مبسوطة وقلب ملتهب ، يزداد ضرامه عند ما نقف مسيطرين على الدفة .

إن الرجل — وهو قابض على الدفة — رمز للنبل والشهامة . فسكاً ابتعدت عنه الأرض كلما زالت عن نفسه الصغائر . فالبحر كشمس إذن بتنقيته من رذيلة الزهو والخيال . وكلما اتسع الأفق في عينيهِ كلما اتسع في بصره جو الفضاء ، وأصبح رجلاً كاملاً .

إن الرجل وهو ممسك بالدفة يعرف كيف يسيطر على

ثم الأمواج الهائجة ، والمياه المائجة ، وكيف يستترز من
 فجواته ، وكيف يرتفع إلى جهات قلما ارتقى إليها غيره . فإن
 عقله لو ضاء ، والبحار ، عندما يلبس ببصره القبة الزرقاء ،
 يعرف كيف يبذل إلى خالقه أعز شيء لديه بقلب ثابت يعجز
 عن بذله أخوه الذي يدب على الأرض .

ولقد حاولتُ — في هذا الكتاب الذي أهديه إلى أبنائي
 وإخواني البحارة المصريين — أن أقص عليهم ، قدر المستطاع ،
 حياة بعض رجال البحر المليئة بالمغامرات والكفاح ، من
 ملاحين جابوا البحار بمفردهم بقدرة ثابتة وعقيدة راسخة ،
 ومن ضباط البحرية الأجنبية الذين سجوا لشجاعتهم بحروف
 من ذهب في سجلات التاريخ البحري الحديث ، من رجال
 أعمال ، رجال قلوب وألباب ، رجال تأكدت رجولتهم ،
 وصدقت عزيمتهم رجال البحر .

بنت بطوطة

جواب البحار الكبير

آلان جربو

ALAIN GERBAULT

يمن الله عز وجل على بعض من يتخيرهم من عباده بنعمة
الشعور الغريزي الذي يدفعهم إلى حب البحر ، ذلك الشعور
الذي يفوق في شدته بقية الغرائز والميول .
وقد يلذ للسواد الأعظم من الناس أن يرمى هذا العدد
الضئيل من أولئك المختارين ، بالجنون ، لأنهم غامروا
بأرواحهم في تجوَاب البحار بمفردهم^(١) على ظهر سفن

(١) أول هؤلاء البحارة الذين اعتمدوا السفر بمفردهم هو كابتال حوزوا
سلوكم Joshua Slocum من أهالي اسكتلندا الجديدة Nouvelle-Ecosse
وعندما اخترعت الآلات البخارية في أواخر القرن التاسع عشر ترك سلوكم
ركوب البحر ككثيرين من إخوانه متقني فن قيادة السفن الشراعية ، ورغم
اضطرار « سلوكم » إلى العيش مدة سنتين أو ثلاثة على سطح المعبورة ،
فانه لم يألُف الحياة فيها . وفي سنة ١٨٩٢ ، داعبه أحسد أصدقائه بأن
أهدى إليه سفينة شراعية بالية من نوع « السلوب » Sloop كانت
عرضة للآكل في حقل بجوار نيوجدفورد New-Bedford فقبلها « سلوكم »
وأصلحها بيديه وجربها في يوم صيد جامع ثم أبحر بهذه السفينة ووزنها ٩٢
طنا وطولها ١٢ مترا في سنة ١٨٩٥ بمفرده بعد أن أطلق عليها اسم « سبري »
Spray ليحرب بها السكرة الأرضية وهي أول محاولة من نوعها . فعبر
الأطلسي الشمالي في ٢٩ يوما ووصل إلى جبل طارق حيث اتجه إلى الغرب
قاصدا « راس هون » Cap Horn عابرا المحيط الهادي لينتهي برحلته نحو
الغرب إلا أنه غرق بسفينته في هذه المحاولة .

صغيرة ، تتطير القلوب هالما عند رؤيتها والعواصف تلعب
بها لعب الصبي بالكرة ، قاصدين قارات بعيدة ، دفعتهم إليها
أمن جتهم وأنحياتهم الجبارة وعزمهم الذي لا ينثنى .

وخير من تضرب به المثل في هذا المقام البحار الفرنسي
« آلان جربو Alain Gerbault » فهو أحد رجال البحر
المعاصرين لنا ، الذين امتازوا على أقرانهم بحب البحار
بمفردهم .

قضى « آلان جربو » ميعه الصبا على سواحل البحر في
« بريتاني Bretagne » حيث تملك أسرته ضيعة بالقرب من
ثغر « سان مالو Saint-Malo » الذي يؤمه الصيادون والذي
كان يلجأ إليه من قبل ، أكابر القراصنة الفرنسيين^(١) في

(١) « جاك كارتيه Jacques Cartier » (سنة ١٤٩١ — ١٥٥٧)
بحار فرنسي ولد في سان مالو St. Malo وصل إلى كندا والأرض الجديدة
Terre Neuve سنة ١٥٣٤ واستولى عليهما باسم ملك فرنسا مع أنه سبق
« سباستيان كابو Sébastien cabot » اكتشاف سواحل هذين البلدين
و « كابو » بحار من أصل بندق كان في خدمة ملكي إنجلترا هنري السابع
والثامن .

« دوجي تراون Dugay-Trowin » (سنة ١٦٧٣ — ١٧٣٦)
أميرال فرنسي اشتهر اسمه في الحروب البحرية التي شنها لويس الرابع عشر
ملك فرنسا .

« روبير سيركوف R. Surcouf » (سنة ١٧٧٣ — ١٨٢٧) من
أشهر القراصنة الفرنسيين . ظل مدة من الزمن ، يرغب البحارة الانجليز حيث
استولى على كثير من سفنهم . ولا تزال مغامراته موضع قصص خرافية شيقة .

القرن الخامس عشر والسادس عشر والثامن عشر .
ويقتص علينا « آلان جربو » في كتابه « بمفردى عبر
الأطلنطي (Seul à travers l'Atlantique) : كيف أصبح
بحاراً (عندما كان أبى لا يصحبني معه في يخته ، كنت أعمل
جاهداً على قضاء اليوم في زورق أحد صيادى مدينة « بريتانى »
الذين يترددون بين ثغر سان مالو ومواحل « الأرض
الجديدة (Terre Neuve) والمناطق المسمكة في « ايسلندا »
Islande وكنت أحسد هؤلاء البحارة على طريقة معيشتهم ،
وأرتعد عند سماع قصصهم التى تتجلى فيها الشجاعة والجلد
والإقدام بأبهى معانيها . إنى تعلمت منهم كيف أحب البحر
والأمواج المتلاطمة ، والأعاصير الجارحة في مرفأ « سان مالو »
(St. Malo) و « دينار » (Dinard) .

بعد أن قضى « جربو » هذه السنين الياقة من طفولته
على ساحل البحر بصحبة الصيادين الذين أحبهم حباً جماً ،
اضطر — إطاعة لأوامر والديه — أن يلتحق في باريس
بكلية « ستانيسلاس » (Stanislas Collège) ، الأرسقراطية التى
لا تضم بين جدرانها إلا أولاد الأعيان من سكان العاصمة
الفرنسية ، بيد أنه ملها شيئاً فشيئاً ولم يطق الحياة فيها طويلاً
ويقول فيها : « هنا أمضيت أسوأ سننى حياتى بين الجدران
الشاهقة ، وكنت أحلم بالعالم المتسع الفياض بالحرية ، الملء

بالمغامرات . ولكن كيف الخلاص ؟ لا بد لي من المذاكرة
لأصبح مهندساً كـرغبة والدي .

ولما قامت الحرب العالمية في سنة ١٩١٤ ، انضم «جربو»
إلى سلاح الطيران ، وكانت النشوة التي يشعربها وهو خلق
بطائرتة في النضاء ، تذكره بحركة البحر السرمدية . وفهم
عندئذ أنه يستحيل عليه العيش في جو المدن الصاخب :
« إن الحرب كما يقول ، أخرجتني من عالم المدنية ولا أطمع
في الرجوع اليه » . وكره « جربو » طيلة شبابه مدينة المجددين
الخاوية ، بما فيها من ضجيج وعجيج ، تلك المدينة القائمة على
الاختلافات والمشاحنات حتى أنه شج المجتمعات وكرها .

وفي ذات يوم ، أعاره زميل له من فرقته ، وهو شاب
أمريكي ، كتابا «لجاك لندن» (Jack London) اسمه رحلات
سمارك البحرية (La Croisière du Smark) .

كان هذا الكتاب فتحاله وإيحاه . حيث علم بعد
انتهائه من قراءته ، أن في قدرة الانسان الطواف حول
الكرة الأرضية على متن سفينة صغيرة الحجم . وكن نفسه
بهذه المغامرة ، واتفق مع زميلين له على تنفيذها إن هم ظاوا
على قيد الحياة بعد الحرب .

ولكن الحرب ، بعد أن وضعت أوزارها ، حرمتهم من
زميليه . وعاد إلى « جربو » حنينه إلى البحر ، وامتلك ليه

حتى أنه ، بعد وفاة والدته التي كان يحملها إلى درجة العبادة ،
انكمش في نفسه من اليأس ، وترك نهائيا الدراسات الهندسية
التي جبر عليها ، مؤثرا عليها جوب البحار .

ظل « جربو » يبحث سنة كاملة في الموانئ الفرنسية
الشمالية الجنوبية ، على سفينة صغيرة يسوسها بنفسه دون
مساعدة ، ولما لم يجد على ضالته المنشودة إلا في اليوم الذي
قاده قدماءه إلى زيارة صديقه « رالف ستوك » (Ralph Stock)
في يخته ^(١) حيث اكتشف في إحدى الشغور الانجليزية ،
سفينة أحلامه « الفايركرست » (Le Firecrest) فاشتراها .
يقول « جربو » : « اتجهت بسفینتی فوراً إلى جنوب
فرنسا تاركا إنجلترا في الوقت الذي أبحر فيه « شاكلتون » ^(٢)
(Shackleton) ليلقي حقيقته . أما سفینتی فقد احتملت
الأعاصير الشديدة في خليج « جاسكون » (Gascogne) فتحققت
عندئذ من أن الأعاصير لن تقوى على الوقوف في سبيل سفینتی
« الفايركرست » .

لم يكن لدى « جربو » خلال سنة كاملة ، إلا مساعدة انجليزيا
صغيراً ، استغنى عن خدماته بعد حين . وتمكن خلال هذا

(١) مؤلف كتاب « الدرع » La Croisière du Dreamship

(٢) أرنست شاكلتون المكنى بالبرنسدي المناطق الجنوبية ،

والتوفي سنة ١٩٢٢ .

العام من القيام بعدة رحلات بحرية في جنوب فرنسا ، كإكمال
أثناءها مواظباً على تربيته الرياضية ، ولما كانت هوايته المفضلة
«التنس» متغلغلة في نفسه ، كان يتحين الفرص ليلعبها مع صديقه
البطل «جان بوروترا» (Jean Borotra) على ساحل
«الكوت دازور» (Côte d'Azur) .

وعندما استيقن «جربو» من قدرته على احتمال المشاق
والمتاعب الجثمانية والنفسية ، اندفع بميله الطبيعي — لا بدافع
الزهو والفخر — إلى المغامرات التي لا يصدقها العقل بفازف
بنفسه ليحبر بمفرده ، دون أن يتوقف أو يلجأ إلى ميناء ،
منذ إبحاره من الإطلنطى الأوربي إلى أن وصل إلى أمريكا
على متن سفينة الشراعية .

كل من ركب السفن الشراعية هنا وهناك ، سواء في «كان»
(Cannes) أو «سان سيباستيان» (St. Sébastien) أو
«كوز» (Cows) أو جاب عرض بحرنا الأحمر أو غيره من
البحار ، يعلم أن نوع السفن الشراعية المسمى «كوتر» (Cotre)
يفضل جميع الأنواع الأخرى بفضل عمق قاعدته وتركيب
جزئته الأسفل على نمط خاص ، ليحول دون انقلابه بسهولة
كما يستطيع الإنسان قيادته بنشر أصغر شراع لينطلق به بسرعة ،
فائقة وهو في مأمن من الخطر . ولقد يزداد إعجابنا «بجربو»
عندما نراه يواجه الصعاب بقدرة ثابتة لقطع مسافة ٨٥٠٠

كياو متر بين أمواج المساء المالح .

إنها في الواقع مجازفة تستحق الذكر ، إذ لا بد لهذا المخامر من قلب فوالذي تمتزج الشجاعة فيه بالحزم ، والإقدام بالحرص ويندر لغير « الان جربو » الذي جبل على حب البحار وعشقه — أن يضارعه في هذه المنزلة .

وفي استطاعتنا أن نشبه « الفاي كرسيت » بقشرة الجوزة المجوفة ، فهي عبارة عن سفينة صغيرة صنعت من خشب السندان وخشب « التاك » (Teak) وضائق جوانبها بقدر ما عمق أسفلها ، إلا أنها تشابه في جودة أصلها ، الخيل العرب ، فطولها ١١ متراً وعمقها ١,٨٠ سم ، وتحمل في قاعدتها ثلاثة أطنان من الرصاص ، وثلاثة أطنان من « الصابون » في داخلها ، وليس لها إصارية واحدة . ولما كان سطحها لا يتسع لوضع زورق نجاة كما تليه عمليات المعاهدات وبنودها ، فقد اكتفى « جربو » بزورق صغير جسد أ من نوع « البرتون » (Berthon) طوله ١,٨٠ سم ، ويمتاز بقابليته للانطواء ، وهو أقرب ما يكون من زوارق النجاة التي تزود بها الغواصات . ومتى طوى هذا الزورق ، فإنه لا يشغل حيزاً ، حيث يمكن تعليقه في طاقة السفينة . ولكن خبروني بالله ما فائدة النجاة من الغرق ، إذا غاص من البحار أعز شيء لديه في الدنيا ، أعني سفينته ؟

ونجد داخل هذا المأوى العائم ، وهو المسكن الوحيد
 « لجربو » الذى شب فى عز والديه ، ثلاث حجرات . الأولى
 حجرة النوم ، وجعلها فى المؤخرة وفيها أثاث من الخشب
 وسريران تحتها خزانان ، وعلى جانبي سريره أدرج غصت
 بشتى السكتب لتكون فى متناول يده . ورغم سطح سفينة
 المحدود المساحة ، فقد شغله بأربعة أمتار من السكتب ، أى
 بما يقرب من مائتى مؤلف .

وكم كان جربو يحب هذه الاصنفات المصنفة فى الخانات
 الممادة لما ! ونذكر من بينها ، مؤلفات أفلاطون وشكسبير
 وكبلنج وتميسون وفيرهيرين وغيرهم . وشيلي وستيفنسون
 وجاك لندن وكنراد

(Platon, Shakespeare, Kipling, Temyson, Shelley,
 Stevenson, Jack, London, Conrad, Verhaeren).

بيد أنه كان يضع على مخدعه بجوار رأسه مؤلفات « لوتى »
 (Loti) وفارير ، التى شغف بها

وجعل الحجرة الثانية أمام غرفته فى منتصف السفينة ،
 وأثاثها من الخشب المهورجن ، ووضع فى جانبيها ، خزانين
 ضمما أعز ذكرياته ، فضلا عن أدوات « التنس » ويتوسطهما
 نحوان من النزع القابل للانطواء . وتضاء هذه الحجرة بمشكاة
 وشموع معلقة فى ذراع حديدى متحرك .

والحجرة الثالثة جعلها فى مقدمة السفينة وفيها عائدة غسيل

تتسع لخمسین لتراً من الماء الزلال ، ثم رتب في هذه الغرفة
بقية الأدوات اللازمة للطهي ولم يذس موقد الغاز ، وقد علمته
في ذراع حديدى متحرك حتى يظل دائماً محتفظاً بوضعه
العامودى مهما اهتزت السفينة في اليم ، ولم يفته وضع خزانات
لحفظ الأطعمة والمؤن على اختلاف أنواعها . هذا وقد ركب
في الجانب الأيسر من السفينة مضخة متصلة بمستودعى ماء
عذب فرات .

هذا هو الوصف الوفى لسفينة آلان « جربو » المسماة
« فاير كرسى » .

وجاء يوم السفر ، يوم ٢٥ أبريل سنة ١٩٢٤ ، وهو
من أيام فصل الربيع ، ربيع « السكوت داور » الزاهر
الضئير . ورسا في ميناء « كان » (Gannes) الضئير الجميل ،
ثلاثون يختاً مختلف الأهم والشعوب ، ووقفت بجانب
« الفاير كرسى » على صفحة الماء المضاءة بأشعة الشمس
كالطائر الأبيض الجميل السفينة « لا برليت » (La Perlette)
وطولها ٧ أمتار ، وتملكها سيدتان فى عنفوان الشباب ،
وكان يحلو « لجربو » أن يلقبهما « بالبحارتين » حيث كان
يلذ لها الصعود على الصارى لإصلاح الشراع بنفسيهما . كما
استعدت السفينة « لافنجر و » (Lavengro) وشى من نوع

« السكتش » (Ketch) وزنها ١٢٠ طناً ، للتوجه إلى جبل طارق ،
وكان أيضاً جبل طارق قبلة ، جربو ، وأول مرحلة له قبل
مغامرته الجبارة .

إن « جربو » يعلم في قرارة نفسه صعوبة التغلب على
سفينة أكبر من سفينته عشر مرات ، وتقل فوق ظهرها ثمانية
بحارة ، ولكن ليس بضائره كل هذا . إنه لا يود أن تسبقه
« اللافتجرو » ، ولقد استطاع « جربو » الانطلاق بسفينة
قبلها ، وهنا اشتدت الرياح ، وقد يخيل للمرء أن الرياح إنما
اشتدت ، لتعين ذلك الرجل الأسمر ، ذا القامة الطويلة ،
والقامة العريضة ، والعضلات المفتولة ، والوجه المسكتب
في جلد ، على أن يشق بسفينته المساء شقاً قوياً ، وسرعان
ما علت ثغره ابتسامة عريضة ، رغم اتجاهه نحو المستقبل
المجهول .

ووقف ذلك الرجل الأسمر الملتحي على الحاجز الجانبي
للفايركست ، ورى بهمه لآخر مرة ، نحو الميناء ، فرأى
منديلين يرفرفان له في الهواء من « البرليت » الراسية :

— ليكن حظك سعيداً يا « جربو » !

ورفع « جربو » يده راداً التحية ، تحية ابن البحر
الآخيرة للأرض التي تركها وراءه .

جبل طارق

المرسى الوحيد

اشتدت الرياح والأمواج بعد خروج « جربو » من الخليج الذى كان يؤويه ، وهبط مقياس الجو ، ونحرت مقدمة « الفاير كرسى » عباب اليم ، واعتلى الزبد سطح السفينة ، وغابت الأرض من الأفق ، بينما كان « جربو » يغنى .

وفى يوم ٢٦ أبريل ، هبت الرياح من الشمال الغربى ، وجرى « الفاير كرسى » مسائراً لسرعة الأمواج ، وهبط مقياس الجو مرة أخرى ، وأُنذر الجو بالعواصف . وأصبحت السفينة ترقص فى جو الأمواج المتلاطمة .

ولم تزل العواصف تشتد فى يوم ٢٧ أبريل ، ولم يفتأ مقياس الجو يهبط ، كما ظلت الأمواج تداعب طيلة الليل سطح السفينة ، مما اتعب « جربو » الواقف يسوس الدفة ١٦ ساعة متوالية ، ثم اضطره إلى مسايرة الرياح الشديدة بتقصير الشراع بما عرف عنه من مهارة ودقة ليدوق طعم الراحة قليلاً .

وفى ظهر يوم ٢٨ أبريل ، سكنت الرياح ، وهدأت الأمواج ، ولما كان ليعود على أشدها فى الساعة مساءً ، فلعبت بالسفينة ، وجعلتها لا تستقر على حال من الاضطراب .

ولم يزل البحر على حاله في يوم ٢٩ أبريل ، أما
العواصف التي هاجت من الشمال الشرقي ، فقد اتجهت ، في
الأساء نحو الغرب ، واضطر « الفايكرست » أن يشق طريقه
عند الرياح بصعوبة كبيرة .

وفي ٣٠ أبريل ، هدأت العواصف وارتفع مقياس الجو
وتنفس النسيم العليل ، وعاد إلى البحر سكونه وروعته

وفي أول مايو ، وهو اليوم السادس لإبحاره من « كان »
كان لابد « لجربو » من أن يجد نفسه — استناداً على
حسابه — على مقربة من الأرض ، وجاء الظار ، ورأى
« جريو » من فوق الصاري أحجاماً مخروطية الشكل تنبثق
من الماء . . . وكانت الأرض ، وهنا شعر « جربو » بشيء
من الفخر عند رؤيتها ، حيث ثبت له صحة حسابه ودقته في
تقنون الملاحة . كان جربو في هذه الساعة على بعد ٤ ميلا
من « جزر الباليار » ^(١) (Iles Baleares) .

(١) أطلق الأوربيون منذ زمن بعيد على هذا الجزء من البحر الأبيض
المتوسط « بحر القراصنة » لأن البغاة الشرقيين الذين لم يكونوا أكثر
لاغارة من غيرهم من القراصنة ، كانوا يقومون بغاراتهم فيها منذ القرن
التاسع حاملين بضائعهم من الجزائر ومراكش إلى أسبانيا وجزر الباليار ،
ولم يألوا جهداً ، ولم تفر عن مخيمهم طوال القرون في مناضلة ومقاومة البندقية
وجنوا ، وشارل الخامس ، وسفن البابا والبرتغاليين وغيرهم حتى سنة ١٨٣٠
وهي السنة التي احتلت فرنسا فيها الجزائر .

وفي ٢٨ مايو، ظهرت قطع من الأرض هر مية الشكل، وما جاء
 المساء إلا وظهرت من البحر جزيرة «ماجورك» (Majorque)
 وفي ٣ مايو استطاع «جربو» تمييز أسطح الدور والمنازل،
 وظل أياما كثيرة يحول بسفينته ملازماً الشاطئ الشمالي لخدمة
 الجزيرة. ويقول «جربو» في ذلك: اكتشفت فجأة عنبة
 بورت سولير (Port — Sole) القديمة، ووجدت نفسي وسط
 عمارة من سفن صغيرة للصيد كانت خارجة من الخليج،
 وأشار الصيادون له بالاقتراب، واستعدوا للترحاب به
 كصديق، إلا أنه أسرع بسفينته إلى عرض البحر، ويقول
 «جربو» «إن المصنوع والعزب لا تكون بالنسبة لنا، نحن البحارة،
 إلا كما يراها المار في منعطف الطريق، يتركها ويحمل منها الذكرى»
 وظل الريح ضعيفاً عدة أيام حتى أن سرعة «الفاير كيت»
 لم تزيد في اليوم عن ١٥ عقدة. لم يهتم «جربو» بهذا البطء،
 لأنه كان على غير عجل، ولقد تمكن من مشاهدة جمال جزر
 «الدراجونيرا» (Dragonera) و«فيزاء» (Fulza) و«تورمانتيرا»
 (Formontera) بامعان وترو أثناء مروره أمامها بفضل خفة
 النسيم الذي جعل تجمع سطح البحر لا يكاد يبين.

وفي ١٥ مايو ظهر «لجربو» وجه تلك الصخرة الصماء
 الكئيبة، صخرة جبل طارق بن زياد^(١) وهي تمثل أسداً

(١) أول قائد مسلم أغار على أسبانيا وفتحها سنة ٧١١ وتجهيذا بطرائقه
 أطلق اسمه على الصخرة المشرقة على البحر، فسميت «جبل طارق».

رابعداً ، مسنداً رأسه على يديه الميسورتين نحو الجنوب .
 مدير أظهره لألمانيا ، ومتجهاً بصره نحو السواحل الأفريقية
 ولا يستطيع المشاهد من البحر ، أن يتأمل هذا الجلود من
 الصخر ، دون أن تأخذه الروعة والدهشة .

وتجاوز « جربو » قبيل الظهر آخر نقطة من أوروبا ،
 بدخوله ميناء جبل طارق ، ولشد ما كانت دهشة الشرطي
 والسلطات الصحية البحرية عند مارأوا « جربو » مقبلاً
 عليهم من فرنسا بمفرده في سفينة الشراعية .

ولقد قابلته الأيرالية البريطانية بحفاوة كبيرة ، بلغت
 حد تطوع الصناع الإنجليز في الترسانة ، لإصلاح ما غمد من
 السفينة وإعدادها لسفرها المقبل الطويل .

وعند ما تم له كل شيء ، أرسل قبيل إبحاره ، لأحد
 أصدقائه ، بطاقة جاء فيها البيان الآتي :

٣٠٠	لتر ماء
٤٠	كياو لحما ملحا
٣٠	كياو كعكا
١٥	كياو زبدة
٢٥	علبة مربى
٣٠	كياو بطاطس

ثم رسم سهما صغيرا يشير إلى علامة استفهام ، ذكر
 بعدها هذا العدد الغامض المعنى : ٥٠٠ ميل .

ولعله كان يريد في حالة إخفاقه ، أن يجعل محاولته عبر
 الأطلنطي ، سرّاً مجهولاً .

عبر الاطلنطي

ترك « آلان جربو » جبل طارق في ظهر يوم ٦ يونيو، بعد أن تزود بطعام يكفيه أربعة أشهر مقبلة، كما تجهز بجميع أدوات الملاحة الدقيقة اللازمة لرحلته الشاقة ومغامرته الشاذة. ويقول « جربو » : « انطلقت مغتبطاً مسروراً لما سأجشمه من صعب وأذله من عقبات . وكان الجو صحواً ووضعنا ثقى في سفينتي ، وفي مهابق في أفانين الملاحة . وألقيت بنظرة أخيرة على الأرض وعلى صخرة جبل طارق التي كانت تتلألأ تحت أشعة الشمس . ثم ازداد النسيم هبوباً عند مغادرتي خليج الجزائر وخروجي بسفينتي من المضيق (١) » لا بد للسفينة التي تخرج من مضيق جبل طارق في اتجاهها نحو الجنوب الغربي ، أن تواجه الرياح الشمالية الغربية، وأن تمر من بين دائرتي السرطان والجدي . ثم لها بعد ذلك أن تتجه شطر الغرب وأن تمر من جنوب « جزر برمود » (Iles Bermudes) قبل أن تصعد إلى نيويورك . وليس الخط المستقيم أقرب طريق بين نقطتين لسفينة شراعية . وإذا كانت الباخرة التي تغادر نيويورك قاصدة جبل طارق تصادف حتماً الرياح الغربية ، وتقطع في رحلتها أكثر من ٣٠٠٠ ميل بحري ، فإن السفينة الشراعية التي تبحر من جبل طارق قاصدة

(١) إن عرض مضيق جبل طارق يقرب من اثني عشر ميلاً بحرياً (المؤلف)

نيويورك تقطع مسافة لا تقل عن ٤٥٠٠ ميل ^(١) »

عندما غادر « جربو » المضيق في هذا اليوم ، ظل النسيم يشتد شيئاً فشيئاً ، حتى تحول في العاشرة مساءً إلى عاصفة . فهبت الرياح بغتة من الجنوب الغربي ، وهطلت الأمطار بغزارة كما لو كانت تساقط من أفواه القرب . وظلت العواصف على حالتها حتى تفككت خيوط الشراع الكبير ، مما استدعى « جربو » إلى أن يقبضه إليه ليحيكه . وكانت السفينة ، رغم هذه الرياح الجامحة تسلك طريقها بشكل عجيب .

وعندما عاد إلى الجو صحوه في يوم ٨ يونيو ، نشر « جربو » شراعه الكبير بعد إصلاحه ، مع بقية الأشرعة الصغيرة التي اعتاد نشرها في الجو الصحو .

وفي الظهر ، انضح « لجربو » من أجهزة الملاحة ، أنه على بعد ٥٠ ميلاً غرب جبل طارق . وما جاءت الساعة الثالثة حتى غاب عن ناظره « رأس سبارتل Spartel » ، القمة الشامخة التي تقدم الساحل الأفريقي .

(١) إذا كان « سلوكم » "Slocum" و « بلاكبن » "Blackburn" عبرا الأطلس من أمريكا إلى أوروبا بفردهما على سفينة شراعية صغيرة وفي أزمنة مختلفة ، فانهما استراحا في جزر آسور "Acores" وأطول مسافة قطعها دون توقف هي ٢٠٠٠ ميل . ولم يصل أحدهما إلى ما وصل إليه « جربو » حيث عبر الأطلس من الشمال إلى الشرق إلى الشمال . وهذه المقارنة تظلي فريدة في نوعها في تاريخ الملاحة المبردة (المؤلفه) .

وكان «جربو» عند ما بارح جبل طارق ، يفتظر بفارغ الصبر « رؤية الأسماك الطائرة » . ويقول في ذلك مبهدياً سروره كالطفل الذي يقتنى بعض فراشات جميلة الألوان :
 كم كنت مسروراً عند ما رأيت سمكة تالألاً نوراً تخرج من الماء وتطير نحو متر أمام سفينتى ، لتغيب في اليم سريعاً .
 لم يكن « جربو » مهتماً بملاحظة الأسماك الطائرة فحسب بل كان عليه الاعتناء بالدفة وملاحظتها اثنتى عشرة ساعة متوالية !!

وإذا كانت لوائح الملاحة تقضى استبدال البحار الواقف على الدفة كل أربع ساعات ، للشقة التى يلاقيها فى هذه الفترة ، فما بال النصب الذى كان يلاقيه « جربو » الواقف ، كما ذكرنا اثنتى عشرة ساعة على ظهر سفينة شراعية صغيرة وسط الأوقيانوس ؟

ويقول « جربو » : « كنت أسير طيلة هذه الساعات وسط الرياح الهابة من دائرتى الانقلاب بسرعة تتراوح بين ٩٠ و ١٠٠ ميلاً فى اليوم ، وكنت دائم اليقظة والانتباه . ولم أشعر خلال هذه الفترة بأى سأم أو ملل ، فقد كنت أنأمل محبوراً ، عظمة البحر . وتدافع أمواجه ، وثبات سفينتى بينها . »
 ولما لم يستطع « جربو » كعادته ، المطالعة ، فى هذه الأيام ، فإنه كان يردد بصوت جهورى ، أبيات من شعر

كيبينج وميزفيلز وشيلي فرين Kipling, Masofiel, Shelley, Verhaeren (١) .

وفي عصر يوم ١٧ يونيو ، هدأت بغتة الرياح الشمالية الباردة التي ظلت هائجة عدة أيام ، وعاد « جربو » إلى أجهزته يستجوبها ، فعلم أنه على بعد ٦٢٠ ميلا من جبل طارق ، و٤٠ ميلا من الجنوب الغربي لجزر « مادير » Madères وعند ما سكن البحر ، وانقشعت السحب من السماء ، انتهز هذه الفرصة ، ليجفف ملابسه وفرش نومه التي بللها الماء أثناء العواصف .

وظل البحر على سكونه في اليوم التالي ، فانكب « جربو » على إصلاح ما فسد من أشرعته ، ويقول في ذلك : « إن عمل النوتي أهم بكثير من عمل الملاح . فلو كنت بحاراً غير مدرب لا أدري كيف يخاط الشراع وتقتل الحبال لها استطعت الوصول إلى ميناء غير ميناء السفن الضائعة ، أشقى الهلاك ، ولما أغنت عنى علومى الفلكية شيئاً .

ثم أردف قائلاً : « كنت أقوم في فترة هدوء البحر ، بتجارب أحاول منها جعل « الفايكرست » يتزن من تلقاء نفسه أثناء سيره والرياح تدفعه من ورائه .

ولقد اتضح له أن تقصير حجم الأشرعة يخول للسفينة

(١) « بتفردى عبر الأطلس » صفحة ٥٨ مؤلفه « آلان جربو » .

سيرها باتزان . وإن كان هذا التقصير قد أضعف كثير آ من سرعتها ، فإنه لم يضطره إلى ملازمة الدفة دائماً ، مما أتاح له فسيحة من الوقت نظف داخل سفينته خلالها وتصفح بعض كتبه ، أو طهى طعامه . تخففت عنه هذه الفرصة ، كثيراً من العناء فى الأيام الأخرى التى لم يكتب الجو فيها .

اعتاد « جربو » أن يترك فراشه فى الخامسة صباحاً ، ليعد إفطاره الذى يتكون من الكعك والشاى واللبن المجفف المعقم ، أما الوجبتان الأخرى فان فكاتتا تتكونان عادة من لحم البقر المملح والبطاطس المغلى فى ماء البحر ، مما كان يعطيه نكهة خاصة وطعماً لذيذاً للغاية . . ولكن سرعان ما اكتشف « جربو » أنه كان ضحية لغش الذين اشترى منهم هذه المأكولات ، حيث وجد أن برميل اللحم المملح كان ملوئاً بالعظام والشحم من أسفله ، ومغطى من أعلاه بطبقة قليلة من هذا اللحم . لم يعبا « جربو » بهذا الغش ، وعامل نفسه — عند ما تتهى كمية اللحم الصالحة للأكل — بشيء من صيد البحر ، بما لديه من السمكات والشباك التى تزود بها قبل سفره من فرنسا .

كان « جربو » أثناء الأيام الهادئة ، يطلق لنفسه الحرية الطليقة ، عنان التأمل فى أديم الماء وأجواء السماء ، فكان شهوره يفيض بالطمانينة التى لا يعرف طعمها إلا أولئك

الذين وهبوا أنفسهم للبحر ، واصطادناهم البحر لنفسه .
وتعود « جربو » أن يقوم بأعماله فوق سطح السفينة
مخفياً من ملائسته شيئاً فشيئاً ، حتى انتهى به المآل إلى التخلص
منها جميعاً ، « تاركاً جسده يتمتع بأشعة الشمس الوهاجة ،
ذلك الجسد الذي لم يخلق ليسجن بين جدران الدور والمنازل .
وما فتئ أن التأم شيئاً فشيئاً ذلك الجرح الذي أدمى قلب
« جربو » الرقيق عند وفاة والدته التي كان يعبدها ، بفضل
تلك الوحدة الهادئة ، ومنظر الطبيعة الخلاب . وفي المساء
كان « جربو » يتأمل مغرب طاً ، منظر الشفق ، وقد استعدت
الشمس للمغيب في جوف البحر ، بينما كانت أشعتها الوهاجة
تتموج على صفحة الاطلسطى ، من أحمر قان إلى بنفسجي باهت .
وعندما أرخى الليل سدوله ، كان جربو ، وهو في نشوة
الوجدان ، يرى نفسه سعيداً ، سعيداً جداً لأنه حقق
أحلامه ، وشق طريقه إلى الحياة التي أرادها ، كما استطاع
— وهو المولود في بيت ثراء وغنى — أن يعيش بعيداً عن
جو المدينة الكاذبة الذي يممته ، وعن اسرائها الذين اعتادوا
منذ قرون مضت الحياة المليئة بالخبث والخداع ، والآلام
التي جلبوها لأنفسهم بنظمهم الاجتماعية المبنية على التكالب
والتشاحن .

وكان يحلوه ، وهو في عتمة الليل البهيم ، إلى أن يظل

بحوار دفة سفينته ، عارى البدن ، وغير مدفوع بروح
التوحش ولا بمس من الجنون ، يضحك للنجوم الزواهر
بقلب ملؤه السرور البريء الذى يستحيل أن يدخل قلوب
أولئك الماديين الذين قلبوا بتعاليم الخداعة ، أوضاع
الإنسانية المهينة .

واستطاع « جربو » سريعا أن يعتاد نوم البحارة ، ذلك
النوم الخفيف المروض للقوى المعيد للنشاط الجسماني ،
والذى يحمله سكان المدن . ولقد قال انطيفيل « Antiphile »
البيزنطى ، فى هذا المقام ، منذ ألف سنة : « ما أحلى النوم
على حصيرة فى ركن سفينة من ذوات المقاذيف الثلاثة يسمع
المزمع فيها صوت الرذاذ المتساقط من الأمواج على قطع
البلد التى تغطى بقوة العنبر » . وتمدد « جربو » على فراشه
واضع رأسه تجاه حافة السفينة على بعد بضعة سنتيمترات
من الماء : ويقول كنت أفعل ذلك لأستطيع أن أقف
على سرعة السفينة من صوت جرجرة الماء المتلاطم على
جانبيها ، كما كنت أتبين ، من حركتها ونسبة اضطرابها ،
تحولها عن اتجاهها بالنسبة للريح ، فكنت أصعد فوقها
لأذن الدفة .

وشامت المقادير أن يهب ريح من الشمال فى ٢٣ يونيو ،
فيمزق شراعها ، مما اضطر « جربو » لأن يمضى نصف اليوم

في رتقه . وكان يتساءل — لسرعة تلف الشرع — إذا كان
المتبقى لديه من الخيط والخياط والقماش يكفيه لإصلاح ما يبلى
منها مستقبلاً . ولكن «جر بو» لم يعبأ — كما هي عادة رجال
البحر — بهذه الفكرة التي دارت بخياله ، وحدث نفسه
مازحاً : « إن نفذ القماش سأمتعين بأغطية السرير ، وسوف
أضحك كثيرأ لدهشة أهل نيو يورك عندما يبصرونني وأنا
داخل في ميناءهم بسفينة فرنسية صغيرة ، سالت فيها فرش
السرير المتعددة الألوان محل الأشرطة !! » .

ورأى لأول مرة ، في يوم ٢٨ يونيو ، أسماكاً كبيرة
بين جرة السفينة .

وفي ٥ يونيو ، سكنت العاصفة التي قامت منذ ثلاثة
أيام . وطفت بعض العشب البحرية بجانب السفينة ، وعلم
«جر بو» أنه دخل في بحر «مرجاس» "Mer des Sargasses"
كما بصرت قطع من الخشب المتآكل وقدار تشقت فيه القواقع ..
وربما كانت هذه القطع بقية سفينة غارقة في جوف الاطلنطي .
ولشد ما قلق «جر بو» في يوم ٦ يونيو ، عندما تبين
له أن أكبر كمية من الماء العذب التي أدخلوها قبيل سفره من
جبل طارق ، أسمنت وأصبحت غير صالحة للشرب . ويحمل
بنا أن نعرف القارىء ، أن «جر بو» اشترى ٣٠٠٠ لتر من
الماء الزلال وخدمها داخل وعائين من الحديد «المجلفن»

(المطالي) وثلاثة براميل من خشب السنديان ، قلبا أتي
تقريباً على ماء الريحانين ، كان ماء البراميل قد دب فيه التعفن
وهكذا أظهر له أن الذين اشترى منهم البراميل في جبل
طارق قد غشوه فيها أيضاً ، حيث إنها كانت حديثة الصنع ،
لم يحف خشبها بعد .

لم يبق لدى «جربو» ، إلا ٥٠ لترآ من الماء ليروى بها
ظمأه . ولكن هل تكفيه هذه الكمية وهو على بعد ٢٥٠٠
ميل من نيويورك ؟ إنه موجود الآن في دائرة السرطان ،
دائرة الانقلاب الصيفي ، وقد يظل بلا أمطار مدة شهرا وقد
تزيد .

ويقول «جربو» : «وبعد أن حسبت عدة الأيام الباقية
لانتها رحلتى ، صممت على طهي الطعام بماء البحر المالح
وشرب قدح واحد من الماء فى اليوم .

ولكنه أصيب بضربة شمس ، فسامت حالته الصحية
والتهب حلقه . واشتد عليه العطش . وكان يردد البصر فى
الأفق ، عسى أن يرى عارضا متبلا ، فيه ما يروى غليله ،
ويجمع من مائه قدرآ يضيفه إلى الكمية الضئيلة الباقية لديه ،
فيتسنى له الشفاء من آلام الظمأ الذى لا يطفىء ناره قدح
واحد من الماء كل أربع وعشرين ساعة . ولكن السماء ظلمت
صافية الأديم ، كما لم يهبط مقياس الجو .

وفي ٧ يوليو ، اشتد الأوار ، وغاب عن ناظره السماء
الطائر ، وكانت الشمس تلفح رأسه المريض بأشعتها الحارقة ،
ولكن هيمات له أن يزيد عن القدر . فهو يخشى الهلاك
عاشاً في وسط البحر . وهنا تذكر هذا البيت من أشعار
« كودريج Codridge » :

« الماء يحيطني من كل جانب ولا سبيل للارتواء »
ثم انتابته همى مصحوبة برعدة ، تورم حلقه الملهب
على أثرها .

وفي يوم ٩ يوليو ، شم رائحة كريهة منهمة من برميل
اللحم المالح ففتحه ، فوجد اللحم قد أتن فألقى بالبرميل
كله في اليم .

تحمل « جربو » الضمأ ، فليت شمري هل يتحمل الجوع ؟
أين الأمطار ؟ إنه يردد بصره في السماء ، فينقلب إليه خاطراً
وهو حسير . وعندما جن الليل ، قبض إليه الشراع الكبير ،
تاركا سفينته تشق عباب البحر ببقية الأشرعة الصغيرة .

وفي ١٢ يوليو ، ساء الجو . وكلما اشتدت الرياح الهوجاء ،
سمع « جربو » صوت شيء يتمزق . . وكانت أشرعة السفينة
هى التى تتقطع . فظل يرتقها ويصلحها طيلة الليل .

ولترك « جربو » يحدثنا عن يوم ١٤ يوليو : « ارتفعت
فيه الأمواج إلى علو عشرة أمتار . وكانت تتقدم نحو

« الفايبر كرسى ، ولها زئير مخيف ، فكانت سفينتى تشق طريقهما بينهما ، وكان الماء يعلو ظهرهما كل حين ، وكان حرقاً من الصعب على أن أظل أنزع الماء من فوق سطحهما ، دون أن تقذف بى الأمواج إلى البحر . إنه لعمل شاق ومرهق ذلك الذى قمت به .

ولم يفت « جربو » ، أن يوم ١٤ يوليو هو يوم العيد الوطنى الفرنسى ، فكلف نفسه مشقة رفع الراية المثلثة الألوان ، وراية نادى التجديف الفرنسى الذى ينتهى إليه . ورغم اللهب الذى كان يشعر به فى حنجرتة ومرثته ، وثقل رأسه من الحمى ، فإنه وقف أمام الراية الفرنسية ، بين العواصف وسط المحيط ، ورفع يده مؤدياً التحية اللائقة بها ، بقلب ينبض إجلالاً لها وحباً لبلاده .

ويقول « جربو » متحدثاً عن ١٥ يوليو : « عندما صعدت إلى سطح سفينتى الصغيرة ، وجدتها ماضية فى طريقها كما لو كنت ظلمات ممسكا بالدفة طيلة الليل . وإذا عرف إخواننا قاطنو الأرض ، هذه الطاعة من السفن ، لما دهشوا من تفان البحار فى حبه لسفينته التى يعتبرها كائناً حياً يعقل ويشعر » .

وفى ١٨ يوليو ، أخذت الرياح فى الهسودم ، فأصلح جربو شرعه الممزقة التى أصبحت تبلى بسرعة . ثم أعقب

هذا الهدوء موجهة من النسيم العليل ، تخللتها رياح شديدة نوعاً ما . ويقول « جربو » في ذلك : « قضيت ثلاثة أيام في رتق شراعى بينما كنت أقود السفينة . أكثر الوقت ، بوضع قدمي على الدفة أحر كها ذات اليمين وذات الشمال . وظهرت في هذا اليوم الأسماك الطائرة وسقط كثير منها على ظهر السفينة ، فأكلت لأول مرة منذ عدة أسابيع ، لحماً طرياً طازجاً . ثم أردف قائلاً : « لا يستطيع إنسان أن يقدر لذة طعم لحم السمك الطائر ، مثل ما يقدره من ظل يأكل لحماً مملحاً وقديماً أسابيع عديدة » .

وجاء يوم ٢٤ يوليو ، ولم يزل « جربو » مصحماً على شرب القدح الواحد في الأربع وعشرين ساعة ، حتى ازدادت أورام حلقه كثيراً ، ولم يستطع إلا ابتلاع كمية قليلة من اللبن المركز . وهزل جسمه من الحمى . وكان يخيل إليه أنه يرى أرضاً على مسافة قريبة . . . وكان السراب يلعب دوره . . إن الحمى أضنته كثيراً بقدر ما هزلته . ويقول « جربو » : « كان من العسير عليّ أن أتناول أكثر من قدح ماء واحد في اليوم رغم ما كنت أشعر به من لبيب يتأجج في رأسي » ، لذلك نراه قد قبض إليه جميع الأشرطة ، عدا الامامية منها ، ثم نزل إلى حجرته وألقى بنفسه على السرير ، تاركاً (الفايكرست) يشق مسيله في البحر سرباً على بركة الرحمن .

واصبح يوم ٣ أغسطس ، وهو اليوم الخامس والخمسون
 « لجربو ، في البحر . وكان على ٥٤ درجة من الطول الغربي
 و ٩٠,٣٠ درجة من العرض الشمالى ، أى على بعد ١٧٠٠ ميل
 من نيويورك . فأكمل سير ممتجهاً إلى جنوب جزر «برمود» .
 ولكن لا بد له من قطع مسافة ١٠٠٠ ميل قبل أن يصل إليها .
 أما يوم ٤ أغسطس ، فكان يوم هتاءة وسعادته ، حيث
 تجتمعت السحب الداكنة في الجهة الغربية من الأفق ، تحمل
 الأمطار التي ينتظرها بفارغ الصبر .

لم يملك « جربو » نفسه من شدة الفرح ، عند رؤيتها .
 ويقول ذلك : « لم أجد كلاماً أصف به سرورى عندما
 اضطرب الجو واقتربت العاصفة » . واستطاع أن يروى
 غلته ، وأن يدخر ٥٠ لتراً من ماء المطر . ويقول بعد أن
 تزود بهذا القدر من الماء : « لم أجد مبرراً يدفعنى إلى الإسراع
 للوصول إلى نيويورك ، فقد كنت أشعر وأنا في وسط
 الأوقيانوس ، بأننى في عقر دارى » .

وكان « جربو » في ٩ أغسطس ، وهو اليوم الخامس
 والستون لإقلاعه من جبل طارق ، على بعد ٥٠٠ ميل شرقى
 جزر «برمود» ، و ١٢٠٠ ميل من نيويورك ، ويقول في ذلك :
 « لو وضعت ثقتى فيما استفدته من تجاربى ، واستخلصته من
 عمليأتى الحسابية ، لتأكدت من وصولى إلى نيويورك بعد

شهر . ولكنني أعلم يقيناً ، أن الماضي لا يعتبر قياساً ثابتاً للمستقبل . كما حدثني شعوري الباطني ، أن عواصف شديدة ستصادفني من الغرب أثناء سيرى ، قبل أن أصل إلى سواحل أمريكا . وفعلاً تحقق هذا الإحساس الخفي فيما بعد . ثم أردف قائلاً :

« وهبت الرياح من الغرب بشدة . وكنت أرغب في المرور جنوب جزر برمود الأمر بخليج «ستريم» (Stream) واستفيد من تياره الشمالي الشرقي عند اتجاهي شطر نيويورك . لذلك أدركت «الفابير كرسيت» ، نحو الجنوب الشرقي . وظلت العاصفة تشتد طيلة الليل » . ثم غيرت طريقي ، بأن اتجهت نحو الشمال الغربي ، وبعد أن نشرت الأشرعة بشكل يخول «الفابير كرسيت» الثبات على الاتجاه الذي أردته له ، استلقيت على فراشي الذي لم يبتل لحسن حظي . وأسلمت جفوني للنوم . وفي يوم ١٠ أغسطس هبت رياح خبيثة ألفت «بالفابير كرسيت» في «دوامة» من الزبد ، واعتلت الأمواج السفينة ، وكانت مياهها تسيل على سطحها من المقدمة إلى المؤخرة . وواجه «جربو» أكبر صعوبة عندما أراد أن يستنخر أجهزته في هذا اليوم العاصف وسط بحر هائج مائج ، حيث اضطر أن يثبت على ظهر السفينة وهي تضطرب وترج ، بقدميه فقط ، معرضاً نفسه للطمات الأمواج الكاسحة .

وتمكن رغم ذلك من القيام بما أراد بمهارة فائقة ، ثم نزل إلى قاع السفينة ودخل غرفته وهو مبلل بماء البحر ، ليسجل ما رصده جهازه على ضوء « السكر ونومتر » .

وهبت عاصفة شديدة ظلت تلعب بالسفينة من يوم ١٥ إلى ١٧ أغسطس ، وأصبح سطح الماء مساوياً للأرضية الغرفة ، وكلها مالت السفينة على جانبيها ، دخلت المياه إلى أدراج خزانته لتبلل مخدعه وتفسد كل شيء تأتى عليه .

وتوقع « جربو » في صبيحة يوم ٢٠ أغسطس باشتداد العاصفة وأنها ستفوق في بطشها كل العواصف التي مرت به . ويحدثنا عنها قائلاً : « وفي العاشرة صباحاً تحولت الرياح إلى عاصفة هوجاء ، واعتلت الأمواج سفينتي من كل جانب ، وقامت تباطمها بشدة كما لو كانت تريد نسفها . ولكن ظلت سفينتي تشق طريقها بين الأمواج بشدة ، حتى أن نفسي حدثتني بالشدو والغناء من شدة الفرح . وعلى حين غرة ، وكان الوقت ظهراً ، كدت ألقى حتفي غرقاً مع سفينتي في قاع البحر . ذلك أن « الفايركرست » كان يشق طريقه مندفعاً بقوة الهواء من الخلف ، وإذا بي أرى موجاً مقبلاً على من الأفق كالطود العظيم ، قد ابيض أعلاه من الزبد وله زئير مخيف . أقبل على هذا الموج المشهخر بصوت كهوت الرعد ، وعلمت أني لا محالة هالك إن بقيت على ظهر السفينة ، فسارعت

بتساق الصارى وما وصلت إلى نصفه ، حتى حط هذا الموج الضخم على « الفايبر كرسى » فذكه . وظل هنيهة مائلاً على جانبه من جراء تلك الدكة السكراء وكنت أسائل نفسى هل من تخييص . . ؟ ثم خرج « الفايبر كرسى » من بين الزبد رويداً رويداً ، حتى استوى على الماء فتركت الصارى ، وفحصت بنظري السفينة ، فوجدت الموج قد أودى بالجزء الخارجى لصارى المقدمة .

شبرت ساعدا الجدل لا نقاذ سفينتى واضطارت لنشر الشراع الكبير .

وانزلت قدما « جربو » مرتين ، وكاد يقح فى البحر . لولا أن سارع بإمساك ماصادف يديه من خشب السفينة . ولم يزل واقفاً عليها حتى أصلح الحبال والأشرعة ، وأعاد لها متانتها الأولى . وأقبل الليل عليه ، وشعر بالتعب فنزل إلى غرفته ليستريح . ويقول جربو بعد هذه الصدمة : « كانت جزر « برمود Bermudes » على بعد ٣٠٠ ميل من الجنوب ونيويورك على مسافة ١٠٠٠ ميل تقريباً ، حيث أن خليج « ستريم Gulf Stream » سيضطرني إلى تغيير اتجاهى بدوراني حوله . وكنت أعلم طيباً ، أن أفضل ضمان لسلامتى ، هو اتجاهى نحو جزر برمود Bermudes ، وقد أصل إليها فى بضعة أيام ، لأتمكن هناك من إصلاح ما فسد من سفينتى ، قبيل

أن أوليها شطر أمريكا ، ولسكني عزمي على السفر دون توقف من جبل طارق إلى السواحل الأمريكية ، وكان يحز في قلبي أن أغير هذا المشروع الذي عقدت النية عليه . . وحاولت النوم سدى ، وكان الصاري يهتز بقوة خفت عليه منها التسكسر ، وظلت ساعات كثيرة ممدداً على سريري بين براثن اليأس (١) .

ولكن خبروني بالله ، أيوجد شيء في الدنيا يثنى عزم رجال البحر ، أو يحد من إصرارهم ؟ لذلك نجد « جربو » يلوم نفسه قائلاً : « وسرعان ما خجلت من نفسي لتجرد الفكرة التي طرأت عليّ بضع ساعات في أن أتجه نحو جزر « برمود » !

وهذه العاصفة قليلاً في يوم ٢١ أغسطس . وعزم « جربو » على القيام بالمستحيل ، ألا وهو إصلاح الصاري ، وترميم ما أصاب السفينة من تهشيم « وكان من الصعب عليّ ، كما يقول أن أتسلق هذا الصاري المرتج ، كما كان من العسير أن أظل ثابتاً عليه » .

وطوق « جربو » الصاري بساقيه ، وظل يعمل في إصلاحه وتقويته ساعة كاملة ورأسه مدلى إلى أسفل : « ولما كان عليّ

(١) كتاب « مفردى عبر الأطلسي » تأليف جربو ص ٤٩ .

إصلاح الصارى الأفقى (١) فقد أخذت معى البليطة والمنشر ، .
فتح جربو بالبليطة فجوة ليثبت فيها صارياً أو جده له
الخط ، يقصر قليلا عن سابقه . ولكن لم يغن كل هذا عن
السفينة شيئاً . فظل بضع ساعات أخرى يصلح المضخخة وبقية
التلف الذى لحق « الفايكرست » .

إن الخطر قد زاد فى نشاط « جربو » وضاعف من قوته ،
فلم يزل يجتهد ويكد حتى انتهى من الإصلاحات جميعاً . ويقول
فى هذا الباب عن نفسه :

« كنت فى شدة الإعياء ولكن نشوة النصر أكسبتنى قوة
غير محدودة فقد كنت أجمع بين عمل صانع « القلوع » ووظيفة
النوتى المختص بالملاحظة من « فوق الصارى » ، وحرفة
النجار والبحار . وسررت كثيراً عندما أتممت هذا العمل
الشاق ، ثم نمت وثرى باسم ، تداعبنى فكرة اقتراب سفينتى
من هدفها البعيد الذى لم يخامرنى اليأس بعد فى الوصول إليه .
وفى يوم ٢٥ أغسطس ، بعد أن أصلح شقاً طويلاً فى
شراعه الكبير ، استطاع أن يحدد موقعه بواسطة الكرونومتر
وجهاز « Sextant » الخاص بقياس المسافات .

إنه كان على 62° من الخط الطول الغربى و 38° من خط
العرض الشمالى .

(١) صارى يوضع أفقياً على مقدمة السفينة .

وشاهد في يوم ٢٧ أغسطس لأول مرة أثناء سفري ،
 منظرآ من أغرب المناظر البحرية وأعجبها . شاهد نافورة
 من الماء عامودية الشكل تجمع بين السحاب والبحر . ويقول
 عنها « جربو » : « وعلى بعد ميل تقريباً مني ، ساق الريح
 سحباً أسود اللون منخفض العلو . وقام عامود من الماء
 حلزوني الشكل يصل بين هذا السحاب وبين ماء المحيط .
 وكان يدور بسرعة فائقة أثناء غوصه في اليم . كان المنظر
 بديعاً حقاً . ولا أكون مبالغاً إذا قلت أنه كان من العسير
 عليّ ، أن أتبين من أين ابتدأت هذه النافورة ، وأين ذهب
 السحاب ، حيث غابت هذه الظاهرة بين عاصفة من الرياح
 الهوجاء ، لا يقل صوتها عن صوت الرعد » .

وفي صباح يوم ٢٩ أغسطس ، بينما كان « الفايكرست »
 في وسط المحيط يشق سبيله في طريق السفن البخارية ، أبصر
 « جربو » الباخرة . وعندما دنت منه ، رفع العلم الفرنسي
 إلى أعلى الصاري . ويقول : « فعلت ذلك ليعرف رجال
 الباخرة أنه لا يزال في فرنسا بحارة » . ثم أشار بيديه
 إشارات معناها : ياخت فرنسي ، فايكرست ، ٨٤ يوماً
 من جبل طارق .

لم يفهم ربان هذه الباخرة اليونانية — التي كانت تقل
 ألف مهاجر إلى نيويورك — معنى هذه الاشارات . وأبطأ

السير حتى اقترب من سفينة « جربو » ووضع فمه في الصور
المبكر للصوت ، وسأل « جربو » بلخمة انجمازية ضعيفة
التركيب ، ماذا يعني ؟ ولما لم يك لدى « جربو » آلة لتكبير
الصوت فقد اتعب رثيقه في الرد عليه ، وإفهامه بأنه لا يريد
شيئاً ، وأنه ترك فرنسا لنزهة بحرية ، وكل مايرجوه منه
هو أخبار السلطات البحرية الأمريكية في نيويورك بقدمه
ومسكت الدعشة أفئدة البحارة والريان والمهاجرين . وطغت
على صوت « جربو » أصوات مئات المسافرين الذين اتقاهم
الدعشة عند رؤية هذه السفينة الصغيرة التي يسوسها رجل
واحد لا يكاد يستر جسده العاري هندام .

ويقول « جربو » في هذا الصدد : « عندما أتذكر مقابلتي
لهذه الباخرة ، ولا يكاد يسترني رداء ، أفهم سبب ضجة
رجالها واندعاشهم . ولقد حاولت سدى أن أشير إليهم
بإشارات معناها : امضوا في سبيلكم ، أنى لست في حاجة
إلى مساعدتكم ، ولسكن الباخرة اقتربت منى — وفي اقترابها
خطر على سفيتى — وأوقفت آلاتها . . . » .

ولكى لا يتشهم « الفاير كرسست » الصغير في صدام مع
مقدمة الباخرة ، لاسيما وأن البحر كان مضطرباً ، فقد ألقوا
إلى « جربو » بحبل ربطه في صاريه . ويقول جربو في ذلك :
« وطلبت منهم أن يسحبوني إلى الأمام ، حتى ابتعد عن

جبرتهم الخطرة . ولشد ماد هشت عندما تحركت آلات
البخرة لتجر « الفايكرست » خلفها . وحاولت ، بغير
جدوى ، إفهامهم بأنى لست فى حاجة إلى عونهم ، وأخيراً
اضطرت لأن أقطع الحبل بمدية كانت معى .

استطاع « جربو » أن يبتعد عن البخرة ، ولكنه
تضرع كثيراً عندما رأى زورقاً يهبط منها إلى البحر .
وأوقف جربو سفينته على مضض منه . ويقول فى ذلك محدثاً :
اقرب منى ضابطان يونانيان فى لباسهما الموشع بالذهب
على غرار لباس ضباط جنوب أمريكا . ونخشيا بادىء الأمر ،
لهياج البحر ، الصعد إلى سفينتى ، وأخيراً قفزا إلى سطحها
واختل توازنهما ، فوقما بجاني . . . :

سأله أحدهما لماذا لم يلاحظ الدفة عندما كان « الفايكرست »
مواجهاً للبخرة ، حيث إن أول واجب للزبان هو مراقبة
الدفة دائماً . فتألم « جربو »^(١) من هذه الملاحظة الجارحة ،
ورد عليه قائلاً : « لا يجدر بالبحار الماهر أن يكون ميكانيكياً
يعمل فوق قاطرة تجرى على الماء فحسب ، بل الأولى له أن
يعرف أن السفينة الشراعية لا تساس بغير رياح تدفع
أشرعتها . وإنى يا صاح لم أعبر الأطلنطى بمفردى لأنظر
سماع درس فى كيفية قيادة سفينتى » . ثم عاد « جربو » فأكد

(١) من كتاب « بمفردى عبر الأطلنطى » تأليف « جربو » ص ١٦٧

لها أنه لم يشأ أن يوقف الباخرة طلباً لعون أو مساعدة ،
ورجائهما أن يوصلا رسالة منه إلى نيويورك . وأخذ ورقة
وقلباً وخط فيها اسمه واسم سفينته وشكر لها الزاد الذي
تفضل به عليه . ونظر « جربو » إلى الباخرة بالشرح وهي
تبتعد عنه . ويقول معبراً عن شعوره : هتف المهاجرون
« للفاير كرسيت » فرددت التحية عليهم . وكان الأفق صحراً .
وعاد إلى سروري من جديد عندما وجدت نفسي منفرداً
في عز لتي بين الماء والسماء .

فتح « جربو » صناديق المؤونة المهداة إليه فوجد بينها
بعض علب أطعمة محفوظة وثلاثة زجاجات من الكونياك .
ولما كان يمت شرب الخمر فقد ألقي بها في البحر .
وهذا البحر بعد ذلك يومين كاملين . اكتمل الجو
بعدها ثلاثة أيام سوياً ، وكان « الفاي كرسيت » وقد التصقت
بتمدمته القواقع والأعشاب . يشق طريقه في البحر ببطء
بعد إصلاح الصاري الأفقي المثبت في المقدمة . وكان الضباب
يحيط به من كل جانب ، كما كان الخطر يحف من حوله .
لسيره في نفس الطريق الذي اعتادت البواخر أن تمر فيه .
وفي اليوم الثالث لهذا الضباب كاد يغوص بسفينته ، إذ
أوشك أن يصطدم بباخرة كان يسمع صفيرها وصوت
محركاتها وهي تقترب منه ، وسارع « جربو » بالرد عليها بدق

أجراسه أملا أن تسمعه فتتبعه عنه .

ويحدثنا جربو عن هذا الحادث بقوله : « خيل إلى ، خلال فترة قصيرة ، أني سألاقي لاحالة مصير « الكابتن ساوكوم » Slocum ، ذلك البحار الذي يسود الرأي في غرقه متصادماً في يوم عبوس مثل هذا . وأخيراً ، سمعت الباخرة دقات أجراسي ، وردت علي بصفارتها تعالني أنها تأخذ يمينها في السير » .

وفي ٢ سبتمبر كانت الشواهد كثيرة على اقترابه من اليابسة ، حيث تغير لون الماء وكثرت كلاب البحر ، كما حامت حوله ، بعد الظهر ، الطيور البحرية .

ورشا في ٤ سبتمبر ، سفينة صيد في طريقها إلى الغرب ، انجذبت نحوه في الرابعة بعد الظهر ، فقرأ اسمها « هنريتا » Henrieta ، واسم الميناء التابعة لها : بوسطن Boston فسارع « جربو » برفع العلم الفرنسي فوق الصاري . فما كان من مركب الصيد إلا أن أنزل زورقاً قصيد لتوه « الفايركرست » وحذاه ووقفز منه صياد فرنسي إلى سفينة « جربو » ، ويصف جربو هذه المقابلة قائلاً : « لا أستطيع وصف دهشته عندما علم أني جئت « بالفايركرست » إلى هنا من فرنسا ، ولا وصف سروره لمقابلة مواطن له ؟ وطلب مني أن أصحبه إلى سفينة الصيد لأتناول الطعام معه . فلبيت الدعوة ، وتركت سفينتي

تسوس نفسها بنفسها . ولما قفزت إلى « الأفريتا » غصت إلى
نصفي في أنواع الأسماك المسكدة . وبش الصيادون في وجهي ،
وكنت سعيدا بينهم حتماً ، وتذوقت بعد ٩٠ يوماً ، لحماً
طرياً وخبزاً طازجاً . وبعد أن انتهيت من الطعام ، صعدت
إلى سطح المركب وتجاوزت أطراف الحديث مع الربان الذي
كان ممسكاً بالدفة . وكان الربان من مهرة البحارة ، وكنيت
سعيداً برؤيته ، ثم عاد « جربو » إلى سفينته .

وفي ١٠ سبتمبر ، شاهد « جربو » في الصباح المبكر ،
سواحل أمريكا وجزيرة « منتوكيت » Mantuckei وهي أول
أرض أبصرها بعد السواحل الأفريقية ، أي منذ ٩٢ يوماً .
وقد يندهش القارىء إذ علم أن رؤية الأرض لم تسر « جربو »
الذي يفسر لنا سبب امتعاضه قائلاً : « قد يندهش الناس
إذا علموا أنى شعرت بشيء من الضيق عندما رأيت اليابسة ،
حيث إنها في نظري ، إيزان بانتهاء جولاتي البحرية وبالأيام
السعيدة التي قضيتها خلالها في الأوقيانوس ، وباضطراري
إلى المسكن في المدينة بضعة أشهر ، لن أصبح أثناءها ، ذلك
السيد الفرد في سفينته الصغيرة وإنما سيجين المدينة الجوفاء ،
بين صخب الدهماء .

وفي يوم ١٢ سبتمبر قابل في طريقه بعض قطع من
الأسطول الحربي الأمريكي أثناء قيامها بمناورات كبيرة

واستعراضات واسعة في عرض البحر من جهة «نيوبورت»
Newport ، واستطاع التمتع بمشاهدة هذا العرض البديع ،
لأول مرة عندما كانت النافذة تنطلق من خطوطها المستقيمة
بسرعة ٣٠ عقدة في الساعة أو أكثر .

ولنترك الكلام « لجربو » : « عزمت على الاقتراب من
نيويورك من مضيق « لونج ايلند » Long Island وصادفتني
بحوار جزر « بلوك » Block رياح شديدة لم أر مثلاً منذ
ثلاثة أسابيع . وفي مساء هذا اليوم نفسه (١٢ سبتمبر) ،
دخلت المضيق تاركاً وراءى مياه الأوقيانوس وقلبي يذوب
حسرة ! إن عدد البواخر يزداد كثرة الآن ، وكنت أشاهد
طيلة الليل مرور بواخر الركاب بجانبى وأسطحها تتألاً نوراً .
ولم أستطع ترك الدفة كما كنت أفعل ذلك وأنا في عرض
المحيط لا اقترابى شيئاً فشيئاً من اليابسة . وكان على أن أتبع
طريق مدخل السفن في المرفأ بين « الشمندورات » حتى
لا يتصادم « الفايكرست » فيتهشم ويغرق . وظللت يومين
أجوب سواحل « لونج ايلند » Long Island ، وكثيراً
ما تأملت بشغف مجموع الدور فيها وحدائقها الغناء .

وضاق المضيق ، فعملت أنى الآن دخلت في مصب نهر

« إيست ريفر » East River .

وفي يوم ١٥ سبتمبر سنة ١٩٢٣ ألقى « ألان جربو »

بملمبه أمام « برج توتن » Fort Totten وكان له مائة يوم ويوم
في البحر منذ أن غادر « جبل طارق » ، لقد انتهى جربو من
سياحته البحرية ، وهكذا استطاع أن ينفذ غرضه المنشود .

هبت إلى استقباله السلطات البحرية الأمريكية وأصحاب
اليخوت واحتفوا بلقائه وعاملوه كشقيق لهم وزميل ، كما
تسامحوا في جعل « مقامه في نيويورك كله بهجة وسرورا » وفي
يوم وليلة ، رأى « جربو » نفسه خاطأ بمخبري الصحف ،
وأصحاب المطابع ، ورجال السينما ، وظلوا ملتصقين به التصاق
العثة بالصوف ، واضطرب « جربو » لأن يحجب على كل سؤال
يوجه إليه منهم ، وأن يروي غلتهم فيما أرادوا أن يعلموه
عن رحلته الجبارة ، حتى انتهى به المآل إلى الهروب منهم
ومن إعجابهم به الذي بلغ حد المضايقة .

ويقول جربو : « قضيت مدة من الوقت تحطمت فيها
أعصابي ، حتى أنني فكرت في الرحيل ثانية » .

ولعل الشيء الوحيد الذي ترك في نفس « جربو » أثرا
بليفا ، هو زيارته للأكاديمية الحربية الأمريكية في « وست
بوينت » West Point ، ومحاضراته التي ألقاها فيها على ضباط
البحرية وطلابها الذين رحبوا بتقديمه واحتفوا به ، والدليل
على ذلك اعترافه بأنه لم يشعر بأي سرور طيلة مكثه في

أمريكا ، خلاف ذلك الذى شعر به أثناء هذه الزيارة .
ولا غرو ، فإن جربو لم يرتح إلى حياة المدينة الصاخبة
كما يقول :

« لقد أخطأ الذين ظنوا أنى أردت من وراء هذه السياحة
الرياضية ، الشهرة وعلو الصيت ، حيث كان فى استطاعتى أن
أتمتع بين أصدقائى ، وفى هدوء صميمتهم ، بمثل هذا الفوز الذى
لم أبحث عنه ، ولكنى لا أجد طعماً للسعادة وأنا فوق
الأرض ، إنى أفكر دائماً فى رائحة القطران الشديدة ، وحياة
البحر الخشنة ، ورائحة هوائه الخاصة المشبعة باليود . .
ومهما يكن من الأمر ، فليسوف أعود إلى البحر الذى
أصبحت ملكاً إلى الأبد ، وإنى لا أزال أفكر فى اليوم
السعيد الذى أُنخر فيه « بالفاير كرسى » عباب المحيط الهادى ،
وأشاهد جزره الجميلة ، وعسى أن يكون قريباً . »

المحيط الهادى

ترك « ألان جربو » « الفايو كرسى » فى دار الصناعة البحرية الأمريكية تحت إشراف المهندسين والإخصائيين التابعين لوزارة البحرية ، حتى أتموا تصليحه وأعدوه لرحلة جديدة .

وفى أول أكتوبر سنة ١٩٢٤ ، استطاع بحارنا ، بعد سنة قضائها على الأرض ، على مضض منه ، ترك دار الصناعة بسفينته ، وقد قطرها رفاص تابع لقوة البوليس ، حتى أوصله إلى « نادى اليخوت » ليودع أصدقائه فيه . ولشد ما تفنجر عندما التف حول جمع من مخبرى الصحف ، وهواة جمع الإمضات والذكريات ، التفاف الهالة بالقمر ، ولولا تدخل رئيس النادى ورجال الشرطى لذهب « جربو » وسفينته ضحية هذا الإعجاب الزائد .

ولما حان موعد سفره ، ودعه أعضاء النادى وأطلقوا ثلاثة مدافع تحية له ، فرد عليهم « جربو » التحية بدوره وهو على ظهر سفينته برفع العلم الفرنسى طبقا للعرف البحرى . وبعد أن اجتاز مياه « هليزجت Hellsgate » ، الملاطمة ، مارا تحت الجسر المعلق « لبروكلين Brooklyn » ، شاهد ناطحات سحاب مدينة « مانهاتان Manhattan » ، وتمثال

الحرية الضخم ، و « كوسى ايلند Coucy Island » ، ثم ألقى
هملبه فى خليج « شيبسهدز Sheepsheads » ليقضى فيه
ظلمة الليل .

وترك « جربو » هذا الخليج عند تنفس الصبح ، مقطورا
برفاص البوليس الذى تركه يمضى فى سبيله قبيل الظهر ،
متمنياً له رحلة سعيدة موفقة ، وهكذا عاد « جربو » إلى
وحده المنشودة التى يعشقها .

وهبط مقياس الجو ، وتشبع الهواء بالبرودة ، وهبت
الرياح ، وهاجت الأمواج .

كان « جربو » فى هذه اللحظة فى عرض البحر مخفوفاً
بخطر غضباته ، فبادر بنشر أشرعة السفينة ، وهو يعنى ،
متجهاً نحو الجنوب الشرقى ، نحو جزر « البرمود Bermuda » ،
وصل « جربو » فى يوم ١٦ أكتوبر إلى ميناء « سان
جورج St George » بجزر « البرمود » ، بعد أن قضى فى البحر
أياماً نحسات ، حيث شاء سوء الطالع أن يصطدم بباخرة
أثناء رحلته هذه ، فاضطر إلى ترك السفينة فى « دار صناعة »
الميناء ، ريثما يتم إصلاحها ، ولقد ظل فيها « الفايكرست » ،
ثلاثة أشهر ، حتى إذا ما أصبح صالحاً لمتابعة رحلته الشاقة ،
غادر « دار الصناعة » متجهاً نحو « هاملتون Hamilton »
عاصمة هذه الجزر .

وجد «جربو» في هذه العاصمة كل سبل التسلية ، لاسيما لعبة التنس التي يعشقها ، وقضى عدة أسابيع في التنقل بين بقية الجزر التي تحيطها . وفي هذه الأثناء أقيمت له حفلة تكريم صغيرة على ظهر باخرة ، منح خلالها «وسام المياه الزرقاء» Blue Water Medal لسنة ١٩٢٣ ، وهذا الوسام يمنحه «كروزنج كلاب Cruising Club» الأمريكي كل سنة ، لصاحب أحسن رحلة بحرية من الهواة .

وخرج في يوم ٢٧ أكتوبر من مياه جزر «البرمود» ، ميمماً شطر خليج «بناما Panama» ، فوصل إليه في ١٢ أبريل ، ورسا في ميناء «كولون Colon» ^(١) التي لم ترقه إلا قليلا ، لاكتظاظها بالمقاهي وبالتجار الجشعين ذوى النيات الخبيثة ، وبكل ما ينافي ذوق «جربو» السليم ، لذلك اضطر ، بعد انتهائه من الإجراءات الرسمية التي تتبع في مثل هذه الأحوال ، أن يبارح هذه الميناء ، مجتازا خليج «بناما» ، موليا وجهه شطر جزر المحيط الهادى . ويقول «جربو» : «جاءنى فى صباح يوم ١١ أبريل الرفاص «كوكو صولو» Coco Solo التابع لشركة الأطلنطى العمومية ، فى «كولون» ، ليسحب «الفابير كرست» . وكانت قوة هذا الرفاص أربعة

(١) إحدى مدن جمهورية بناما ، وميناء على الأطلنطى تقع فى المنطقة الأمريكية لقناة بناما .

أحصنة . وكان على سفينتي قنصل فرنسا ، وسرعان ما اجتزنا
الأميال القليلة التي تفصل بين « كريستوبال » Cristobal
« وجاتون » Gatun ، ووجدنا أنفسنا أمام فتحات الهويسات
الثلاثية الضخمة . وتساءلنا ماذا سيحدث لنا داخل هذه
الهويسات البالغ طولها . . . ٤٠٠ متر ، المشيدة خصيصا لممر
البواخر الضخمة ذات آلاف الأطنان ؟ لقد صففت
حبالا مضمرة حول جوانب « الفاير كرسست » لحمايته من
الاصطدام . وقد ساورنى القلق — رغم تلك الوقاية —
عندما أغلقت الهويسات خلفي وخلف الباخرة اليابانية
« تاتسوكو — مارو » Tatsuku-Maru وكم كانت دهشتي
عندما رفعت المياه « الفاير كرسست » الصغير ، بجانب الحائط
القولاذى للهويس ، كما لو كان محمولا على مصعد كهربائى .
وعلت ضحكات الرؤوس الصفراء من الباخرة اليابانية ، عندما
شاهدوا سفينتي ناشرة أشرعتها وراءهم ، ولعله كان مشهد
غير مؤلف لديهم . وامتلا بعد قليل الهويس ، وجاء بعض
الرجال ليجروا « الفاير كرسست » من الهويس الأول إلى
الثانى ثم إلى الثالث ، مقتفين آثار الباخرة اليابانية التي جرها
رفاص بخارى . .

ترك اجتياز « جربو » لهذه القناة أثرا بليغا فى نفسه ،
من حيث النظام البديع المتبع . كان كل شئ يتحرك بنظام

دقيق ، وفي جو يسوده السكون . لقد عرف الأمر يكان
قدر الوقت فلم يضيعوا دقيقة منه سدى .

أصبح المحيط الاطلنطي الآن وراء « جربو » ، وكان
ينقصه عبور بحيرة « جاتون » ليصل إلى هويس « بدرو ميغل »
Pedro Miguel الذي يشرف على المحيط الهادى ، فوصله
عصراً . وانتقل بذلك « الفايركيست » من المحيط الاطلنطي إلى
المحيط الهادى . وعندما لاح الشفق ، دخل جربو ميناء « بلبوا »
Balboa (١) فشكث غير بعيد من السرادين الأمريكيين
« كليفلاند » Cleveland و « روتشستر » Rochester ودعا
ربان « روتشستر » « جربو » لتناول الطعام على مائدته ،
كما عرض عليه مساعدة بحارته فى أى ترميم أو تصليح لازم
لسفينته ، فلبى « جربو » الدعوة فى اليوم الثانى ، واحتفى به
الضباط احتفاء يليق بمقام بحار فاق أقرانه فى رحلاته عبر
البحار بمفرده .

وعلى مسافة ثلاثة كيلومترات من هذه الميناء التى أعدت
مرسى للبواخر الكبيرة ، ومرتباً للجنود الأمريكيين ،

(١) أطلق هذا الاسم على هذه الميناء نسبة إلى البحار الأسباني فاسكونوميز
بلبوا وهو أول أوروبى اكتشف المحيط الهادى سنة ١٥١٣ . وغضب
عليه السكونت بدروزياس دافيل حاكم منطقة « داريان » (الجزء الشرقى
لبناما) فأمر بفصل رأسه سنة ١٥١٧ .

يتنقاون بين نواديه ومطاعمه ، وجد جربو مدينة « بناما »
 الزاهية الجميلة التي يؤمها الضباط والبحارة الأمريكيون لقضاء
 إجازتهم ، هرباً من جو « بلبوا » المشبع بالعبادات الرجعية ،
 والحرية الجامدة ، والقوانين التي تحرم ارتشاف بنت
 المدن^(١) . ولقد ظلت العادات الأسبانية في « بناما » سليمة
 من شوائب المدنية القديمة التي امتزجت فيها الأجناس ؛ وإنك
 لتعرف « البناميين » الذين تجرى في عروقهم الدماء الأسبانية
 من أنفهم وشممهم . وإنك لتشاهد المكسيكيين وقد وضعوا
 على رؤوسهم القبعات الواسعة ذوات الألوان المختلفة ،
 وأنتك لتبصر رجال « الجماييك » السود وأسنانهم البيضاء .
 أما السود فإنهم يلفتون نظرك بقصر قامتهم وأقدامهم
 الخافية . لا شك أنهم أولى من غيرهم بين هذه الأجناس ،
 بدراسة العلماء لعاداتهم وطباعهم .

وبعد أن مكث « جربو » فيها شهرين ، عزم على الرحيل
 في ١٤ مايو . فاختبر اشراسته وجمع الزاد الذي يكفيه لرحلته
 وتسلم بقلب مليء بالتأثر ، هدية الضباط التابعين للطرادين
 الأمريكيين . وكانت هذه الهدية التي ملستك مشاعره ، عبارة
 عن راية فرنسية ، وعلم عليه شارات « نادي اليخوت الفرنسي » .
 فرفعهما جربو إلى أعلى صاري « الفايكرست » وخرج به

(١) كان ذلك أيام أن منحت الولايات المتحدة شرب الخمر .

من الميناء يحرقه الرصاص التابع للطراد روتشستر، وارتفعت أصوات البحارة لتوديعه، وظلوا يهتفون له طويلاً . . . وتركة الرصاص، ونشر « جربو » أشرعة سفينة متجهاً نحو جزر « جالا باجوس Galapagos » .

وفي يوم ١٣ يوليو ص « بنصف الدائرة الشمالية » ، واستمتع بالنظر إلى النجم القطبي وهو يتلألأ نوراً وسناء في القبة الزرقاء ، وفي يوم ١٥ منه ، اجتاز آخر نقطة من هذه القارة ، ليدخل ناشرأ أشرعتة في عالم جديد .

وفي مساء يوم ١٧ ، اتضح له : من ظهور النجم الجنوبي تحت برج المسنبله أنه على مسافة ٤٠ ميلاً من « سان كريستوبال » San-Cristobal وهي الجزيرة الوحيدة الآهلة بالسكان من بين جزر « جالا باجوس » Galapagos وبعد يومين ظهرت حوله الأرض على شكل نصف دائرة .

كان الجزء الشمالى لهذه الجزيرة مكوناً من صخور هرمية الشكل من أصل بركاني ، عارية تقريباً من النبات والعشب ، بينما اخضرت سهول الجزء الجنوبي منها ، عند سفح جبل « جاكينو » Giachinno فدار حول « الرأس الشمالى » « كاب نور » Cap Nord وشاهد صخور الخطرة . وما أن اجتازه بقليل حتى لمس نشاط الطيور البحرية ذات اللون الأحمر وهي تطير إلى ارتفاعات شاهقة ، لتنفض بسرعة فائقة على

الكائنات المائية فتلتقمها. وشاهد كذلك صخوراً عامودية من البازلت Basalte ضخمة الحجم ، لا يقل ارتفاعها عن ٢٠٠ متر ، مخضرة القمة ، بينما ثبت أصلها في قاع اليم ليتخذ منه سمك القرش الخفيف ، مأوى له وملاجئ .

وكان أمامه على مدى البصر ، مرفأ « تشيكو » Chico المنحوت في الصخور . فشاهد منساره ورصيفه ومساكنه القليلة المصنوعة من القش . ولم ير غير بيت واحد من الخشب ، علته ألوان علم جمهورية «الاكوادور» الأمريكية^(١) ألقى «جربو» بهلبه في الخليج ، ونزل في قاربه ، واستعان بالمجداف حتى وصل إلى الساحل . وبينما كان ضابط الميناء ، وهو برتبة «يوزباشي» يفحص أوراق «جربو» ، اقترب منه كهل قصير القامة وأسر إليه في أذنه بالانجليزية قائلاً كنتما اثنين قطعاً ، فأغرقت أنت الثاني « وكان يعزز كلامه هذا بحركات برأسه . ولم يسع جربو إلا أن يتهمه لهضم التهمة الباطلة .

كانت الجزيرة خصبة التربة . وتعرف «جربو» بشاب مكسيكي دعاه إلى زيارة عزبته المترامية الأطراف . المسكونة من شجر الفانيليا . وكان يقوم بالسهر على فلاحتها ، رجال

(١) تقع هذه الجمهورية في أمريكا الجنوبية بين كولومبيا والبيرو (Colombie-Pérou) على خط الاستواء .

انحدروا من أصل إجرائي ، وخيل « جربو » بعد أن زار هذه الضياع الواسعة ، أن هذا الفتي الثري ربما كان المالك الوحيد في هذه الجزيرة .

ارتحل « جربو » من هذه الجزيرة بعد أسبوع واحد ، حيث لم تظمن ثمن نفسه إلى سكانها ، وانطلق بسفينته نحو الغرب ، ماراً بشمال منطقة « نيك جومين » Nie-Gomen الصخرية الخطرة ، والسرور يملأ قلبه لوجوده بين المياه ، رغم تساقط الأمطار وهبوب العواصف .

وفي ٢٩ أغسطس ، وصل إلى الدرجة ١٧° من خط العرض الجنوبي . وهنا تجلت له الطبيعة في أبهى حللها . كان « جربو » في بحر الجنوب ذي الصبغة السحرية السرمدية ، والنبت المائي العجيب المتعدد الألوان . وكانت مياه البحر الفوسفورية هادئة ، مما جعل « الفايكرست » يتهاوى فوقها متكاسلاً بين سمات النسيم العليل ، وأنواع الأسماك الغريبة . وعند ما اقترب المساء ، واستعدت الشمس للأفول ، ألقت بإشعتها على زبد البحر الأبيض ، فأكسبته ألواناً وهاجّة حاكّت ألوان الأحجار الكريمة . ثم جن الليل ، وساد السكون المسائي سكون رهيب ، وبزغت النجوم بين أستار القبة الزرقاء .

وفي ١٥ سبتمبر كان « جربو » على مسافة ٣٠ ميلاً من

جزر « جمبيه » Gambier وفي اليوم التالي ، لاحظت له بين ضباب
الفجر قمم صخور جزيرة « منجاريقا » Mangaeiva . فأصبح
بذلك على مقربة من جزر « بولينيزيا » Polynesie التي نظم
الشعراء فيها القصائد ، وأشادوا بسحرها وأفاضوا في وصفها ،
حتى كان — وهو في السن الصبا — يتمنى لو عاش فيها ،
وعندما طاف في فجر اليوم التالي برأس الجزيرة ، لم يتمالك
نفسه ، فراح يمدد جمال الطبيعة الفتان : (شعرت بأني
وصلت إلى ضالتي المنشودة . وكم وددت العيش هنا) .

ترك البحار الكبير لنفسه العنان ، لتسبح في بدائع
السكون ، بينما كان النسيم يحمل إليه رائحة الأرض الموعودة :
رأى الجبال مصطفة طبقات طبقات في غور سماء اشتدت
زرقتها ، ووقف مشدوهاً أمام قممها المسكورة بأنواع شتى
من الأشجار الفارعة ، والنباتات الغريبة ، وقد تزيّنت
أفرعها بزهور متعددة الألوان .

تأهب جربو للدخول بسفينته في مياه المضيق وسط
صخور المرجان وعرق اللؤلؤ . فسلكه في أمان إلى أن
وصل إلى الميناء الخارجية « لريكيتيا » Rikitea عاصمة الجزيرة
فوجد على ساحلها العلم الفرنسي يرفرف بألوانه الثلاثة . ولما
كانت هذه هي أول مرة يدخل فيها « جربو » بجزر فرنسية ،
منذ إقلاعه من فرنسا ، فقد شعر بفخر لا نعيمه عليه .

وكان لو وصول « جربو » ، وقع كبير في نفوس أهل الجزيرة وحاكمها وهو « الممثل الخاص لامتلكات فرنسا » في أوقيانيا Océanie . دعاه هذا الحاكم إلى زيارة الجزيرة بصحبته ، ويقول « جربو » في ذلك : (كنت أشعر أثناء تجوالي كأنني في عربة فرنسية صغيرة . وصادفنا في طريقنا خروج التلاميذ من المدرسة ، فما كان منهم إلا أن رفعوا لنا قبعاتهم وحيو في بقولهم : « نتمنى لك يوماً سعيداً يا سيدنا »

وكم كانت دهشة « جربو » عندما علم أن هؤلاء التلاميذ يدرسون تاريخ نظام المحافظات في فرنسا ، وهم في الواقع في غنى عن هذه المعلومات . وكان الأخرى أن يلقنهم المدرسون تاريخ وجغرافية « بولنيريا » لقد سخر « جربو » من هذه البراج الدراسية الخاوية .

وعلى كل فإن آماله خابت كذلك من أول احتكاك له مع سكان الجزيرة ، لإدماهم على الخمر ، فقد كانوا خليطاً من الأوربيين والصينيين أين سكان الجزيرة الأصليين الذين كان « جربو » يتخيلهم وقد تنطلقوا من الخصر إلى الركبة بنسيج مختلف الألوان ، تدلت منه الورود والزهور ؛ لكنه للأسف لم ير إلا رجالاً في سراويل فرنجية زادت زرقتها قبحاً كما ارتدت النساء الملابس القطنية السخيفة الشكل التي تحاكي هندام الراهبات أو المبشرين المنتشرين في أنحاء الجزيرة .

أين أولئك الرجال الذين يتبخترون في مشيتهم؟ وأين جماعة النساء ذوات القد المشقوق اللاتي سحرن بحالهن لب « بوجانفيل ، Bouguinville ^(١) وعقل كوك Cook ^(٢) ؟ لقد تغير أهالي الجزيرة ، وحل محل الدور الصغيرة المصنوع سطحها من أوراق أشجار جوز الهند ، أكواخ لاتروق في الحين ، صنعت أسطحها من الأعمدة الخشبية المكسوة بالصاج المموج .

أنف جربو ، المسكث في هذه الجزيرة التي زادت المدنية الجوفاء كتابة ، واثقلت كواهل سكانها بزخرف باطل ، كما امتص دماءهم التجار الجشعون . فرحل إلى جزيرة أخرى من جزر « بولينيزيا » التي لم تعبت فيها يد المستعمرين الأصناف ، ائتمتع بأخلاق سكانها الفطرية ، ويقف على عاداتهم الموروثة . وانسكب (جربو) على دراسة اللغة « البولينيزية » وتمسكن من التفاهم بها معهم بعد وقت غير طويل . ويقول جربو محدثاً : « قابلني «البولينيزيون» أول الأمر بشيء من البرود . ولا عجب ، فإن خوفهم هذا راجع إلى كراحتهم للبيض الذين استعمروهم وجعلوهم المسودين

(١) لويس أنطوان ، كونت دي بوجانفيل بحار فرنسي دار حول العالم من سنة ١٧٦٦ إلى ١٧٦٩ .

(٢) جيمس كوك (سنة ١٧٢٧ — ١٨٧٩) مكتشف انجليزى له شهرة واسعة . وترك اسمه لكثير من الجزر في «أوقيانيا» (جزر كوك)

الأذلاء ، بعد أن كانوا السادة الأعزاء . ولكن عندما وقفوا على حسن نيتي ، وظهرت طوبى ، ذهبت عنهم تلك المخاوف سريعاً . إنى ضمرت الوفاء لهذا الجنس الكريم ، ولا سيما لأولادهم الذين كانوا على دماء من الأخلاق الفطرية ، وكنت لا أستنكر اللعب معهم ^(١) .

أحب « جربو » هذا الجنس من الناس ، بعد أن درس أخلاقهم وسجاياهم ، وعاش في كنفهم ، لدرجة حفزته إلى التحمس للدفاع عن حرياتهم ^(٢) لدى الحكومة الفرنسية ، مبدئياً العداء والبغضاء لأنصار الاستعمار . وإن كان « جربو » ضرب صفحاً في كتابه عن هذه العداءة ، فإنه ذكر ما شاهده من سوء المعاملة التي كان يتحملها « البولينيزي » المسكين في صبر وإناة ، ولم ينبج « جربو » من قوارص محبي الاستعمار حيث لقبوه « بالمجنون » ولكن « جربو » لم يكثر بهمائهم هذا .

وأراد « جربو » أن يشاهد ، أثناء إقامته في جزر « جمبيه » Gambiers طريقة صيد اللؤلؤ التي يتقنها السكان ويقومون بها مرة كل سنة في شهر نوفمبر ، فاتجه بزورقه في يوم افتتاح الصيد إلى مسافة ٦ أميال من خليج « ريكيتيا » Rikitée ،

(١) كتاب « في أثر الشمس » تأليف « جربو » ص ١٢٢ — ١٢٣

(٢) أنظر آخر « وفيات » « جربو » جنة تمحضر .

ومكنت في نصف الدائرة التي اختارها الصيادون للقيام بعمليتهم الشاقة في حيزها . ويقول « جربو » في وصف هذا النوع من الصيد : « كان كل اثنين من الأهالي يستقلان زورقاً ، وكانت ضحكاتهم العالية تدل على فرحهم وسرورهم . كانوا يتنقلون بزوارقهم في الجبهات المليئة بالأصداف وكانوا مزودين بعلب مستقيمة الأخلاص ثبتوا في آخرها قطعة من الزجاج بالمصطكي ، ليستطيعوا من خلالها ، رؤية قاع البحر وما حواه ، في وضوح وبلاء . وكان الغواص مشغول بوضع هذه « النظارة » الخشبية لحماية عينيه من الماء المالح ، ومن الأمراض الرممية التي تسببها لهم كثرة المسك في الماء . وبعد أن يقوم الغواصون بتمرينات رياضية تنفسية بوضع دقائف ، يتفرون إلى الماء ويمكثون في قاع البحر نحو دقيقتين ، يطفون بعدها حاملين المحارات والأصداف اللؤلؤية . وكانوا يخصوصون ويطفون عدة مرات . ويجمع الغواص الواحد منهم في اليوم نحو ١٠٠ كيلو من الأصداف . وقد يصل ، في حالات خاصة وحسب مهارته ، إلى ٢٠٠ كيلو . وثمن الكيلو من الأصداف في « منهجاريقا » يبلغ فرنكين . كان اللؤلؤ نادراً في هذه المنطقة ، وكان أكثر الغواصين يستخرجون كمية من الأصداف تربو بكثير على كمية الآلء . ويضيف « جربو » قائلاً : « وعلى كل ، فقد كان الصيد في

السنة الماضية أكثر إنتاجاً منه في هذه السنة . وشامت
الأقدار أن يعثروا على لؤلؤه سوداء نادرة في حجمها الكبير
فاشتراها أحد الصينيين بمبلغ ١١٠٠٠٠ فرنك من الغطاس
المحظوظ الذي التقطها من قاع البحر ، ثم باعها للتجار اليهود
القادمين من باريس برمج باهظ .

قضى «جربو» وقتاً طويلاً في زورقه بين الصيادين الذين
دعوه في المساء ليضئ الليل معهم في إحدى الجزر الصغيرة
التي اتخذوها مأوى لهم . فلي «جربو» الدعوة . ويحدثنا
بهذه المناسبة قائلاً : «تناولت الطعام معهم في الهواء الطلق .
وستظل هذه الذكرى عالقة بذهني دائماً . كانت البريمة مكونة
من الموز المغلي في الماء ومن «أم الخاول» المحمصة المخصوصة
على عود من الخشب . والأكل عند أهل هذه الجزر . بهجة
خاصة واحترام زائد ، حتى إننا تناولنا الطعام في جو يسوده
السكون التام . واذكر أني عندما كنت ألوى رأسي ذات
اليمن أو ذات الشمال ؛ لأشاهد منظرًا طبيعيًا خلاباً ، كانوا
يبادرون بتشبيهي إلى الأكل قائمين : «كاي» أي (كل) ،
كما كانوا يتسابقون إلى تقديم اللحوم إلى «كلما أتيت على
نصبي» ، وهذه هي طريقة الحفاوة بالضيف عندهم .

ظل «جربو» على ظهر هذه الجزيرة الصغيرة طيلة الليل
وجزم من نهار اليوم التالي ، واستطاع خلال هذه الفترة أن

يكتسب صداقة إخوانه الصيادين ، ويستميل قلوبهم ، حتى إنه عندما أراد الرحيل ، تمسكوا به ، طالبين منه أن يحضر « الفايكرست » ويقاسمهم المعيشة ، ويقول « جربو » في ذلك : « كم وددت أن أعيش هذه الحياة الفطرية البديعة وسط هؤلاء القوم ، ولسكن البحر كان دائماً يناديني بصوت أمواجه العذب ، وكنت ألبى نداءه . . . » .

وانطلق « جربو » بزورقه نحو « الفايكرست » الراسى فى ميناء ريكتيا Rikitée فاستقله فى صبيحة اليوم التالى ، وترك النسيم العليل يدفعه ، بينما كان الأطفال يحيونه تحية الوداع من رصيف الميناء .

سار جربو بسفينته بسرعة ٧ عقديات فى الساعة ، وفى المساء اشتد الريح ، فاضطر « جربو » إلى نشر أشرعته ، وسرعان ما عطلت الأمطار بغزارة ، كما قامت الأمواج تلطم جوانب « الفايكرست » بشدة وقوة . ولسكن اكفهرار الجو وردامة ، واضطراب السفينة لم يمنعه من التفكير فى حالته ، حيث شعر بسأم داخلى مبهم .

تساءل « جربو » : « من هو هذا الشيطان الذى يدفعنى دائماً إلى الجولان على متن البحار ، وخوض المهالك والأخطار ^(١) ؟ لقد عثرت أخيراً على بلد استماحت الحياة

(١) أنظر كتاب « فى أثر الشمس » ص ١٢٢ — ١٢٣ .

فيه لبعدها كل البعد عن مضايقات المدنية ، لقد كان في مقدوري أن أمكث فيه مدة أطول ، كما كان الأجدر بي أن أرى بعروض الفتيات الجميلات من بنات جزيرة « منجر يفا » ، ليصبح لي نسل أسمر اللون يقضى حياته في جزر « بولينريا » في مرج ، متمتعاً بأشعة الشمس الدافئة ! . . . ولكن البحر كان يملك جوارحي وكان عسيرا علي أن أرفض دعوته . وهكذا عرفت حياة البحار وخشونتها . . . وصممت على زيارة جزر « الماركيز » Marquises وهي تبعد نحو ألف ميل من الشمال .

إنها حسرة وقتية ، تلك التي جاش بها صدر « جربو » ، إذ سرعان ما نسيها أمام سحر البحر ، وصخب أمواجه . وجاء يوم ١٩ نوفمبر بصيفه الجنوبي ذي الصفاء الغريب . وتهادت سفينة « جربو » في دلال على بحر هادئ في ظل سماء صافية الأديم ، وكلما توغل في هذه المنطقة ، كلما بهر سكونها ونسيمها العليل الذي كان يداعب أشعة « الفايكرست » المتراخية .

كل شيء كان هادئا ساكنا وسط هذه الزرقة المترامية الأطراف التي شابهت الصحراء المروعة . ولكن طلوع البدر ليلا في كبد السماء ، أدخل الحنان في قلب البحار الفرنسي ، وأكسب هذه البقعة لونا من الغبطة ترتاح له النفس .

ووصل في يوم ٦ ديسمبر — وهو اليوم الرابع والعشرون له بعد مغادرته «جمبيا» — إلى ١٠.٤.١° من العرض الجنوبي ، وقامت في وجهه الأعاصير ، وما أن أقبل المساء حتى اكتست السماء بالغمام من الجهة الشمالية ، فتوقع «جربو» اقترابه من الأرض . وعندما عسعس الليل ، لاح النجم الأبرق من نجوم الشمري ، فاستطاع «جربو» أن يحدد موقعه : أنه كان فعلا على مقربة من البسيطة . وكان في يوم ٧ ديسمبر على مسافة ٣٠ ميلا من الجنوب الغربي لجزيرة «فاتو هيفا» Fatu-Hiva من جزر الماركيز الجنوبية^(١) . وفي اليوم التالي ، رسا بسفينته في مياه خليج جزيرة «تاها أوكو» Taha-Uku كان منظر الجزيرة خلاباً . وأنزل «جربو» قاربه الصغير وذهب به إلى ما ظنه «رصيفاً» ، فوجدته عبارة عن بضعة درجات نحتت في صنفوان يعلو سطح الماء المائج ببضعة أقدام . لذلك رأى من الحكمة أن يتفادى هذا «المرسى» الخطر فتوجه بقاربه نحو الشاطئ ، حتى إذا ما أصبح على مسافة

(١) اكتشف مندانا Mendana قائد الأسطول الأسباني سنة ١٥٩٥ بعض هذه الجزر الجنوبية وأطلق عليها اسم «المركيز» نسبة إلى مركيزة مندوزا Mendoza زوج نائب ملك البيرو Peron الذي كان يتبعه مندوزا واسمه Don Gracia de Mendoza ثم اكتشف الفرنسيون بعد ذلك المجموعة الشمالية من هذه الجزر وأطلقوا عليها اسم جزر «الثورة» tles de la Révolution

٣. قدماً منه ، ألقى بنفسه في اليم فوصل إليه سباحة .
 كان الجزم المعمور من هذه الجزيرة هو «أتوانا» Atuana
 وتسملق «جر بو» إحدى الصخور فرأى على مدى بصره
 تربة سوداء بركانية التكوين ، ترتطم عليها قطع الصخور
 المتكسرة التي تدفعها الأمواج ، وأشجار جوز الهند الوارقة
 التي كانت تخفي وراءها المساكن والدور ، ومن بينها بيت مثل
 الإدارة الفرنسية لهذه الجزيرة ، ومتاجر الشركات الفرنسية
 والانجليزية والصينية وبعض أكواخ خشبية ، كما شاهد أعمدة
 البرق اللاسلكي .

وفي «أتوانا» ، حيث سبقت «جر بو» شهرته ، وجد بنى
 جلده قد أعدوا له حفلة تكريم قوامها «الشعبانبا» . ولى
 «جر بو» الدعوة على مفضل لبغضه للمظاهر والاحتفالات
 التي لا تتفق مع نفسيته الميالة بطبيعته إلى البساطة . وقد صرح
 بهذا في شيء من التهمك المزوج بالحزن حيث قال : « تركت
 هذه الحفاوة اللطيفة أثراً بليغاً في نفسى ، حيث خوات لي
 الوقوف على أدوار معيشة الرجل الأبيض في «دوائر
 الانقلاب» . لماذا نخشى الشعبانبا وأمامنا ماء جوز الهند
 اللذيذ؟ لماذا نكسوا سطوح الدور بالأخشاب والصاج
 المموج ، بينما لدينا ورق جوز الهند الوارف؟ ولماذا نرتدى
 الملابس والقبعات ، طالما أن جلد الانسان سيستفيد كثيراً

من أشعة الشمس التي تكسبنا صحة وعافية ؟ لم أبال في الواقع بأقوال الناس وتركت جسدى عارياً إلا من مئزر .
لم يوافق « جربو » على فكرته في مذهب العرى . إلا رجل واحد هو طبيب هذه الناحية الذي كان يقوم مؤقتاً بأعمال حاكم الجزيرة ، والذي كان يصاحب « جربو » في روحاته وغدواته . وكان السكان يحترمون هذا الطبيب ويحبونه . ويقول عنه البحار الفرنسي : « كنت أشعر براحة للمكانة العالية التي يتمتع بها هذا الطبيب بين الأهالي الذين أحبوه وأجلوه » .

ويحمل بنا القول في هذا المقام ، أن جزيرة دتاها أو كور ، غنية بأشجار المانجو وجوز الهند والبرتقال والفانيليا ، حتى إن سفن الشركات كانت تؤمها على اختلاف أجناسها ، وكثيراً ما ظلوا أهلها بطرق غير شريفة .

أرسلت كل شركة تجارية من هذه الشركات ممثلين لها هناك ، مهمتهم إخبارها بكمية محصول ثمار كل نوع من أنواع هذه الأشجار ، لاسيما جوز الهند الغنى بالدهن^(١) ، لذلك تزاحمت سفن الشركات على شرائه .

ولقد تفنن عملاء هذه الشركات في استغلال سكان هذه الجزر الذين لا يهتمون كثيراً بالنقود ، بطرق وحيل بسيطة

(١) يستخرج منها زيت له قيمته التجارية .

للغاية ، أزاح « جربو » الستار عن بعضها : كان بعض ربابنة السفن يستغلون حب الأهالي للخمور — وقد منعها القوانين هناك — فيأتون لهم بها خلسة ، كما استغل ربابان — فاق أقرانه في أنواع الخسار — ميل الأهالي الفطري للأقاصيص ، فكان يقرأ عليهم قصص التوراة — وكثيرا من أبوابها يتفق مع أساطيرهم — مما كان يحفزهم إلى تفضيل بيع محصولهم له دون سواه ، وكان هذا الربابان الماكر يدخل في روع بعض المزارعين الذين اعتنقوا الدين المسيحي ، ويحثهم على بيع ثمارهم له وحده حبا في التديس بولس^(١) .

استاء « جربو » ذو الخلق القوي من هذه الصفات ، وآثر الرحيل من « تاهاتوكو » فاتجه في يوم ٣٠ ديسمبر بسفينته إلى مجموعة جزر أخرى تبعد مئات الأميال من الشمال الغربي . فزار جزر « تاهاتو » Taha-Ata « وديفا أواه » Hiva-Oa و « نو كوهيفاه » Nuku hiva واسترعى نظره جمال تلك الجزيرة الأخيرة وشاطئها الساحري الذي تتدفق عليه الأمواج بصوت كهوت الرعد . فألقى هلمبه في خليجها وأخذ يتأمل قلعة متهمة على إحدى جوانبه يرجع تاريخها إلى سنة ١٨٤٢ وهو العام الذي غزا فيه الأميرال

(١) انظر كتاب جربو في « أثر الشمس » ص ١٤٣ — ص ١٤٤

« بيتى توار » Petit Thouars هذه الجزيرة ^(١) .

ويقول « جربو » « يظهر انقراض الالهالى الاصليين واضحا جليا في هذه البقعة ، أكثر من أى بقعة أخرى من جزر « الماركيز » ، فضلا عن الدمار الذى أدخلته عليها المدنية البيضاء » ، على حد التعبير المصطلح عليه . كان مضى قرن عليها بين مخالف الاستعمار ، كافيا لأن يهلك النسل ، ويبدد القوم في هذه الجزر الآمنة المطمئنة . ولا غرو ، فإن عدد سكان جزيرة « نو كوهيفا » Nuku-Hiva الذى كان يبلغ ١٦٠٠٠ نسمة عند ما أنهار عليهم « بيتى توار Petit Thouars » نقص إلى النصف بعد انتصاره عليهم . وعند ما زرت هذه الجزيرة ، وجدت أهلها لا يزيدون عن ٦٠٠ شخص .

كان العامل الرئيسى لهذا النقص المتوالى فى السكان ، الإدمان على شرب الخمر وما جرّه عليهم من سوء العواقب ، علاوة على تمكن الفقر منهم على مدى الأيام ، واستيطان العمل والأمراض فى أجسادهم الهزيلة .

(١) هو هايل أو بيردى بيتى توار Abel Aubert du Petit Thouars أميرال فرنسى وضع جزر تاهيتى Tahiti تحت الحماية الفرنسية (مجموعة من الجزر فى بولينيزيا الجنوبية) سنة ١٨٤٢ . وهو ابن عم الأميرال ارستيد أو بيردى بيتى توار Aristide Aubert de Petit Thouars الذى قاد السفينة الحربية « لوتونان » Le Tonnant فى معركة أبى غير ولا فى حثفه فيها .

وازداد لون « جربو » استمراراً من كثرة تعرضه في روحاته وغدواته ، لأشعة الشمس المحرقة وهو شبه عار ، حتى فاقت بشرته في لونها الكمي ، بشرة المركيزيين أنفسهم ، كما يقول .

زار « جربو » الجزيرة ، وجاب أركانها ذات المناظر البديعة ، وشاهد خليجانها المتعددة . وامتزج أسفه على قلة السكان ، باعجابه بتلك المناظر الخلابة . ووجد ارتياحاً كبيراً في جلوسه مع أهل هذه الجزيرة ، لما طبعوا عليه من كرم السجايا وحميد الأخلاق ، يطارحهم الحديث ، ويلبي دعوتهم إلى تناول الطعام معهم ، وبلغ حبهم له ، إلى بث أحزانهم إليه ، تارة بالكلام ، وأخرى بأغانهم المترامية النغم ، التي تفصح عن مر الشكوى ومرير الألم .

وقاسمهم « جربو » طعامهم الغريب المكون من مغلى لحم الأخطبوط المشبع بعصير الليمون البرى والدقيق ولبن جوز الهند ، واستطاب « جربو » هذا الصنف من الأكل ، كما استطاب كل شيء في الجزيرة . ولكن البحر همس في أذنه بصوته الحنون الخلاب ، فلب نداهه الخفى وترك الأرض ، وارتقى في أحضان الأمواج .

وعرج به النسيم بين الجزائر الصغيرة المتشعبة بين جزر « المركيز » و « تاهيتي » ، Tabiti وسيطر على الدفة ، وسار

بسفينته بين صخور المرجان الخطرة ، وجزره الخلابة التي
يخشها أمهر البحارة .

ولنصفى لحظة إلى حديثه عن هذه الجزر المرجانية :
« لهذه الجزر الصغيرة ، فتحات دقيقة يدخل ويخرج منها
تيار الماء بسرعة فائقة ، مما يجعل الدخول في مجراها شديداً
الصعوبة ، لاسيما للسفن الشراعية » .

ولكن هذه الصعوبة ، حفزت « جريب » لأن يأخذ
طريقه بين هذه الجزر التي تضم بين جوانبها الموت الزؤام ،
ويقول في ذلك : « صممت على السير بين هذا « الأرخبيل »
الخطر ، ماراً بجزر « رارويا » Raroia و « ماكيمو » Makemo
المرجانية ، رغم ما عرف عنها ، لدى البحارة ، من شدة سرعة
تيارها الجارف . . . ووصلت قبيل الظهر أمام تيار « نجارو »
Nagarue وهنا رأيت من الحكمة أن أجرب إحدى نظرياتي
البحرية ، رامياً بالنصيحة التي أسداها إلى ربانو السفن . فقد
أوصوني بالدخول في هذه المسالك البحرية الوعرة ، ساعة
جزر البحر ، حيث ينعدم فيها التيار ، بيد أني آثرت الدخول
أثناء مد البحر ، لأستفيد من قوة التيار في دفعي إلى الأمام .
وجاء لحسن حظي ، وقت المسد ، وإذا بسفينتي تندفع نحو
المدخل الضيق بين الأمواج التي اشتد تلاطمها على جوانب
الصخور من حولي فأصبح « الفاير كرست » ، لا يعطى قيادا !

و أبصرت بصخور المرجان تفبثق أممى بين المياه الهاججة ،
و دارت سفينتى مرتين حول نفسها ، حتى نخلت أنى ميت
لا محالة . وفى هذه اللحظة المريعة ، دفعنى التيار بقوة فائقة
إلى داخل بحيرة مائدة المياه .

رساء جربو ، أمام عزبة « نجارو ماوفا » Nagarne
Maova حيث رحب به سكانها وأكرموا وفادته ، بتسابق
كل أسرة إلى دعوته لتناول الطعام معهم ، رغم ضالة ثروتهم .
كانت هذه الجزيرة فقيرة فى مواردها الطبيعية ، وكان
طعامهم لا يتعدى الأسماك ، وسلاحف البحر ، وثمار جوز
الهند التى تعد بحق من المآثر الإلهية عليهم :

فكانوا يسدون جوعهم بشمر ، ويروون غلة عطشهم
بشرب مائه ، ويتخذون من جذور شجره أكواماً ، ومن
أوراقه سقفاً ، ومن اليافه حبالاً متينة ، ومن دهنه وقوداً
لإنارة ، ومن احتكاك فروعه اليابسة جذوة نار .

ويقول « جربو » : « كان جميع السكان شديدى الحفاوة
بى . وأما كرمهم ، فينعدم نظيره فى أكبر الأمم المتحضرة . »
ولقد ذهب كرم الأهالى له إلى أبعد ما كان ينتظر : فإنه
عند ما أصبح فى اليوم التالى ، وذهب إلى سفينته ليصلح ما فسد
منها . أخذته الدهشة عند ما رأى مضيفه بالبارحة يأتى إليه
حاملاً طبقاً من السمك ، ظناً منه ، أن « جربو » ليس لديه

الوقت الكافي ليقوم بطهي طعامه . ويعقب « جربو » على هذا السكرم الخاتمي بقوله : « لم أستطع إطلاقاً اقناعه بقبول أقل هدية منى مقابل هديته .

كانت هذه الجزر على ما بها من جنات ساحرة ، لا تخلو من العذاب الآليم والشر المستطير . فقد كانت تغشاها من وقت لآخر ، ريج صرصر عاتية من المحيط الهادى ، فتقتلع البيوت بما ترفعه من الأمواج الهائلة ، وتهلك السكان الذين لم يسعدهم الحظ على التمكن من الصعود إلى أعالي شجر جوز الهند ، الذى يصمد فى وجه هذه الزوابع المفجعة .

وعند ما ذهب إلى زيارة جزيرة « رارويا » Raroia ، حيث قابله سكانها بالترحاب ، لاحظ « أن بناتها جميلات فى ظرف ، قويات فى لفف ، تميل تقاطيع وجوههن إلى تقاطيع اخواتهن الأوريبات » .

وقبل أن يغادر هذه الجزيرة ، توجه إلى الدكان الوحيد فيها ، ليشتري منه خمس كيلوجرامات من الأرز . ولشد مدهش عند ما وزن له البائع عشرة ، وقد افتر ثغره عن ابتسامة عريضة ، مؤكداً له بأن هذه الزيادة ليست على حسابه وإنما هدية . ودخل عليهما فى هذه اللحظة ، أحد الأهالى وطلب من البائع عشرين كيلو من الأرز ليهدى بدوره إلى البحار الفرنسى . ويقول جربو إزاء هذا السكرم

العجيب : « لم أستطع رفض هذه الهدايا حيث يرى الأهالي في رفضها إهانة كبيرة لهم . وحام بعضهم وأصرُوا على إهدائي كل ما في الدكان من أرز ! ولكنني تهربت من كرمهم المثلالي بكل صعوبة مسع كثير من اللباقة ، وهرولت مسرعاً إلى سفيفتي ، واندفعت بها في اليم » .

سار « جربو » بين الجزر وبين مسخور المرجان المبعثرة هنا وهناك ، قاصداً جزيرة « تاهيتي » Tahiti ، درة البحار الجنوبية . وأبصر بها في مساء يوم من أيام شهر مارس ، وقد تحلت بتاجها الأخضر ، واستترت برداء الشفق الأحمر . وعندما وصل إلى « بابيتي » Papeete (١) ، فوجيء مسروراً بخطاب من المسيو « جورج ليج » Georges Leygues وزير البحرية ، يهنئه فيه على شجاعته وإقدامه . وتضايق « جربو » من ضجيج السيارات وهي تعبر الطرقات ، مما جعله يأنف من صخب هذه المدينة ، ويحن إلى الهدوء الذي تركه في جزيرة « رارويا » . وخشى « جربو » على نفسه - على حد تعبيره - « من حماس مواطنيه الزائد ، ولكن أحداً منهم لم يستطع أن ينغص عليه هدوءه ، حيث اردف قائلاً : « وعلى كل فإن مروري بجزيرة « تاهيتي » ظل مجهولاً رسمياً ، مما أعانني على قضاء الفترة القصيرة في هذه الجزيرة ، في جو من الهدوء والسكينة » .

(١) ميناء في جزيرة تاهيتي .

تفامل « جربو » كثير آ لمستقبل (تاهيتى) . وبقدر
ما اشتأز من « بايتى » وسكانها المولدين من الصينيين . ويقول
في ذلك : « كان جل السكان البيض فيها ، أما من التجار الذين
نرحوا إليها حباً فى جمع المال واكتساب الثروة ، وأما من
الموظفين الذين جاموا ليثوا فى نفوس الأهالى ، أو هام
المدنية البيضاء . إنهم يحبون ما أكره . وكانت أفكارنا
متناقضة ، حتى أنى ظلمت ليلة إقامتى فى « بايتى » ثاوى فى
« الفايكرست » فى عزلة عن الناس ، كما لو كنت على متن
الأوقيانوس . »

وبالرغم من وجود أمثلة حية من الجمال « البولينيى »
وبقاع ساحرة لم تغيرها يد المدنية ، فقد لبست « بايتى » —
التي أشاد بذكرها « لوتى » Loti ^(١) — ثوب الحداد ! أين

(١) هو جوليان فيو Julien Viaud (سنة ١٨٥٠ — سنة ١٩٢٣)
المشهور باسم بير لوتى Pierre Loti أحد ضباط فرانس البحريين والكاتب
الفصحى الشهير . وله قلم فياض وأسلوب رفيع . سحره الشرق بحاله الفتان
فقام يدافع عنه ، ويصف محاسنه . ومن مؤلفاته الخالدة . ازباده Aziyadé
فى مراكش Au Maroc ، « قصة الاسياهى » Le Roman du Spahi
شبح الشرق Le Fantôme d'Orient ، مدام كيريزانتيم Madame
Chrysanthème ، صياد اسلندا Pêcheur d'Islande ، سيدات القصر
الثلاثة Le Tsois dames de la Casba « إلى أصفهان » Vers Ispahan
الهند من غير الانجليز Les Indes sans les Anglais « موت أنس
الوجود » La mort de Philae ، زواج لوتى Le mariage de Loti
حيث يقص فيه غراميته فى بايتى (تاهيتى) مع فتاة بولينيزية تدعى « راراهو »
Rarahu بعد أن اتخذ لنفسه اسم البولينيى « لوتى » .

رونق هذه المدينة ؟ أين دورها الجميلة ؟ أين مأواها الغابي
الذي يحفظ الكثير عن غراميات ذلك الضابط البحري
الفرنسي ، بيير لوتي Pierre Loti ؟ أين -حسن- راراهو ،
Rarahn ؟ لقد اندثر كل ذلك !

واضطرب « جربو » لأن يقضى أيامه بعيداً عن أولئك
المستعمرين المولدين ، بيد أنه كان يميل إلى اللعب مع الأطفال
البولينيزيين ، ويشاطرهم فرحهم وسرورهم ، كما كان يسمح
لهم بركوب « الفايكرست » . وكانت ضحكاتهم العالية البريئة
في رنينها ، وأغنياتهم ذات النغم الشجي ، تزيد حبا فيهم
ورعاية لهم . ويقول « جربو » معقباً : وكنت أتسابق معهم
في القفز إلى الماء مرات عديدة ، كما كنت ألعب معهم
« كرة الماء » Water Polo .

وكان في مواجهة منزل حاكم مدينة « بابيتي » ، بيت منزو
بين خضرة الزرع ، تقطنه أرملة الملك « بوماريه الخامس » ،
Pomaré V . وزار « جربو » هذه الملكة عدة مرات ،
وعرف منها الكثير عن ماضي جزر « بولينيزيا » ، وأضمر
لهذه السيدة الوقور ، احتراماً يتساوى مع مكانتها كملكة على
جزيرة « تاهيتي » . ويترجم لنا « جربو » عن شعوره نحوها
قائلاً : « كثيراً ما ارتسمت في خاطري - أثناء الأربع
ساعات التي أقضيها فوق السفينة - صورة صديقتي العجوز

وهي تقص على تاريخ أسرتها المجيد ، بفصاحة عجيبة ، تجعل الإنسان يشمر ، وهو مصغ إلى حديثها ، بهيبة توحى إليه أنه حقيقة أمام سيدة خلقت لتكون ملكة تأمر وتنهى .
وأخيراً ، تسلم « جربو » الأشرعة التي كان أوصى بها من فرنسا ، للفاير كرس . وبعد أن مكث ثلاثة أشهر في « تاهيتي » ، اتجه في آخر شهر مايو سنة ١٩٢٦ شطر « الأرخبيلات » Archipels المتناثرة بعيداً عن « تاهيتي » .
صادف « جربو » صعوبة كبيرة عند خروجه من بحيرة « بابيتي » . وعندما ابتعد في عرض البحر قامت رياح شديدة أمالت « الفاير كرس » على جانبه ، ومزقت شراعاه الكبير طولاً ، قبل أن يتمكن من قبضه إليه . وظلت الرياح تدفعه ، والأمواج تلطمه ، حتى اقترب من جزيرة « بورا بورا » ، Pora-Pora واستطاع أن يدخل ، مستعيناً بضوء القمر ، في بحيرة بين صخور المرجان ، ساحرة في سكونها ، جميلة في هدوئها ، فألقى فيها هلبه .

قضى « جربو » أياماً قليلة في هذه الجزيرة التي اشتهرت في العصور الخالية ، بشجاعة رجالها ، وحبهم الفطري للحرب والنزال . وفعلاً ، لمس في سكانها بقية من تلك الروح الفياضة بالبطولة والإقدام .

وجاء إليه شيخ الجزيرة يدعوه إلى وليمة في مسكن زينه

بالزهور والرياحين خصيصاً للقائه . كما وضع أمام مدخله .
 أكواماً من الفاكهة . وتربع المدعوون ، وقد تزينوا بالزهور ،
 على حصيرة حول الطعام . وكان الخدم يطوفون عليهم ،
 بعد كل صنف من الأكل ، بزق ماء ليغسلوا فيه أيديهم .
 ولما انتهوا من الأكل ، قام المضيف الكهل يخطب فيهم
 بلهجة التاهيتية التي يجملها « جربو » . ولشد ما أعجب « جربو »
 من هذه الخطبة بعد أن ترجمت له .

واعتذر المضيف لعدم استطاعته القيام بواجب الإكرام
 نحوه بأكثر مما قدم له ، معزراً اعتذاره بأن زوابع عاتية
 هبت منذ بضعة أشهر على الجزيرة . فهدمت داره ، وأتت
 على الزرع ، ثم رجاه أن يقبل أكوام الفاكهة وما بجانبها
 من زاد وأكل .

ولما كان من عادات البولينيزيين أن يتبنوا من يحبونه
 ويقدرونه ، فقد تبني شيخ الجزيرة « جربو » على مشهد من
 الملأ ، وأطلق عليه اسماً معناه في لغتهم « أغنية القصب » .
 وفسر له الشيخ أصل هذه التسمية وما تضمنه من سماعي المعنى
 عندهم ، وسرد له قصة ذلك المحارب الذي أحاط به الأعداء
 من كل جانب وهو على نجد من الأرض ، يدافع عن نفسه
 دفاع المستميت ، حتى إذا ما أثنوه جراحاً بجرابهم ، استند
 إلى دغل من قصب السكر ، وراح يردد ، قبل أن يلفظ

نفسه الأخير ، أغنية ظلت خالدة جيلا بعد جيل .
ثم أردف السكهل قائلا : « وما أطلقت عليك اسم هذا
البطل المغوار ، إلا لأنك تماثله في شجاعته وإقدامك ،
فأنت تجوب البحار بمفردك غير آبه بأخطارها . وهذا الاسم
هو أفضل هدية نستطيع تقديمها إليك » .

تركت هذه الكلمات في نفس « جربو » ، أو بالأحرى ،
« عنتر بولينزيا » ، أثرا بليغا ، حيث يقول : « لم يقابلني
أهل بلد ، طيلة سفري ، بمثل هذه الحفاوة الكبيرة ، ولم
أحمل مؤونة وطعاما أكثر مما حملته من عندهم ، حتى أن
لساني لم يجد الكلام الكافي للتمبير عن شكرهم . وأنى في الواقع ،
قدرت كل هذا الشرف العظيم ، وأظهرت لهم ما أكن لهم
من حب وولاء » .

وشاهد « جربو » أثناء إقامته في « بورا بورا »^(١) ،
باخرة قادمة من « ساموا » Samoa تحمل العلم الفرنسي ،

(١) عاد « جربو » إلى جزيرة « بورا بورا » ، بعد ذلك . ويلاحظ
أن هذه الجزيرة تركت في نفسه أثرا بليغا كما لعبت في حياته دورا عجبيا .
فقد قضى فيها بضع سنين في سعادة وهناءة . وتعلم خلالها لغة أهلها ،
وأحبهم فأجلوه . وأوصى بدفنه في هذه الجزيرة بعد موته . واستمرت
الحكومة الفرنسية ووزارة الحربية — التي ما زالت تفخر به — وصيته
هند ما مات سنة ١٩٤٤ في جزيرة « تيمور » Timor حيث بادرت بنقل
جثمانه على باخرة حربية فرنسية إلى جزيرة « بورا بورا » ودفن فيها .

إسمها «كاسيوني» Cassiopée ، ورست بجانب «الفابير كرسيت»
وصعد منها إلى سفينة «جربو» ضابط من قبل القومندان ،
يبلغه سلام الحكومة الفرنسية ، واستعداد وزارة الحربية
لمساعدته في كل ما يريد . فدعا «جربو» قومندان وضباط
«الكاسيوني» لمشاهدة «الفابير كرسيت» وأطلعهم على الأجهزة
المزودة بها ، وشرح لهم طريقته الخاصة في القيادة ، ونظرياته
الجديدة في فنون الملاحة ، ثم قص عليهم تنبأ من مشاهداته
ووقائعه أثناء سياحته الجبارة بمفرده على متن هذه السفينة
الشراعية الصغيرة التي أصبحت بحق ، ذات صبغة تاريخية هامة .
وترك «جربو» هذه الجزيرة الساحرة بعد أسبوع ،
قاصداً غيرها من الجزر . ويقول : «كانت كل أفكارى
متجهة نحو جزيرة «ساموا»^(١) التي تعيد إلى الذاكرة ما قام
به بحارة «لايروز» La Pérouse ، وهي تبعد نحو ألف
ومائتى ميل غرباً . واتجه «جربو» نحو الغرب ليحقق أمنيته .
استهدف «جربو» ، وهو في عرض البحر ، للرياح
والزوابع التي لعبت بسفينته لعب الصبي بالخردوف ،
خمسة عشر يوماً بلا هواة . وعندما وصل إلى ميناء «بانجو»
بانجو ، Pango Pango في «ساموا» ، رسا بجوار
الباخرة الحربية الأمريكية «أونتاريو» Ontario ، فقابله

(١) هي الآن تحت إشراف الولايات المتحدة .

غضاطها بهتافهم الحماسي المشهور « هرا هرا » Hourrah ثم ذهبوا به إلى الأميرال « ريان » Ryan الذي دعاه إلى تناول الطعام معه . ويقول جربو : « قضيت سهرة جميلة هنا ، ثم توجهنا إلى دار السينما البحرية ، حيث عرضت علينا أفلام تمثل الحياة في الشرق الأقصى . . وفي يوم ٤ يوليو — وهو يوم عيد الاستقلال الوطني لدى الأمريكان — شاهدت مسروراً ، مختلف الألعاب وبديع الرقصات ، التي يقتضيها عندهم مثل هذا الظرف السعيد » .

وخصص أول النهار لمباراة في لعبة « البيزبول » Base-Ball بين فريق البحارة الأمريكان وفريق من سكان الجزيرة . ويقول « جربو » في وصف اللعب : « ومن العجيب أن فريق الأهالي كان يتخذ في لعبه نفس الحركات ، ويتقوه بنفس الصيحات التي اعتادها الأمريكان وحدهم دون أمم العالم . فكنت تسمع الصبية وهم يرددون بلهجة أمريكية خنفاء : « Attaboy » مما يدخل في روعك أنك إنما تشاهد هذه المباراة في نيويورك نفسها^(١) . وبعد الظهر ، قام الأهالي الذين جاءوا في زيمهم القومي من مختلف الجزر المجاورة « لساموا » بعرض رقصاتهم الحربية المصحوبة بالأغاني الشعبية كانوا يرتدين الملابس الملونة . وكان الوشم

(١) « في طريق العودة » تأليف جربو ، من ص ١٤ إلى ١٦ .

— وهو عندهم من ضروريات الزينة — ظاهراً من
 خصورهم إلى أنفادهم ، حتى ليخيل للناظر إليهم أنهم إنما
 يرتدون سراويل قصيرة زرقاء اللون . وكانت جلودهم
 المدلجة بزيت جوز الهند ، تلعب تحت وهج الشمس . ولم
 يفهم تلوين شفاههم ، وتخطيط شواربهم المستعارة بمختلف
 الألوان ، ليكتسبوا وجهاً مخيفاً ، وسحنة كئيبة .

وكانوا جميعاً طوال القامة ، عظام الهامة ، كما أمسك كل
 واحد منهم بعصيته ، يضرب بها على نفحات الأغاني . ثم وقفوا
 بعد ذلك أمام المنصة الرسمية المعدة لذلك الاحتفال الوطني
 الأمريكي ليقدّموا فروض الولاء . وكان على جانب هذه
 المنصة من جهة ، الأميرال الأمريكي وضباطه ، ومن الجهة
 الأخرى من الجانب الثاني يمثلو الحكومة من الوطنيين .

ولم يشك « جربو » لحظة ، من مشيتهم الحربية ، وقوامهم
 المعتدل القوى ، أنهم من نسل أولئك الأبطال المحاربين
 القدامى ، الذين فتسكوا زماناً ببجاعة « لا بيروز » La Pérouse

وأيقن « جربو » بأن أهالي « ساموا » ، لم يصلو بعد
 إلى درجة عالية في التقدم الفني ، ولا إلى درجة مهارة بقية
 سكان « بولينيزيا » ، « كالتاهيتيين » مثلاً ، ومع ذلك فقد
 اهتم كثيراً بأغنياتهم ولا سيما برقصة القرصاء التي أجادوا

فيها وأبدعوا بفضل مرونة عضلاتهم ، التي كانت تطاوعهم
في جميع حركاتهم .

وغادر « جربو » جزيرة « بانجو بانجو » بعد إقامة قصيرة
فيها ، قاصداً جزيرة « أبيا » Apia لإصلاح أشربة سفينته ،
وما أفسدته مياه البحر عندما تسربت إلى داخلها . ثم اتجه
إلى جزيرة « وليس » Wallis (١) .

واستهدف « جربو » في هذه الجزيرة لشكبات الدهر
ونحس الطالع ، بما لا يخطر على بال بحار . فعند مروره حول
جزيرة صغيرة من جزر المرجان ، أضاع أحد هلميه . إلا
أنه استمر في سيره . وأقبل عليه الليل بظلمته الحالكة .
ولكن سواد الدجى لم يمنعه من الوصول إلى صخور مرجانية
غير ظاهرة بالقرب من جزر « ماتا أوتو » Mata-Utu ،
فألقي فيها هلميه المتبقي ، إلى أن يصبح الصباح ، فذهب لشراء
هلب آخر من الميناء أو من المدينة . وبينما هو في التفكير ،
إذ أثقل الشمس جفونه وحده التعب من نشاطه فاستلقى على
مرقده ، وشعر بانقباض في نفسه لم يدر كنهه ، وبإحساس
باطني غريب ينبئه بحدوث شر وقرب مصيبة . . .

وانتهفض من غفوته على صوت قرعة في أسفل السفينة ،

(١) اكتشفت هذه الجزيرة سنة ١٧٦٧ ، الباهرة الانجليزية

وانطلق مسرعاً ، فتبين له ، من جنب السلسلة إليه ، أن
الهاب الثاني والأخير ، قد سقط في قاع البحر !
وهبت في هذه اللحظة رياح جنوبية . ما فتئت أن تحولت
إلى زوبعة ، فمال « الفايكرست » على جانبه ، وقامت الأمواج
ترفعه وتحطه بعنف . والتفت « جربو » وسط هذا الصراع
الخفيف إلى الميناء عسى أن يجد فيها مراكباً يلجئ نداءه ويهرب
لنجدته . . وارتفع المد قليلاً . ولم يخش « جربو » على سفينته
من ثورة البحر ، بقدر خشيته عليها من العجز ، لأنه
سيحطمها حتماً بين صخور المرجان . وانتابته حالة يأس
تركته قانطاً من النجاة . ويصف « جربو » هذا الموقف
العصيب قائلاً : « فوقفت على متن السفينة والأمواج تتدفق
على ظهرها ، لا حول لي ولا قوة في دفع الأذى عنها . نعم
كنت أنظر بعين الحسرة إلى رفيقتي ، وهي تشرف على
الهلاك . ثم أردف قائلاً عندما غمرت المياه طاقات
الفاير كرسست : « فقفزت إلى البحر ، وظلمت أعوام بين
الأمواج . ولشد ما كانت دهشتي عندما رأيت سفينتي تتبعني
مائلة على شقها ، حتى أننا وصلنا إلى الشاطئ في وقت
واحد تقريباً » .

وعندما لاحت خيوط دُكاه . في كبد السماء ، وجد
« جربو » الفايكرست ملقياً على الرمال ، وبالكشف عليه ،

لم يجد « حيزوم » المماوم بالرصاص الثقيل ، ووجد
« الجاويطات » العشرة المصنوعة من « البرونز » قد تكسر
بعضها عند « الحيزوم » الخشبي .

واشتد حزن « جربو » على سفينته التي انتهت مهمتها
قبل الأوان . وأسف على تبديد أحلامه ، وضياح آماله التي
تكبد من أجلها هذه المتاعب ، وركب في سبيلها هذه المصاعب
وكادت حماسه تنهار ، وعزيمته تذثنى . . ولو أن « جربو »
كان من أصل شرقى ، لاعتقد أن عيناً حاسدة أصابته .

لم يستسلم البحار الفرنسى العنيد لهذه الحالة النفسية السيئة ،
بل شمر عن ساعد الجدى ، وبادر بالسعى لإنقاذ « الفايكرست »
من هلاك محقق ، ولكن ماذا يعمل ؟ وكيف يعمل ؟ أين
يجد الحيزوم الذى يبلغ ثقله أربعة أطنان من الرصاص ؟
كيف يصلح الجاويطات المتكسرة وطول بعضها يبلغ متراً ؟
كان لابد له أن يقيم الفايكرست على قاعدته أولاً .
فابتدأ بنقل الأمتعة والأدوات والأجهزة من داخله وأودعها
لدى تاجر فرنسى فى الجزيرة .

ولما علم ملك الجزيرة بهذه الكارثة ، كلف ستين شاباً
بمساعدة « جربو » . فلما اتخذت السفينة وضعها الطبيعى ،
أسندوها بأوتاد قوية . وفى اليوم التالى ، عندما حان وقت
الجزر ، أبصر لحسن حظه ، بالحيزوم الضائع . فعرف مكانه .

ولما جاء وقت المد ، تطوع أحد الصنادل ، يجذبه إلى
« الفايبر كرست » .

ومن نكد الطالع ، لم يجد « جربو » في هذه الجزيرة
المشؤمة ، وتعداد أهلها ٥٠٠٠ نسمة ، إلا صانعين صينيين
يقومون بكافة الأعمال التي تطلب منهما . ولكن هل من
المعقول أن يستطيعا القيام بأعمال لا يجيدها إلا مهندس
بحري ؟ وكيف يكلفهما بإصلاح السفينة ولا يوجد في الجزيرة
ورشة حدادة ؟ إنها مشكلة بغير شك . بيد أنه لم يجد مفراً
من ترك الصينيين يقومون بإصلاح السفينة وترميمها .
وسرعان ما تناقضت وجهة نظرهما مع وجهة نظر « جربو »
في العلوم الميكانيكية البحرية ، عند بدءهما العمل .

ومرت الأيام وثيدة في نظر « جربو » . وحاول الصينيان
إصلاح الخيزوم بالجدوى . ولاح « لجربو » وميض من
الأمل ، عندما رأى باخرة تجارية قادمة من « نونميا »
Nonméa تتعثر في سيرها . ولكن سرعان ما تلاشت هذه
البارقة ، حيث لم يجد بين بحارتها مهندسين أو حدادين ، كما
لم تلك معلومات القاديين فيها ، بأكثر من معلومات
الصينيين . وما زاد الطين بلة ، والضغث إباله ، أن أصيبت
آلة اللاسلكي في الباخرة ، بعطب طارئ .

رجاء « جربو » ربان الباخرة أن يرسل ، عن لسانه

من أول ميناء يصل إليها ، برقية إلى الحكومة الفرنسية
بباريس ، وكانت هذه البرقية عبارة عن التماس من وزارة
البحرية الفرنسية ، بتكليف وحدة من وحدات الأسطول
الحربي الفرنسي ، التي تقوم بمناورات في جهة قريبة من
جزيرة « ماتا أوتر » ، بالمبادرة إلى إنقاذه من الشر الذي
وقع فيه .

وفي هذه الأثناء ، قدمت باخرة انجليزية إلى « ماتا أوتر » ،
وكلف قائدها الميكانيكيين والحدادين من رجاله بمساعدة
« جربو » . فصنعوا له « الجاويطات » الناقصة ، وتركوا له
— قبل إبحارهم — من العُدد والآلات ، ما يستعين بها
على تركيب الحيزوم .

لم يستطع الصينيان تركيب الحيزوم إلا في المحارلة الثالثة
ثم مررا الجاويطات بين الحيزوم الخشبي والحيزوم المثقل
بالرصاص . ويقول « جربو » معجباً : « لم أنته رغم ذلك كله
من متاعبي ، فقد كانت أحجام الجاويطات الجديدة أكبر من
أحجام الجاويطات القديمة ، بما اضطرني إلى توسيع بعض
فتحات الحيزوم الخشبي . وقام الصينيان بهذه المهمة بواسطة
آلة غريبة من صنع بلادهما . وأقبل المسد بعد تركيب
الجاويطات بالمحطات ، فتخللت المياه من الحيزوم الخشبي إلى
أسفل السفينة لتتدفق بقوة إلى العنبر ، مما جعلني استعين

بالمضخنة لامتناس هذه المياه حتى لا يغرق « الفايكرست »
وطبيعى أنى لم أفكر فى الرحيل وسفيتى على هذه الحالة
السيئة .

ورأى « جربو » أن يصنع « كاك » ليصل به إلى جزر « فدىجى »
Fidji لياتى منها بالإمدادات التى هو فى حاجة ماسة إليها .
وفى ذات صباح ، أبصر بدخان باخرة حربية متجهة صوب
« ماتا أوتو » . وسرعان ما تبين عليها المثلث الألوان . . .
أنها « الكاسيوبى » Cassiopee .

ويقول « جربو » فى فرح : « ونزل من الباخرة كاسيوبى »
ضابط فى رتبة القومندان الثانى ، وجاء إلى « زورق »
ليخبرنى بأنه جاء بناء على أمر من « وزارة الحربية » وأن رجاله
على استعداد تام لتصلح وترميم الفايكرست بأقصى سرعة
لأن وراهم مساعدات أخرى سيقومون بها فى جزر هبرىد
الجديدة ، Nouvelles Hébrides ^(١) .

وفى الحال ، شمر البحارة عن ساعد الجدى ، وساهم فى
العمل معهم القومندان نفسه دون استنكاف ، كأنه واحد
منهم وهذه صفة حميدة انفرد بها أبناء البحر الذين عرفوا معنى
التعاقد فتآزروا . ويقول « جربو » مسجلا هذا التكاثر :

(١) فى طريق العودة ص ٥٤ .

« وكثيراً ما قام القومندان وضباطه بالترميم والتصلّيح ،
 رغم وصول المياه إلى خصورهم ، بجهد ونشاط إعجاباني كثيراً .
 وتغلب بحارة « الكاسيوني » المتخصصون في الميكانيكا على
 المصاعب التي لاقوها أثناء تصلّيح سفينتي ، لحسن رغبتهم ،
 وصديق عزيمتهم في مساعدة أخ لهم . لذلك تم تصلّيح
 « الفايركرست » وأصبح صالحاً لجولاته ووصولاته البحرية
 في وقت قصير جداً ، اعتبره قياسياً . »

وبالرغم من سأم « جربو » لما كان أصاب سفينته ،
 فإنه استطاع أن يستميل قلوب أهل الجزيرة إلى محبته وصداقته
 لاسيما صداقة الملك والملكة وكريمتهما . وكانت الأسرة المالكة
 تتردد عليه كثيراً طوال محنته . كما بلغ إعجاب الأميرة
 الصغيرة — بصفة خاصة — بشكل عيدان الكبريت
 السويدي ، حدّاً أخذ بعضها لتجعله حليلة لأذنيها .
 وأراد « جربو » بعد أن اطمأن على سفينته ، أن يدعو
 ضباط « الكاسيوني » إلى وليمة تفصح عن شكره لهم . وأسر
 بذلك إلى العائلة المالكة التي رحبت بهذه الفكرة . وسرعان
 ما تسابق أصدقاءه من أهل الجزيرة في تحضير الوليمة .

ونجحت الحفلة . وجلس القومندان والضباط الفرنسيون
 على الأرض على الطريقة الشرقية العربية ، أمام ألوان الطعام
 البولينيزي . وجاء الراقصون وقدموا جلودهم بطلاء أحمر

وحلوا رؤسهم بتيجان من الزهور ، وعرضوا رقصاتهم في
 رشاقة وخفة على إيقاع نغم الأغاني الشعبية .
 واستلقى جربو على وسادة ، وترك لنفسه عنان التأمل
 في التباين البعيد بين ملابس الضباط الرسمية ، ومازرو أهل
 الجزيرة في تعدد ألوانها . ولنتركه يحدثنا عن سروره لنجاح
 هذه الحفلة . قال : كنت سعيداً بثقة الأهالي و صداقتهم لي ،
 كما كنت سعيداً لقيامى بواجب الأكرام نحو أصدقائى رؤساء
 الباخرة ورجالها .

وفي صباح اليوم التالى ، سافر « الكاسيون » إلى سبيله ،
 وسارع « جربو » فى يوم ٩ ديسمبر ، بترك جزيرة « ماتا
 أوتو » Mata-Utu بعد أن ظل فيها خمسة أشهر . ويقول فى
 فلسفته المعهودة : « عندما أستعيد فى ذاكرتى كل ما حدث لى ،
 ابتسم شاكراً ، مفضلاً الواقع ، فقد كان فى استطاعة القضاء
 أن يصيبنى بنوازل وكوارث تجعلنى أثراً بعد عين » .
 ولا نعتقد أن « ججا » المشهور عندنا ، ينطق بأكثر
 من هذه الحكمة .

وأخذ « جربو » يمتخر عباب أليم على حذر بين جزر
 المرجان ، إلى أن وصل إلى « سوفافا » Suva عاصمة جزر
 « واليس » Wallis .

وترك جربو سفينته فى ميناء « سوفافا » لترميم أسفلها ،

وتصقيلمها تورطئة لطالما . وسار في أنحاء الجزيرة طلباً للزهد
والترؤيح عن النفس . وشامت الصدف أن يتلقى باصداقاه له
من لاعبي التنس ، فساهم معهم في عدة مباريات حبية ، شاهدتها
حاكم الجزر « سيراير هيدسون » Sir Eyre Hudson ،
وأعجب الحاكم بضربات البحار الفرنسي الكبير المحكمة ، بما
دفعه إلى التصفيق له مراراً ، وإلى مصادقته .

وفي ذات يوم ، أقبلت المدرعة الانجليزية « رينون »
Renown إلى ميناء « سوفاف » رافعة شارات « الدوك يورك »
Duc d'York ^(١) ، الذي كان بين ركابها ، يتقدمها جمع غفير
من الأهل في زوارقهم الشراعية . ووقفت المدرعة غير
بعيد من « الفاير كرست » الذي بدا ضئيلاً بالنسبة لها . ولم
يلفت « جربو » هذا المنظر حيث علق عليه قائلاً : « إن
التباين كان ظاهراً بين هذا البناء المشمخر ، آخر ما أنتجته
عبقرية البشر في فنون التجديد وعالم الاختراع للفتك
بالإنسانية ، وبين سفينتي الصغيرة المستكنة التي أوصلتني
سالماً إلى « المتقاطرين » Antipodes ، وأن فلسفتي علمتني
الرضا بما قسم لي من حظ في الحياة . ألم أك متمتعاً بحريتي
في « الفاير كرست » أكثر مما كان يتمتع بها الزائر الملكي
في مدرعته ؟! ^(٢) .

(١) هو الملك جورج السادس ملك إنجلترا الحالي .

(٢) « في طريق العودة » ص ٧١ تأليف « جربو » .

وعند ماتم طلاء « الفايبر كرسيت » وأصبح قادراً على مواجهة الأمواج ، انطلق به من ميناء « سوفاف » — بين تحيات الوداع من البواخر الراسية — إلى عرض البحر ، في ١١ مارس قاصداً مدينة « السكاب » Cap ، وفي نيته أن يصلها خلال فترة الصيف .

وفي يوم ٢٣ مارس ، بعد سفر هادى ، ظهرت له على مسافة ٦٠ ميلاً ، جزر هبريد الجديدة Nouvelles Hébrides وجزر « سيكلاد الجديدة Niles-Cyclades الجاثمة في الجنوب الغربي .

وفي يوم ٢٦ مارس ، رسا « جربو » في ميناء « فيلا » Port-Vila ^(١) بجزر « هبريد » الخاضعة لانتداب فرنسا وانجلترا . وكانت كل دولة منهما تدير أعمال رعاياها الخاصة ، كما أنشئت هنالك محكمة دولية فريدة في بابها ، يرؤسها قاض إسباني لفصل النزاع بين الرعايا .

واضطرب « جربو » لأن يرفض — على مضض وأسف منه — دعوة المندوب السامى الفرنسى في المحيط الهادى ، لزيارة « نونميا » Nonméa ، لأسباب قاهرة تتصل بالملاحة ، لذلك لم يمكنه في ميناء « فيلا » إلا بضعة أيام ، التقى بعدها

(١) ميناء لجزيرة « فاتى » Valé في جزر « هبريد » .

بصديقه الحميم . . . البحر . وكان الجو صحواً ، واستطاع
اجتياز جزر المرجان بمهارته المعهودة .

وفي ٢٣ أبريل ، ارتفعت الأمواج . وتشبع الهواء
بالبرودة ، وهبط مقياس الجو ، وهاج البحر ،
وتزايدت شدة الرياح على مر الوقت ، وهطلت الأمطار
بغزارة . فغير « جربو » طريقه في الحال . وبعد ١٢ ساعة ،
هدأ الجو قليلاً . وعند ما وصل إلى « غينا الجديدة »
Nouvelle Guinée تراءى إلى مسامعه أن عاصفة شديدة
هبت خلال أيام ٢٥ و ٢٧ أبريل على بعد ٢٠٠ ميل من
الجهة التي كان هو فيها وهكذا انجأ « جربو » من هلاك محقق .
وفي يوم ١٠ مايو ، ألقى هلمه في مياه « ميناء مورسبي »
P. Moresby الهادئة ، وكانت الشوارع الأوربية والبيوتات
التجارية في « مورسبي » مكتظة بأناس ، مختلفي الأشكال
والأجناس ، ويقول « جربو » عنهم : « كان من بينهم رجال
سود البشرة ، طالت أنوفهم بقدر مادقت ، ينحدرون ،
بلاشك ، من أصل سامي . ولعلمهم من خلفتهم إحدى قبائل
إسرائيل . وكنت أرى كذلك رجالاً لهم بشرة صفراء أو
نحاسية اللون ، ومنهم من حاكي لونه لون القهوة المختلطة
باللبن . وكل واحد من أولئك كان يتكلم بلهجته الخاصة .
وبقدر ما كان خليج ميناء « مورسبي » قاحلاً ، بقدر

ما كان الريف مخضراً ، وتناثرت عزب الأهالى بين الأدغال والغابات التى لم تعبث فيها يد المدنية . خلف منزل الحاكم الذى يشرف عليها من منتصف هضبة من هضبات الجزيرة . واختار « جربو » هذه البقعة لنزهاته وتأملاته .

كان الذكور من السكان يرتدون المآزر ، بينما لبس الإناث رداء يستترهن من الخصر إلى الركبة ، نسج من ألياف الشجر ، يشد إلى خصورهن بحزام .

ويقول « جربو » متحدثاً عن هذا الجنس اللطيف : « كانت الفتيات فى منتهى الخفة والحسن . وكانت سواعدهن ورؤوسهن محلاة بزهور زاهية جميلة . أما ظهورهن العارية وجوههن ، فقد ازدانت بوشم يتناسب مع حسنهن ، لا تراه العين إلا عن كשב » .

وفى يوم ١٩ مايو ، نشر « جربو » أشرعة السفينة ، وانطلق من المرسى إلى بحيرة ميناء « مورسبي » مارقاً بين ضفتي « البازيليك » ، Basilik .

واستدل « جربو » من تلون البحر بلون أصفر ، وما حملته مياهه المتلاطمة من جذوع الشجر ، أن عواصف شديدة هبت فاجتاحت ما وجدته فى سبيلها . وتكاثرت الكائنات الحية حوله ، وجامت الطيور البحرية بين صياح وتغريد لتقف على أعمدة السفينة ، بينما قامت الأسماك تتبع ثلها فى البحر . وبعد أن سكن الريح واعتدل النسيم ، رأى

« جربو » أن يسلي نفسه بصيد السمك والطير ، لئلا كل منه
لحمًا طرياً طازجاً .

وكان طريقه إلى الهند محفوفاً بالأخطار ، لتناثر جزر
المرجان وصخوره الخبيثة ، عند مضيق « توريس Torres » ،
مكونة حائزاً صخرياً يمتد من الجانب الشرقي لاستراليا إلى
« غينيا الجديدة » .

ويقول « جربو » : كان أمامي طريق واحد أستطيع
المرور فيه ، هو الطريق الشمالى الشرقى ، المشهور بمدخل
« بلاى Bligh » .

ولا شك أن من أصعب الأوقات التى مرت عليه فى
رحلاته ، كانت تلك التى اجتاز فيها هذا الممر المحفوف
بالأخطار . ثم مرَّ فى طريقه بجزر كبل Campbell ،
و « دارلامف Darlymphe » و « يورك York » وبالجزر
الأخرى الساحرة الجميلة العجيبة التى لم يجد لها ذكراً فى
خريطة البحرية .

وزار كذلك جزيرة « ثارسدى Thursday » و « ونسدى »
Wednesday وعلت هذه الأخيرة زروع برية لم تطأها أقدام
البشر . وكان يشعر بسعادة وهو يتأرجح بسفينته بين عباب
البحر ، كما كان مشدوهاً بحال المحيط الهادى الذى تركه وراءه ،
والذى مازال ماثلاً فى ذاكرته . ثم اندفع بسفينته ، بقلب
ثابت وعزيمة قوية ، نحو مجاهل جديدة... نحو المحيط الهادى .

المحيط الهادى

وفى يوم ١٦ يونيو ، عندما وصل إلى بحر « أرافورا » ،
Arafura استرعى نظره غبار أحمر يكسو سطح الماء ، كما
استرعى ذلك الغبار الغريب من قبل ، نظر « الكابتن كوك » ،
المشهور ، ونظر العلامة المعروف « شارل داروين »
Charles Darwin

وظهرت له جموع من الشعابيين فى ألوانها البراقة . ولما
كان البحر مشبعاً بالفسفور فى هذه المنطقة فقد كان
« الفأير كرسى » يترك وراءه ذيلاً من النور .

وفى أول يوليو ، أبصر بقمم جزر « تيمور » Timor
و « روتى » Roti الشاهقة . وبعد أن اجتاز مضيق « سيمو »
Semau الكائن بين هاتين الجزيرتين ، ألقى هلبه فى مرسى
« كوبوانج » Koepwang الجليل ، الذى كان فيما قبل ، برجا
هولندياً .

واحتفى به الحاكم الهولندى الذى قرأ كتاب « بمفردى
عبر الأطلنطى » فى نسخة هولندية ، احتفاء كبيراً .

ولما كان البحار الفرنسى يمقت النزعات الرسمية المرسوم
خط سيرها ، لما يشتم منها رائحة الدعاية ، فقد تخلص بلباقة
من حفاوة الحاكم وغيره من ذوى النفوذ فى الجزيرة ، ليتمتع
فى تجواله بمفرده فى أنحائها .

وقف جربو على سبيل الحياة والمرافق العامة فيها ، كما
 ثبر خلق أهلها وجلهم من الملايو والهند والصين ، واستلفتت
 نظره نظافة التجار في كل معروضاتهم حتى في البضاعة التافهة .
 وأراد « جربو » أن يذوق طعام أهل الملايو ، فوجده
 مشبعاً بأنواع التوابل والبهارات ، بما ألهب لسانه ، وجعله
 يبحث عن طعام آخر أقل لهيباً . فدله أهل الخير على مسلي
 الجزيرة المنحدرين من أصل عربي . فذاق طعامهم ، وكان
 اللحم هو الغذاء الأساسي عندهم . ولقد وصف « جربو » هذا
 الصنف بأنه : « قطع من لحم الضأن مصففة في سيخ ، شويت
 في الهواء الطلق فوق نيران تتصاعد من الفحم الحجري » .
 أنه يريد ، بلا شك ، أن يصف ما نسميه نحن في مصر
 « بالكباب » . وعلى كل ، فإن « جربو » وجد هذا اللون
 من الشواء لذيذاً . وفي المساء ، أخذ « جربو » مجلسه في
 إحدى المقاهي العامة الوطنية . وشنف أذنيه بمختلف النغم
 المتصاعد من القيثار الغريبة ذات الأربعين وترأ ، في
 جو اختلطت فيه رائحة البهارات برائحة البخور . لقد افتن
 « جربو » بسحر الشرق ، فترك نفسه تسبح في عالم الخيال
 والأحلام .

إلا أن شيطان البحر عاد فوسوس إليه ، فاستمع
 لوسوسته كهادته ، ورفع هلبه في يوم ١٥ يوليو ، ونشر

أشرعته ، وخرج وتبدأ من مرسى « كوپوانج » Koepwang تاركا وراءه البحر السحري والأحلام البائدة .

وفي ١٧ يوليو ، جال حول جزيرة « سافو » Savu المشهورة بين بتمية الجزر بجمال نسائها . ولكنه لم يقف عندهما . وبعد عشرين يوماً قضائها في البحر في هدوء وسلام ، وصل أمام جزيرة « كرسيماس » Christmas . وفي ٩ أغسطس ألقى هلبه في جزيرة « كيلنج » Keeling حيث لقي فيها الطراد الألماني « أمدن » نهايته المشرقة خلال الحرب ، ويقول « جربو » في ذلك :

« ولقد شيدت السلطات عاموداً للبرق اللاسلكي ، في المكان الذي نسف فيه الطراد الألماني (١) ، نقشت عليه عبارات خللت بها هذه الواقعة . ويرى الناظر بعض أجزاء حديدية في جزيرة « كيلنج » هي ما تبقى من هيكل ذلك القرصان الحربي الحديدي الجبار .

واحتفى الانجليز في هذه الجزيرة « بجربو » احتفاء عظيمًا وقدّموا له خدمات ملهوسة . ولكن « جربو » ، بعد أن أصلح سفينته ، واختبر « السكر وفومتر » ، واستزاد من مؤنة

(١) نال القومندان « فون مولر » Von Muller قائد الطراد « أمدن » إعجاب واحترام أعدائه ، لما أظهره من بسلالة وشجاعة وكرم أخلاق ، قلت أن تجتمع في بحار . ويمد مولر بحق ، من أعظم الوجوه التي يتجلى بها تاريخ البحرية الحديث .

الأرز والفطير وماء الشرب، انطلق نحو جزيرة « رودريجيز Rodriguez » وهي تبعد عن جزيرة « كيلينج » بألفي ميل .
وفي صبحى يوم ٢١ سبتمبر ، بعد سفر ذاق فيه الأمرين
من البرد القارس — رغم انحداره نحو الجنوب — شاهد
الجزيرة التي كان يمشدها .

وحوالى الظهر ، دخل مرمى « سان ماتوران ،
Saint Mathurin فاستوقفه زورقان شراعيان أحدهما
انجليزى . وصعد منها إلى « الفايركرست » كل الركب ،
وسأله إذا كان فى حاجة إلى مساعدتهم ، وقبل انتظار جوابه
بادروا إلى مساعدته ، فتأفف « جربو » من هذه المساعدة التي
كان فى الواقع فى غنى عنها . ويحدثنا « جربو » عن هذه المساعدة
بالإكراه ، قائلاً : « وظلمت أكثر من ساعة أعوام السفينة
وقد نشبت فى الرمال ، واصلب الهلب فى المضيق وقاية من
الأنواء . بينما كان فى استطاعتى أن أقوم بكل ذلك فى دقائق
معدودات لو أنهم تركونى أعمال هذا بنفسى .

وبعد أن تخلص من زائريه . أخذ حمّاماً ، وتناول
طعاماً مغذياً ليعوض ما فقدته من نشاطه . وسرعان ما عاد
إليه سروره وابتساماته المعهودة . وابتدأ يتجول فى جزيرة
« رودريجيز » التي كانت تابعة للحكومة الفرنسية فيها مضى ،
قبل أن تصبح شركة « الهند الراححة » ، شركة انجليزية وكان

سكان هذه الجزيرة خليطاً من البريطانيين والنورمنديين
والأفريقيين . وكانت لهجتهم غريبة ، تتخللها كلمات انجليزية ،
واصطلاحات فرنسية قديمة ، مما كان يسبب « جربو » كثيراً .
وبعد أن قضى فيها عشرين يوماً ، اتجه صوب جزر
« الرينيون » Réunions (١) .

فوصل « بعد ثمانية أيام قضاها بين النسيم العليل ، إلى
جزيرة سان موريس St Maurice البديعة التي بعثت في خياله
الشعري ذكريات من أدب ، برناردان دي سان بيير (١)
Bernardin de St Pierre صاحب كتاب « بول وفرجينى ،
Paul et Virginie الذى كاد يطوى في سجل النسيان .

وفى ١٤ أكتوبر ، رسا فى جزيرة « الرينيون » Réunions
وكم كانت دهشته عندما وجد وفود الناس محتشدة للقاءه .
ويرجع السبب فى هذه المفاجأة السارة ، إلى البرقية التى
أرسلتها السفينة « فيل داراس » Ville d'Arras بعد مقابلاتها
له فى عرض البحر .

وصعد محافظ الجزيرة إلى « الفايركرست » ورحب
« بجربو » ، ونزولا على إرادة البحار الفرنسى الذى أبدى
رغبته فى عدم دعوته إلى حفل رسمى ، فقد دعاه فى الغد إلى

(١) تملك فرنسا هذه الجزر منذ سنة ١٩٤٢ . وهى من جزر المحيط
الهندي فى شرق إفريقيا .

تشارل الطعام معه على مائدته الخاصة. ولكن الناس اجتمعوا رغم هذه الحظوة على الرصيف ، وتتبعوا البحار الكبير خطوة خطوة حتى أوصلوه إلى قصر المحافظ .
ويقص علينا « جربو » غضبه من هذه الحفاوة البالغة قائلًا :

وجاءت البرقيات تترى من نقابة الصحفيين ، والجمعيات الرياضية ، ومن القنصل البريطاني ومن غيره من الشخصيات البارزة . . . وسرعان ما وصل قطار « سان ديني » St.Denis يحمل جمهوراً غفيراً من المعجبين بي ، ولم أخش أحداً من أولئك بقدر ما خشيت مخبري الصحف ! .
ثم يردف قائلاً ، بعد أن حوَصر بأسئلة المحررين ، وآلات تصوير مخبري الصحف ، ووفود المستقبلين :

« لم تك إقامتي بينهم عادة شهور كافية لوقوفهم على كل ما أرادوه من أخبار ومعلومات » . وإن كانت هذه الحفاوة أرضت ضمير « جربو » ، إلا أن ميله الفطري للوحدة تغلب عليه ، حتى أنه اضطر إلى رفض كل الدعوات وقام إلى سفينته يختبئ فيها رغم أعمال الترميم التي كانت جارية في أسفلها .
وبعد أن قضى خمسة أسابيع في جزيرة « الربونيون » قامت عدة سفن مختلفة الأحجام والأشكال تصحبه أثناء اجتيازه الميناء في يوم ١٨ نوفمبر . ويقول بعد أن انفرد في

البحر ، وعاد اليه انشراح صدره : « أصبحت وحيداً في البحر الخضم . وكم وددت الجنوح إلى مدغشقر Madagascar ولكن ابتداء فصل الزوابع حال دون أمنيته هذه ، لما أعرف عنه من خطورة كبيرة لاسيما إذا ما اقتربت من ساحلها الشرقي . وكان سفره في هذه المرة شاقاً . فكم من مرة تمزقت فيها أشرعته ، وخارت فيها قواه ، حتى أنه وصل بكل صعوبة إلى الدرجة السادسة والعشرين من خط العرض الجنوبي ، ليستطيع الدخول في منطقة « دائرة الانقلاب » الهادئة ، حيث هياً له الجو الصحو مشاهدة كسوف القمر كسوفاً تاماً ، مما ساعده على ضبط « السكر ونومتر » الذي تزوده ، وتحديد موقعه ، ثم أعقبت النسيم العليل ، لفحات من الريح ، دفعت السفينة برفق نحو القارة السوداء .

وفي فجر ١٤ ديسمبر ظهرت له سواحل أفريقيا . وشاهد في مساء ١٧ ديسمبر ، أنوار مدينة « دربان » Durban ، ودخل في نفس اليوم الممر الضيق الذي يوصل إلى الميناء . وما أن ألقى بهلبيه ، حتى بادر « كابتن » الميناء يصحبه إلى المرسى المخصص لطائرة الحاكم المائية . وقوبل بمقابلة الأمراء . وجاء اليه رئيس وأعضاء نادي اليخت الملكي الأهلي Royal Natal Yacht Club وسلموا عليه وانتخبوه عضواً شرف في ناديهم طيلة إقامته بينهم .

واحتفى به سكان « دربان » ، بنفس الحفاوة الكبيرة التي قابله بها أهل جزيرة « الريونيون » . وكادت المدينة أن ترفع له الأعلام تحية له ، ولقد صادف وصوله يوم الاحتفال بعيد ميلاد المسيح ، ورأس السنة الإفريقية . فاضطر رغم أنفه ، أن يقبل دعوة العشاء الصاخبة التي أقيمت خصيصاً له في أكبر فندق في المدينة ، بمناسبة إحياء ذكرى ميلاد عيسى عليه السلام .

وقام « جريبو » يسجل ماخالج نفسه في هذا الحفل قائلاً : « إن كثرة انفرادي وبعدي عن الناس في حياتي ، جعلني أشعر بأنني غريباً بين هذه الوفود . وكان صخب المدعوين شديداً جداً في قاعة الحفل ، لدرجة يعجز القلم عن وصفها . كان كل واحد منهم يأتي بحركات ، القصد منها تسلية جاره . حتى وصل بهم الأمر إلى محاكاة الأطفال في مزاحهم . ومنهم من ركب فوق أنفه أنفاً صناعية . ومنهم من لبس قبعة من الورق ، حتى خيل إلى أني في يوم مهرجان . . . وقامت « الاركسترا » تعزف على غير نغم شجي . وأعتقد أننا لو كنا بين سكان جزر « تاهيتي » لتيقنا بحلو النغمات الموسيقية الفطرية ، ولفضلها الذين دعوني لسماع نشاز « الأوركسترا » الأوربية .

ولا نعتقد فعلاً ، أن مثل هذا الصخب يروق بحارنا الهني

أردف قائلا في صراحة المبهودة : ربما اعتقد الناس خطأ ،
 أنى عدو المدنية . ولا شك أنى أعرف مشاكلهم كيف أقدر
 غذاء آسها ، وسط جمع لطيف من المدعوين الأذكياء ،
 أشاطيرهم الحديث ، ولكن هذا شيء ، والتماسى فى وسطهم
 ووجوبى مراعاة العادات المتكلفة التى ألفوها هم وتحررت
 منها أنا ، شيء آخر . « كما يقول فى حديثه عن مدينة «دربان» ،
 إن مدينة «دربان» نظيفة ومنظمة بقدر ما روعى فيها تنسيق
 تقسيمها الهندسى . وهى تشرف على الخليج . بها يكسهار وبناء
 وبها . ولكن المصانع المتسيدة حول الميناء أضاعت كثيرا
 من جمالها وبهجتها ، كما أن الغرف الخشبية التى أنشئت
 للمستحمين على الشاطئ ، حجبت البحر عن المارة .

لم تعبت يد البشر بجمال الطبيعة فى «دربان» بأكثر مما
 عبت به فى «برايتون» Brighton وإيستبورن، Eastbourne
 أو بعض شواطئ بحر المانش . فلقد غاب عن منشىء هذه
 الغرف مراعاة أبسط قواعد الفنون التى أوجدتها العلوم
 الحديثة ، لحفظ وصيانة جمال هذه البقعة (١)

وكان يلذ «لجربو» فى بعض نزواته ، أن يركب نوعاً من
 العربات الصغيرة المسماة «ركساو» Ricksaw ، وهى عربات
 صغيرة يجرها رجل من «الزولو» بعد أن يثبت فى رأسه

(١) فى طريق العودة لآلان جربو من ١٥٠ .

قرنين ، ويلون ساقيه باللون الأبيض ، ويعلق في رقبتة جناجل كتلك التي تعلق في رقاب الخيل ، وكان جربو يفضل هذا النوع من الركوب ، على أنواع السيارات الفخمة ، لأنه يمشى به رويدا ، فيتمتع بمشاهدة جمال الطبيعة .

وفي « دربان » روح عن نفسه تارة بلعبه التنس ، وطورا بملاحظة ترميم سفينته . وبينما كان يهرب من « المتحضرين » من سكان هذه الجزيرة ، فإنه كان لا يأنف من زيارة عرب الزوار ، والاختلاط برجالها الأقوياء ، الذين لا يعرفون إلا الإبتسام والعصاحة وارتداء المئزر .

وشاهد يوما حفلة رقص أقيمت احتفاء بفريق انجليزى من لاعبي « السكرىكت » ، ويقول عنها :

وخولت لى هذه الحفلة التمتع برشاقة حركات أولئك السود ، والإعجاب بأجسامهم القوية ، أولئك السود الذين قاموا يصدون عن أوطانهم الغزاة الغاشمين من أهل الغرب .^(١) وفي يوم ٢٤ يناير ، قام رفاص « كابتن المينام يجر سفينة (جربو) حتى أخرجها إلى عرض البحر . وقامت الرياح الشديدة تلعب (بالفاير كرسيت) وتعبث به ، حتى يوم ٢٩ حيث هدأت قليلا ، لتعود على أشدها . ولاحظ (جربو) أن الأمواج تفوق في ارتفاعها علو الصاري ، أى كانت ترتفع

(١) في طريق المودة د لآلان جربو ، ص ١٥٢ .

إلى ١٤ متراً . وفي يوم ١٣ فبراير من برأس (الرجاء الصالح)
وعند البحر ، وترك (جربو) السفينة تأخذ مسلكها ويدا
رويدا نحو خليج (شابمان) Chapman حيث سمع طيلة الليل
أنين سمك (كلب البحر) .

ومر في اليوم التالي — بين النسيم العليل — بجانب
الشاطئ ، ليشتمع برؤية العمودان النارية التي وصفها
كامونس^(١) من قبل .

وفي يوم ١٦ فبراير ، حوالى الساعة الخامسة بعد الظهر ،
شاهد ضباط « ميناء كبتاون » Cap Town من أعلى السيففور ،
« الفاركرست » الصغير ، وهو يشق طريقه في الماء ، نحو
مدخل الميناء . فسارعوا إلى مقابله ، وجذبوه إلى حوض
أسس خصيصاً لليخوت .

وترك « جربو » سفينته التي أتلقتها العواصف في الحوض
لترميمها ، واستطاع في فترة قصيرة أن يكسب صداقة الضباط
البحريين الذين جاءوا في الطراد الإنجليزي « ول فلاور »
Well Flower ، وكثيراً ما لبى « جربو » دعوتهم في تناول الطعام
معهم على ظهر البارجة ، كما صحبهم في نزحاتهم في أنحاء مدينة

(١) هو لويس كامونس Louis Camoens (١٥٢٥ — ١٥٧٠)

شاعر برتغالي ولد في لشبونة واشتهر بدقته في تصوير الظواهر البحرية ،
والعناصر الحيوية ، بقلم سلس اخاذ .
المؤلفة

« الكاب » التي أعجبته . ويقول في ذلك : « تقع هذه المدينة بجوار « تابل مونتنز » Table Mountains ، ويحيطها سياج جميل من الجبال الشامخة . إنها مدينة عجيبة في جمالها الطبيعي . فعند ما يلبس « التابل » حلته من السحب ، تهب الريح الجنوبية الشرقية حاملة معها ذرات التراب . ويفوق تعداد سكانها المنحدرين من « البوير » تعداد بقية سكانها ؛ كما أنهم يختلفون كثيراً عن البريطانيين القاطنين في « دربان » .

« ولم يختلط نسب الرجال « الزولو » في مدينة « ناتال » Natal ببقية السكان ، بينما كنت أرى في مدينة « الكيب » كورالدين قندين ، بقدر ما في أجسامهم من عاهات وتشويه . وما أن تم ترميم « الفاير كرسست » وركبت فيه الأشرعة الجديدة ، حتى فكر « جربو » في الرحيل .

وفي ١٧ مارس ، استعد له . ويقول في ذلك : « أراد أحد أصدقائي التقاط صور سينمائية لي قبل مغادرتي الميناء . كما لم أمانع — على مفضل مني — في أن يحركني « رفاص » كابتن الثغر ، حتى يسير بي بين الأحواض المتناثرة في مدينة « الكاب » ، اذ كان بودي أن أقوم بكل ذلك بنفسى وبمفردي . ولكن الناس أبدوا استعدادهم لمساعدتي ، واشتراكهم في رفع الأشرعة أيضاً ، وكانت الرياح شديدة ، فغذفت « بالفاير كرسست » حتى جعلته يقطع ثمانية عقدات

في الساعة ، فانقلبت الآية وأصبح النفاير كرسى يجر الرفاص ،
بعد أن كان الرفاص يجره ! .

انطلق « النفاير كرسى » من الشفر إلى عرض البحر مدفوعاً
بقوة الريح . وترك « جربو » وراءه تلك المدينة ، ونيران
جزيرة روبن Robben ، وأخطار الساحل ، ثم حول الدفة
تجاه جزيرة « سانت هيلانة » Ste. Hélène وكانت تبعد عنه
بنحو ألف ميل .

كانت الرياح غير معتدلة في أول الأمر . وكثيراً ما صادفته
الأعاصير والعواصف ، حتى أنه لم يتمتع بهدوء البحر ،
إلا عند ما سكنت الريح العاتية في يوم ٣٠ مارس ، لدخوله
في درجة ٢٧° من خط العرض ، ثم انخفضت سخونة الهواء
وظالت السفينة تتأرجح فوق الأمواج أثناء اقترابها من جزيرة
« سانت هيلانة » .

وفي ١٩ أبريل ، دار « جربو » حول الساحل الشمالى
الشرقى من الجزيرة ، وكانت أرضه جرداء قاحلة ، وتفادى
قوة الرياح وهو بين جبال الجزيرة ، إلى أن اقترب من مدينة
« جيمس تاون » James Town ، حيث وضع فيها قدميه في
اليوم التالى .

كان وادى هذه المدينة ضيقاً ، بقدر ما هو خصيب ،
كما كانت الصخور الحرام الجرداء تحيط به من كل جانب .

ولنترك « جربو » يحدثنا لحظة : « وفي يوم من ذات الأيام ، ركبت جوادا لا تنزده به في المدينة ، ومررت بجانب الجبال ، وسط طريق تطلب تعبيده بجودا كبيرا ، وكانت الخضرة التي تكسو قمم هذه الجبال ، لا تختلف عن تلك التي تنبت في أعلى الجبال الأوربية ، كما أن الدور في العزب ، كانت تشابه تلك التي كنت أراها في إنجلترا ، وتراعى تحت قدمي ، وادي « لونج وود » Long Wood الخصب^(١) ، وشاهدت على مقربة منه ، الوادي الصغير الذي يوجد فيه قبر نابوليون^(٢) .

وبصفة « جربو » رجلا فرنسيا يفخر بمجد بلاده ، فإنه أبى أن يزور قبر الامبراطور ، وشرح لنا ذلك بتأثر شديد : « لم يقو شعوري على متابعة السير مع من كان في رفقتي ، في الأماكن التي يغشاها عادة السواح ، ولقد اكتفيت بالمرور — في خشوع — بالطرقات التي كان يمشى فيها الامبراطور الكبير أيام أن كان سجيناً في هذه الجزيرة ، ثم صعدت إلى سفينتي .

وفي ٢٩ ابريل ، عند ما أراد أن يغادر جزيرة « سانت

(١) المكان الذي كان يعيش فيه نابوليون إلى أن توفي سنة ١٨٢١ .

(٢) القبر المؤقت الذي دفنت فيه رفات نابوليون ، ثم رفعت منه وشحنت

إلى فرنسا ، حيث وضعت في قصر « الانتاليد » بباريس ١٨٤٠ ، أيام

المؤلفة

حكم لويس فيليب .

هيلانة ، متجها نحو جزيرة « الأسانسيون » Ascension صاعداً نحو وجه من الميناء ، دخول باخرة تحمل عدداً كبيراً من الركاب ، وما أن عرفوه حتى صاحوا يحيونه بغناء يقول عنه « جربو » أنه « نشيد يماثل تماماً في نغاته ، نغات المرسيةين La Marseillaise .

وبعد ١٤ يوماً قضاهما في البحر ، ظهرت له جزيرة « الأسانسيون » على شكل هيكل أسود متكسر الجوانب ، قامت من حوله قمم تطالب عنان السماء ، وكانت مياه البحر في هذه البقعة زرقاء باهتة ، ويقول « جربو » في ذلك : « عند ما نزلت إلى البر ، وجدت عدداً من سكان المستعمرة واقفين فوق رصيف الميناء استعداداً لاستقبالى والاحتفاء بي » .

كانت شركة « الكابل الانجليزية » Comp. Anglaise du Cable تدير شؤون هذه الجزيرة . وقد عنت هذه الشركة بإعداد مكان خاص للعبة التنس وكرة القدم «والسكريكت » . وكانت أرض الملعب نظيفة لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً . وهكذا استطاع « جربو » أثناء إقامته في هذه الجزيرة أن يمارس أحب الرياضة إلى نفسه .

ويقول « جربو » : « وهكذا مرت سراعا الأيام القليلة التي قضيتها بين أهل الجزيرة في وئام وعناية أخوية ، ولم أسمنح لعدم استطاعتي الإقامة بينهم مدة أطول . ولا شك

أن الحفاوة التي قابلني بها أعضاء هذه الشركة الانجليزية تركت في نفسي أثراً حميداً ، لا تستطيع الأيام أن تمحوه من فؤادي ، وفي ٢٦ مايو ، ترك الجزيرة في وقت كان النسيم العليل يداعب فيه سطح البحر ، ليتجه نحو جزر «الكاب فير» Cap Vert . وشاهد البحار الفرنسي الكبير ، في ليلة ٨ يونيو ، النجم القطبي لأول مرة منذ ثلاثة أعوام .

وفي ١١ يونيو وصل إلى الدرجة الخامسة من خط العرض الشمالي ، فلم يعد يستند على النسيم ، واستهدف للعواصف الهائلة المربعة . فكان طيلة أيامه تقريباً ، عرضة الأمطار الغزيرة ، والصواعق المنقضة ، والبرق الخاطف . ورغم سلوكه طريق السفن التجارية ، فلم تلتفت إليه واحدة منها أثناء مرورها بجوارها ، حيث كان جل اهتمامها متوجهاً إلى النجاة من الأمواج التي بلغ علوها وضخامتها ، الأطوار العظيمة .

وفي ٢١ يونيو ، عندما هداً البحر قليلاً ، لاحظ «جربو» أن سمكة من نوع القرش وأخرى من فصيلة «اللبا» يتبعانه جنباً لجنب ، ويقول عنهما : «خشيت على نفسي من سمكة «اللبا» الضخمة التي يبلغ عرضها ١٢ متراً ، أكثر من خشيتي القرش الذي كان بجوارها . . .»

وعندما بلغ الدرجة العاشرة الشمالية ، شعر بنسيم عليل

يداعب سفيفته من جهة الشمال ، ولسكن تيار البحر المخالف لتيار النسيم كاد يعوق سيرها ، ويقول جربو « ولم أشعر فعلا بنعومة النسيم الذي كان يهب من الشمال الشرقي ، إلا في يوم ٣ يوليو ، ولقد بهرت بالأرض قبيل الظهر .

كانت هذه الأرض ، جزيرة « برافا » Brava . ودار « جربو » حسمول جزر « سان انطونيو » St. Antonio « وسان فنسان » St. Vincent . وكانت لطومات الرياح تطيح بالفاير كرست فترقده على جنبه . وكانت المياه تدخل من فتحات السفينة فتتلف كل ما أتت عليه .

ولما كان « جربو » قريبا من اليابسة ، فانه لم يترك الدفة لحظة واحدة لردامة الجو .

وفي ٩ يوليو ، هدأت الرياح قليلا ، فسار بسفيفته على حذر بين جزر « سان فنسان » و « سان انطونيو » . ولما استيقن أنه في مأمن من غضب الطبيعة وهو بجوار الساحل ، أراد أن يستريح قليلا ، فنام ثلاث ساعات ، استيقظ بعدها فزعا على رجة قوية . ويقول « جربو » : « علمت من هذه الرجة إن السفينة تصادمت مع صخرة من صخور المرجان المتناثرة بجوار سواحل جزيرة « سان انطونيو » ، وما هي إلا ثوان حتى مال « الفاير كرست » على جنبه ، وكاد رأس الصاري يمس الصخور من شدة ميله ، وكان في استطاعتي أن أقفز

إلى الأرض دون أن أبتل ! أما هذا الصدام فإنه لم ينتج عن خطأ في القيادة ، وإنما يرجع إلى إني استسلمت للمكرى وأنا قريب من اليابسة ، لذا يجب على أن أرضى بما أصابني . ثم عُدت أسوس الدقة بين أرخبيل « تواموتو » Tuamotou الخطرة وخليج توريس Torres وكم كنت محذرا لاخطر اري إلى الركون إلى هذا الخليج ! . ولكنني القضاء والقدر . وكان حتما على أن أقبل ما لا بد منه ، كما كنت أنوقع ، في نفس الوقت ، ضياع السفينة لو هبت أقل ريح شديدة »

وانتصف الليل وابتدأت مياه البحر تتراجع واستهدف « الفايكرست » طيلة الليل ، رغم هذا الجزر ، العظمت الأمواج ، ولكن دون أن تؤثر في سيره أو تتلف منه شيئا حتى ظن « جربو » أن حظه السعيد عاد اليه ليرافقه هذه الليلة على الأقل . وعندما تنفّس الصبح ، وأرسلت ذكاه خيوط شعرها الذهبي على صفحة البحر الزرقاء ، قفز « جربو » من سفينته ليتسلق في خفته المعهودة صخرة من بين الصخور . وجال من فوقها ببصره الحاد حول هذه البقعة ، فرأى قفرا خفيفا في سكونه لا تدب فيه أي حياة تقريبا ، ورأى على مدى البصر أكواخا ، فترك السفينة راسية ، ثم علق راية في أعلى المجذاف بعد أن ثبته على الساحل ، ليلفت به نظر سكان هذه الجزيرة القاحلة ، ثم اتجه بعد ذلك إلى تلك الأكواخ ، عسى أن يمد له أصحابها يد

المساعدة التي يرتجىها . ولنتراكت « جربو » يكمل حديثه : « كانت طبيعة الأرض وعرة جداً لما فيها من مضبات وأكبات كثيرة متناثرة ، وكنت اجتاز طريق بين كثبان الرمال ، تحت أشعة شمس محرقة ، فكنت تارة أعبدو ، وطورا أمشي الهوينيا ، حتى وصلت إلى القرية المنشودة . »

وبعد محادثات طويلة وبطيئة ، كاد يفرغ أثناءها صبر « جربو » استطاع أن يتصل « تليفونيا » بعاصمة هذه الجزيرة في الساحل المقابل له . وشرح للسلطات المختصة هناك ما آل إليه وإلى سفينته . ولم تمض ساعة حتى جاء رجال الشرطي ليحرر سوا « الفاير كرسست » ويحكموها من فضول الجمهور الذي هب إلى هذه السفينة . وعندما اطمأن البحار الفرنسي على مركبه ، ركب زورقا وذهب إلى « بورتو جرندي » ، Porto Grande حيث وصل إليها بعد أربع ساعات ، ووجد في هذه الميناء ، الباخرة البورتغالية « انفانتدون هنريك » . فصحدها إليها وطلب من قومندانها أن يعينه على تصليح « الفاير كرسست » وبعد ساعة كانت سفينة « جربو » — بفضل معاونة البحارة البورتغاليين — صالحة نوعاً ما لتكملة سيرها . ولقد قامت تمخر عباب اليم قاصدة « بورتو جراندي » بصعوبة مألوفة لأن المياه كانت تتدفق إلى داخلها من ثقب طويل يبعد عن مسطح الماء ببضع

سنتي مترات . فامدته الباخرة البور تغالية بمضخة كبيرة كانت
تمتص أول بأول المياه التي تنسرب من هذا الشق إلى الداخل .
ووصل جربو « بالفاير كرسست » إلى « بور تو جراندى »
« بعد جهد متواصل » .

وهناك ترك السفينة في حوض التصليح البحرى لترميمها
وعلم أن تصليحها سيتطلب فترة من الزمن تزيد على بضعة
أشهر .

ويقول « جربو » في هذا الصدد : لقد فات أوان وصولي
إلى فرنسا قبل الشتاء كما كنت أود من صميم فؤادى ، لذلك
استقر رأي على البقاء فى « الكاب فير » طيلة فصل البرد حتى
استطيع تكملة مؤلفى هذا . . . ثم استطرد يقول :

« لا شك أن هذه الفكرة فيها شيء من الحكمة والفلسفة
ولكن هل شعورى هو الذى دفعنى إلى هذا ؟ إذا أردت
تمحيص ما ينحول بنفسى ، فأنى اعتقد أن شعورى ليس له أى
دخل فى بقائى فى هذه الجزيرة . ولكن الذى دفعنى إلى
الاقامة هنا ، هو مجرد التفكير فى أن سياحتى اقتربت من
نهايتها ، وإن « الفاير كرسست » سيصبح عاطلا ، كالجندي الذى
يلقى سلاحه بعد ساعة الوغى وكسب المعركة . وكما كنت أود
أن أخاطر بنفسى ، واركب الصمصام بقلب ملؤه الشبات
والشجاعة ، لأزور بعض جزر « المدارات » ، لا لأن التى بعضا

السيار في فرنسا، حيث سأجد فيا من حرارة استقبال مواطني لي، ما يهوق حريقي وينال منها :

لقد نشأت صداقة متينة بين « جريبو » وأهل « بورتو جراندي » حتى كانوا يتسابقون في إرضائه وجعل مقامه بينهم محفوفاً بأنواع التوسلية والسرور . ورغم طلب استقائه منه المسكن بينهم بتمية العمر ، فإنه — وهو المتشبع بحب البحار والانفراد في أسفاره — رفض هذه الدعوة بلطف ، لأنه كره في الحقيقة سكنها الأرض . ومن وصفه بهذه القيمة قوله : « رغم هذا الجو الذي لا يكدر صفوه سحب ، ورغم أن العين لا تقع إلا على تربة صماء وصخور جامودية ، لا يرى المرء فيها آثاراً للخضرة ، فقد أثرت البحر عليها . وعندما يتساقى أحد الأهالي على الساحل ، ينطبع خياله على رؤوس الجبال في حجم العاقلة وربما كان يرجع ذلك إلى انعدام النبات في أصل هذه الجبال . »

« وكانت تمتد بالقرب مني ، مدينة « ميندلو » Mindelo بارصفتها التي تقصدها الصنادل دون انقطاع ، لتزود بكميات الفحم اللازمة لها من المخازن الكبيرة التابعة للشركات الانجليزية . إنها بلا شك مدينة الفحم . وكانت هذه الصنادل الراسية حول « الفاير كرسست » تفتظر قدوم البواخر ، المتجهة نحو « السكاب فير » لتزودها بالفحم اللازم لها ^(١) .

(١) « السكاب فير » في المحيط الأطلنطي غرب السنغال وهو تحت انتداب البرتغال .

« كان الفحيم في كل مكان ، على رصيف الميناء وعلى الساحل ، حتى أن بعض الزنوج كان يخطس في الماء ليخرج منه قطع الفحيم التي تسكون قد سقطت من البواخر عند تعبثتها . »

واشماز « جربو » من هذه الأكوام الحارقة في سوادها وقد أحاطت به من كل جانب ، حتى أنه تسلى في وضع كتاب عن رحلاته ، ويقول في هذا الصدد : « أقمت في هذه المدينة لأدوين مذكراتي في كتاب ، ولكن المهمة كانت تنقصني كما كانت العزيمة تعوزني . ولقد اخشوشنت راحتي من كثرة الملاحاة ، حتى أني عندما أمسكت القلم ، كتبت خطأ رديئاً . وكنت متضجراً لذلك ، كما أسفت على الحرية التي تعودتها في البحار . ولا أنكر أني كنت ألعب . من وقت لآخر ، التمس في ملعب « شركة الكابل الانجليزية » ولكن لم تدخل هذه التسليات سروراً إلى نفسي . »

كان خليقاً « جربو » أن يتسلل إلى نفسه السأم لطول تفكيره في العودة . . . فكان يلعب وفكره متجه إلى غير اللعب ، مما جعله لا يشعر بطعم هذه التسلية ، اللهم إلا ما استفادته عضلاته من مرونة من كثرة الحركة .

وفي أواخر أكتوبر ، رست الباخرة المدرسة « ادجار كينييه » (Edgard Quinet) التابعة للبحرية الفرنسية ، في ميناء

« بورتو جرندى » (Porto Grande) وأرسل قومندانها إلى « جربو » دعوة يرجوه فيها تشریفه بالحضور ، وإلقاء محاضرة على التلاميذ البحريين عن سياحته الجبارة . فقبل هذه الدعوة رغم كرهه للخطابة في الجموع ، لا سيما إذا كان الغرض منها التكلم عن مغامراته . ومع كل ، فما ابتدأ في سرد حوادثه ، حتى ساد السكون بين المستمعين ، بين بحارة المستقبل . ويقول جربو : « وسررت كثيراً من شدة حرصهم على الإصغاء لحدثي . وما كان منهم ، بعد انتهاء محاضرتي ، إلا أن قاموا وأحضروا ملابس دافئة ، سديّة منهم إلى » ، واعترفوا منهم بحملي . ولما كنت أكره بطبيعتي المساعدة ، فقد رفضت بلطف معاوتتهم ، وقبلت هداياهم بكل سرور ، ليقيني بأنها جاءت من قلوب سليمة ونيات طاهرة .

وأدبرت سنة ١٩٢٧ بشتائها . وأقبل الربيع بفتنته . وكان « الفايكرست » قد تم ترميمه وتصليحه وطلاؤه ، حتى أصبح يلعب تحت أشعة الشمس ، لمعان قطعة النقود الجديدة .

وفسّر « جربو » في العودة إلى فرنسا . وانتابته نوبة سام وملل ، لأنه رأى في استقاراره في وطنه ، إيذاناً بانتهام جولاته البحرية الفريدة .

وفي يوم ٦ مايو . ركب « جربو » السفينة ورفع
أشرعتها على مشهد من الوفود المحتشدة لتوديعه ، فانطلقت
به من « الكاب فير » إلى عرض البحر حيث داعبها النسيم
الليليل برفق . ومرت بها الأيام وهي تتهادى على صفحة البحر
بين الجزر المتناثرة في طريقها . . وتردد « جربو » في العودة .
العودة ! . . كم من معان تضمنتها هذه الكلمة « الجربو » !
رأى فيها الذلة التي تفرضها عليه المدنية الخلابية بهيبتها
الزائفة ، رأى تنسكير أهلها المحدود . فكيف يرضى بالأوبة
وما ينتظره منها ، وهو الرجل الذي تعود القول الصريح
والحرية المطلقة .

إن أبهة الشهرة كانت في انتظاره أيضاً ، ولكنها كانت
آخر شيء يفكر فيه ، حيث كان يرى فيها عوامل أخرى
يتضايق منها . . فلا بد له من مقابلة وفود المهنيين ، والمشول
بين يدي من سيضع على صدره شارة الفخار . ولا مناص
له من سرد مقامراته للصحفيين الذين سيرمونه بوابل من
الأسئلة ، كما أن هناك وفد الفضوليين وأسئلتهم التي تبتدىء
« بماذا ، و » كيف ، ثم يأتي دور تدوين امضائه لآلاف من
تعودوا الاحتفاظ بامضاءات مشاهير الرجال . وهيئات أن
يفلت من أقواس الشفاء المصبوغة ، وما وراءها من أحلام
بائسة ! لا شك أن محي الذكريات من الجنسين سينجحونه .

فمن طالب قطعة من قميصه ، إلى مستبشر بنيل زر مستترته ،
إلى متفائل بأخذ قطعة من حبل سفينته ، إلى غيرهم . . .
ثم لا بد له أن يستسلم ، للظهور في الحفلات ، لرباط الرقبة ،
ولأسر البدلة والحذاء ، بينما لم يخلق هذا البحار الفذ ، ليسجن
جسده في البيوت والدور ، وتشغل حركة أعضائه بالملابس
الرسمية .

وطأ طأ «جربو» رأسه ، بعد أن خامرته هذه العوامل
وهو واقف يسوس الدفة نعم مهما حاول أن يستتر
عن الناس ، فلن يفاج ، كما لن يفهمه الناس على حقيقته . لقد
علم «جربو» أنه لن يتذوق — بعد دخوله أرض الوطن —
لذة الهدوء التي لا يقدر قيمتها ، إلا ذلك الذي عرفها في وحدته
بين أديم السماء وصفحة الماء . واتصل حبل أفكاره بعظمة
ذلك السائل الخضم ، وشرذ فكره بين الأحلام والأمانى .
وعقد النية على بناء سفينة جديدة ^(١) أصغر من

(١) عندما وصل إلى فرنسا، صنع سفينة أخرى أصغر من «الفاير كرسيت»
وأطلق عليها اسم «الآن جربو» . وفي سنة ١٩٣١ ركب البحر بمفرده
كمعادته وساح مدة طويلة في المحيط الهادى . وأقام بعض الوقت في جزيرة
«بورا بورا» ، وفي سنة ١٩٣٩ وصل إلى «تاهيتى» ، واندلعت نيران الحرب
العالمية أثناءها ، فانطلق قافلا إلى فرنسا لينتظم في سلك الجندية . وعندما
وصل إلى «غينيا الجديدة» سمع أن فرنسا عقدت الهدنة مع ألمانيا . ثم
قامت عاصفة شديدة جعلته يبح إلى «ديلي DILI» «بجزيرة تيمور TIMOR» =

« الفايكرست » لكنها أسرع منه وأسلم في القيادة ،
 ليتخذها في رحلاته المقبلة بدل سفينته التي عرقتها الأيام
 ونالت منها الأعاصير حتى أصبحت تستحق الراحة من
 عناء التجوال .

وألقي بنظره وهو واقف على الدفة على سفينته وهي
 تشق الماء شقا قويا في طريقها إلى العودة . . . ووسوس إليه
 شيطان البحر بأن يعدل عن هذا الطريق ، ويقصد غيره ،
 فلا تزال معه مؤنة تكفيه ثلاثة أشهر مقبلة . وكاد يغلبه
 الشيطان ، وفكر « نهاية » في الاتجاه نحو جزر « بورا بورا »
 ليقضى بقية حياته بين أناس يعيشون في بساطة الفكرة ،
 يرتدون القش ويزينون رؤسهم بتيجان من الزهور ! لكن
 الرياح كانت تدفع أشعة السفينة ، تخيل إليه أنها مسوقة بيد
 القدر ، نحو فرنسا .

وشاهد « جربو » وهو على الدفة ، النجم القطبي وهو
 يرتفع في أبراجه . ثم دخل بسفينته في الطريق البحري الذي
 اعتادت البواخر المرور فيه . وكان ركابها يهتفون له ، فيرد
 عليهم شاكرًا لهم هذا الجاس .

وفي يوم ١٦ يوايو ، اقتربت منه الباخرة « ميشيجان »

== حتى وافاه القضاء المحتوم في ١٦ ديسمبر سنة ١٩٤٠ ، في نفس الوقت الذي
 قام اليابانيون فيه بهرب جزيرة تيمور بقنابلهم .

Michigan ودار الحديث بينه وبين رجالها . فانتهر هذه الفرصة وطلب منهم أن يرسلوا برقيات لاسلكية إلى أصدقائه في فرنسا .

وقدموا له مؤونة فرفضها بلهاقته المعهودة ، مكثفيا بقبول بعض جرائد . ويفسر لنا جربو سر هذه الصحف قائلا : « وتصفححت الجرائد على أمل وجود ذكر لمباراة التنس التي لعب فيها « بوروترا » Borotra و« دي لا كوست » De la Coste وهي المباراة الختامية لبطولة فرنسا في هذه اللعبة . ولا أكون مبالغ إذا جازمت بأن الوقت الذي قضاه « جربو » في تصفح هذه الجرائد بلهنة ، كان فيه آخر نفقة من نفقات السرور التي مست قلبه في طريق العودة .

وفي يوم ٢٠ يوليو ، دخل بحر المانش شاقاً طريقه وسطاً بين شاطئ فرنسا وانجلترا . واضطر أن يتقف في البحر يومين كاملين ، من جراء الضباب الشديد الذي حال دون تقدمه .

وفي صباح ٢٥ يونيو ، انقشع هذا الضباب ، فتابع « جربو » سيره ورام الطراد الحربي « مابهوس » Mulhouse وعرف نفسه إلى أحد ضباطه ، راجياً منه التفضل بإرسال برقية لاسلكية إلى صديقه « بير دي باسكويه » Pierre du

(١) هما صديقان جيمان « جربو » .

Pasquier في « الهافر » Havre يعلمه فيها قدومه إلى فرنسا سالماً .

وما زال يتهاذى بسفينته حتى وصل إلى فنار وسيمافور ، بارفلور « Barleur فأرسل الإشارة الخاصة « بالفاير كرسست » ، إلا أن الرياح هبت على حين غرة ، فهاجت منها الأمواج وتدفقت تاظم جوانب السفينة بعنف ، مما أجهد كثيراً « جربو » الذي لم يذق طعم النوم ثلاث ليال سوياً .

وفي يوم ٢٦ يوليو ، هب إلى استقباله ، حوالى الساعة الحادية عشر صباحاً ، الرفاص « لادروا » L' Adroit والباخرة « بيوت » Pilote ، وقد أرسلتهما الأدميرالية البحرية الفرنسية لمقابله على أثر تسلمها برقية الطراد « ملبوس » . فقابلاً النابير كرسست وجذباه رويدا رويدا إلى ميناء « الهافر » .

كانت أرض الوطن مترامية أمامه . فقبض « جربو » أشرفه إليه . وسارعت إلى لقائه المراكب الخفيفة وقد اكتظت بالناس . أما على رصيف ميناء « الهافر » ، فقد تسكدت الجماهير بشكل يصعب على القلم وصفه .

وجامت إليه نبرات الأصوات وهي تهتف عالياً « يحيا جربو » ، فاهتز لها نياط قلبه طرباً ، واقترب من وطنه ، من بلده ، من شعبه الذي بلغ به الحماس حداً كبيراً ورسا الفاير كرسست ..

رساء الفايكرست ، بعد أن قضى في البطار يحويها
سبعةائة يوم ، قطع خلالها أكثر من أربعين ألفاً من الأميال ،
كانت الأعاصير تصارعه خلالها تارة ، وطوراً يصارعها .

ونزل «جربو» من السفينة إلى الرصيف بلباسه الأبيض
وسترته الزرقاء ، ثم ضم كعبيه إلى بعضهما ، ورفع يده
بالتحية لممثلي البحرية الفرنسية الذين جاءوا لاستقباله . .

وهكذا خلد «جربو» اسمه ، بروحه القوية ، في تاريخ
البحرية العالمية .

الطراد امدن

مقدمة

كانت ألمانيا تمتلك في سنة ١٩١٤ ، عددا مستعمراتها الأفريقية الهامة ، بعض الجزر المتناثرة بين أرخبيلات المحيط الهادى وأسطولا بحرياً فى «تسينج تاو» Tsing-Tao على الساحل الصينى من الشرق الأقصى .

ولقد أنشأت ألمانيا بفضل جهودها الجبارة ، فى مدى ربع قرن ، أسطولا عظيما ، قسمته إلى عدة وحدات بحرية هى : وحدة الشمال أو بحر البلطيق ، ووحدة الاطلنطى ، ووحدة الشرق الأقصى .

وإذا كان تجوال البواخر الألمانية الحربية فى الشرق الأقصى أو فى غيره من المناطق يعد شئنا طبيعياً ، فلم يكن القصد من إرسال وحدات ثقيلة وخفيفة من الطرادات والمدمرات فى أوائل ربيع سنة ١٩١٤ إليها ، التمرين أو التنزه أو حماية تلك الجزر النائية فى الجزء الثانى من الكرة الأرضية وإنما كان القصد منها شئنا غير ذلك شئنا سرياً !

ولا بد أن يكون الألمان قد درسوا هذا القصد دراسة عميقة طويلة قبل هذا التاريخ وعلى قدر إخفائهم لسرية هذا القصد ، بما كانت تقصده ألمانيا من نسج التمويه ، أو إذا

أرادت ، بانكارها استعدادها لحرب ممثلة ١٩١٤ كما تدعى ،
فما بال تلك المعدات العظيمة وتسابقها في التسليح لآسيا
بكثرة الغواصات التي بثتها في المحيط الهادى وفي كل بحر من
بحار المعمورة ؟

وعلى كل ، فإن طرادات ومدمرات وحدة الشرق الأقصى
الموضوعة تحت إمرة السكونت «فون شبي» منذ سنة ١٩١٢ ،
كانت تجوب البحار شرقا وغربا ، شمالا وجنوبا ، ونخص
بالذكر منها :

« شارنهورست » ، « نياسناو » ، « درسدن » ، « ليبزنيخ » ،
« كارشروه » ، « كونيغز برج » ، « والامدن » (١) .

كانت جميع هذه الوحدات تامة التسليح . وعندما اغتيل
ارشيدوق النمسا في شهر يونيو ١٩١٤ ، واندلعت نيران
الحرب في أوروبا ، تجمعت هذه الوحدات في ملح البصر .
واختلفت بطريقة جهنمية وراحت ترعب الحلفاء الذين كانوا
يطلقون عليها اسم « الأسطول التائه » أو « الباخرة الغامضة » .
وكانت وحدات هذا الأسطول جبارة في هجومها . ألم يغرق
« فون شبي » في « كورونيل » الأسطول الإنجليزى الذى كان
تحت إمرة « كريستوفر كرادوك » Christopher Cradock

كما راح الأسطول الخليف يرد السكيل بالسكيل ، فانغرق
« شتوردي » Sturdee في « فلكلاند » Folkland وكذلك
الأسطول الألماني في الشرق الأقصى بما فيه « فون شبي » نفسه .
وإن كنت لا أستطيع سرد مخامرات هذا الأسطول ،
إلا أني أرى من واجبي أن أنوه هنا بأشهر طراد ألماني
نشر الرعب حيناً في البحار ، أعني « الأمدن » أحد وحدات
أسطول « فون شبي » .

استقل « الأمدن » في غدواته وروحاته عن بقية
الأسطول فنال إعجاب أعدائه جميعاً من جرام ما قام به من
أعمال لا يكاد العقل يتصورها ، تذكرنا بقصص « سر كوف »
و « سوفرون » و « رويتر » ، و « بربروس » و « الحاج علي »
و « ناسون » . ومع كل فقد فاقته مخامراته كل ما جاء عن
هؤلاء من غرائب الأعمال .

لذلك ، لا يسمعنا إلا صرف النظر عن جنسية ركب
الأمدن أولئك البحارة الأجداد وعلى رأسهم قائدهم الفذ ،
وننحني إعجاباً بشجاعته واحتراماً لنفوسهم الكبيرة التي
وهبها لمجد الوطن .

الطراد امدن

هل شهر يونيو من سنة ١٩١٤ . . .

وكان « الأمدن » Emden ، ذلك الطراد الحربي الذي أخرجته المصانع الألمانية سنة ١٩١١ ، إحدى وحدات اسطول « الشرق الأقصى » الألماني التابع للأميرال السكونت « فون شبي » Von Spee ، يحمل فوق ظهره بطارية قوية ، وقاذفة طوربيد ، ومدافع بعيدة المدى ، وأبراج ضخمة ، وكان هيكله الضخم ، يوحى إلى القوة والعظمة . قبع هذا الطراد الخفيف في مياه « تسنج تاو » Tsing-tao الهادئة ، إحدى المستعمرات الصينية التابعة للإمبراطورية الألمانية . اتخذ « الأمدن » أهبطه لمخادرة هذه المياه الصينية ، متجها نحو « شانجهاى » Shanghai ليجنح بعدها إلى « يانج تسى كيانج »^(١) Yang-Tsé-Kiang ، ليستريح فيها بضعة أسابيع قبل رحلته الطويلة .

لذلك لم يمانع قائده في ترك بحارته يتمتعون بأنواع التسلية واللهو .

كان السواد الأكبر من البحارة ينتمون إلى العائلات

(١) أحد الأنهر الثلاثة الصالحة للملاحة في الصين .

الكبيرة والأسر النبيلة ، ونخص بالذكر من بينهم ، الملازم
في المدفعية ، الأمير « دى هوهنزولرن سييجارينجن »^(١) .

De Hohenzolern-Sigmaringen

وكانت ميوله لا تتعدى ميول زملائه في حب اللهو والمرح .
وكانت مستعمرة « تسنيج تاو » تساعدكم على تحقيق ميولهم
هذه بما حوت من فنون التسلية : فمن رياض غنام ، إلى حدائق
فيحاء ، ومن أندية للتنس ، إلى سباق الزوارق ، ومن
حانات للمشروبات الروحية ، إلى مغازلات ربات الحسن
والجمال . ويقول الأمير في ذلك : وكثيراً ما كنا نشترك
لإقامة حفلات ساهرة جمعت أنواع الملاذ ، فوق ظهر
الطراد ، وكان فصل الصيف يكسوها رونقا خاصا وصبغة
فريدة .

ولم يك في حسابان أولئك البحارة ، أن الحرب ستقوم
في ذلك اليوم المشؤوم ، يوم ٢٩ يونيو سنة ١٩١٤ ، عندما

(١) هو فرانسوا جوزيف دى هوهنزولرن سييجارينجن ابن عم الملك
فرديناند ملك رومانيا . وتربطه صلة قرابة بالامبراطور غليوم الثاني .
وكان يدين بمذهب الكاثوليكية كبقية أفراد أسرة هوهنزولرن . ولقد
ترك مؤلفاً مؤثراً عن المواقع التي خاضها هذا الطراد وعن نهايته الحزنة .
ولقد ظل هذا الأمير أسيراً مع من نجوا من كارثة الطراد « امدن » في
جزيرة « مالطة » خمس سنين ، من سنة ١٩١٤ — ١٩١٩ . ثم عاد إلى
ألمانيا في أوائل سنة ١٩١٩ بفضل تدخل البابا في أمر الافراج عنه .

واقفتهم الأنباء في « تسنج تاو » ، عن مقتل الأرشيدوق « فرنسوا فرديناند » François - Ferdinand وريث عرش النمهورية النمساوية المجرية وزوجته في « ساراجيفو » Sarajevo . وقد كان لمقتلهما وقعاً سيئاً في ميدان السياسة العالمية ، حيث أشعلت نيران الحرب العالمية الأولى من جراء هذا القتل الشنيع . ويقول الملازم « دي هو هنزولرن » « ولن يدر بخلد أحدنا أن دم الأرشيدوق وعقيلته ، سيجر الدمار بين دول أوروبا جميعاً ^(١) ولكن القيصصر فكر في ذلك وانطلقت المانيا متحفزة للأخذ بثأر هذه الدماء المسفوكة .. وكانت الحرب العالمية الضروس .. »

تغير كل شيء في يوم وليلة . وقام قائد الطراد ينادى بحارته . وانتهت الحفلات ، وانتهت السهرات ، وانتهى احتساء الخمر ، وانتهت مداعبة بنات حواء . إنها لساعة رهيبة . . . لقد صدرت الأوامر السرية إلى « فون مولر » Von Muller قائد الطراد « آمدن » ، لذلك قام يحشر رجاله ليلقي عليهم أوامره بدوره . واستعد الطراد لخوض الحرب . ثم أصدر « فون مولر » أوامره إلى جميع البواخر

(١) الأمدن ، تأليف دي هو هنزولرن ص ٩ .

التجارية الألمانية المنبثقة في عرض نهر « تسنيج تاو » بالاجتماع في الميناء .

واستولى الطراد « امدين » على ١٠,٠٠٠ طن من الفحم المتكدس بكميات هائلة في مخازن « تسنيج تاو » لتوزيعها على مختلف البواخر التي جاءت إلى ميناء « تسنيج تاو » تلبية للإشارة المرسل إليها، لتنقلب، بعد تعديلات فنية ، إلى بواخر حربية ، من شأنها مساعدة أسطول « فون شبي » الراسي في مكان ما . وهذا المكان المجهول ، كان معروفًا فقط من « فون مولر » الذي هب للذهاب إليه مسرعاً .

وأمر « مولر » بالاستغناء عن كل ما هو قابل للحريق ، من جميع البواخر ، حتى لا تصبح قوتنا للنار إذا ما شبت في إحداها . وهكذا تركت في الميناء الأبسطة الفاخرة ، والستائر النفيسة ، والأثاثات الخشبية النادرة .

ويقول هو هنزولرن في ذلك : وإذا فكر المرء في ما يجده عادة فوق ظهر طراد من شأنه جوب آفاق البحار ، لعلم المصاعب التي تنجم عن مثل هذا الأمر .. ولقد استبدلت الرياش بالحديد والصلب ، حتى أصبحت غرف البحارة بعد نزع ما كان فيها من هذه التحف الخشبية والمنسوجات الثمينة أشبه بزنزانة السجن .

انطلق « فون مولر » في يوم ٣١ يوليو ، من « تسنيج تاو »

حتى لا يتعرض لحصار قوات العدو التي قامت تتجسس بالقرب منه . ويقول الملازم « دى هو هنزولين » : « وفي نفس هذه اللحظة ، قامت قوات العدو متجهة في طريقنا ،^(١) فلو أننا تأخرنا بعض الوقت لاستهدفنا لما ينزعجنا . »

وفعلا كان الأسطول الانجليزى يشق طريقه شطر « هونج كونج » Hong-Kong ، كما اندفع الطرادان المصنفان الفرنسيان « مونكالم » Montcalm و « دوبريكس » Dupleix تصحبهما بعض الطرادات المضادة للطوربيد ، لتجسس خلال البحار بين « فلاديفوستوك » Vladivostock واليابان وبديهي أن يتحاشى « فون مولر » مواجهة هذه الوحدات حيث يعلم أن هناك واجبا وطنيا يناديه قبل بدء المعارك . لذلك أسرع في اتجاهه بعباده ونسافته نحو الجنوب . وظل دائم الاتصال باللاسلكى « بتسنج تاو » ليقف على الحالة السياسية الدولية .

وفي يوم ٣ أغسطس جاءه البرق يحمل اليه خبر اندلاع الحرب بين ألمانيا وروسيا . مع إظهاره العداوة لفرنسا . اتجه « فون مولر » فوراً نحو الشمال مخترقا الطريق التجارى الذى اعتمد أن يؤممه الأسطول التجارى الروسى ، بين

(١) كتاب الأمدن ص ٢٠ .

« ناجازاكي » Nagasaki وفلا ديفوستوك « ، للاستيلاء على
البضائع الروسية .

وجاء اليه البرق مرة أخرى يبشره بأن الطرادين الفرنسيين
« مونكالم » و « ديبلكس » قد حولاً طريقتهما ، فتربص
« فون مولر » أمام مضيق « تسوشىما » Tsou-Shima ، ولم
يلبث إلا قليلاً حتى ظهرت له الباخرة الروسية « رىازان »
Riasan التى أسرعت هاربة إلى المياه اليابانية^(١) . عندما بهرت
بالطراد الألماني ، ولا يخفى على القارىء أن اليابان كانت فى
ذلك الوقت على الحياد ، أما « فون مولر » فانه أسرع فى أثرها
حتى أدركها ، وأرسل اليها إشارة التسليم الاجبارى . . .
وأوقفت الباخرة محركاتها ، واقترب منها « الامدن » فى
خيلائه وأمر بحارتيها بالنزول إلى الطراد ، فانصاعوا لهذا
الأمر بكل أدب ونظام . . . وأخذوا أسرى ! وهنا ، اتى
« فون مولر » بنظرة خبيرة إلى الباخرة الأسيرة ، فرأى
صلاحيتها لتكون طراداً مساعداً ، لصلاية هيكلها وسرعة
سيرها . فأرسل أحد ضباطه ليقود « الرىازان » على أثر
« الامدن » وهو متجه شطر « تسنچ تاو »

ويقول « دى هو هنزولرن » فى ذلك : واتصلنا بالبرق

(١) لم تكن اليابان قد دخلت الحرب مع ألمانيا بعد .

«تسنيج تاو» نسأل عن ظهور العدو في هذه البقعة ، فجاءنا الرد بالنفي .

وهكذا دخل «الامدن» بفريسته الأولى إلى «تسنيج تاو» بكل هدوء في يوم ٥ أغسطس سنة ١٩١٤ .

واضطر «الامدن» وهو في مرساه ، أن يتزود بـ ٩٥٠ طننا من الفحم ، استعداداً للمستقبل الغامض . وقام المأجورون من الصينيين بشحن هذه الكمية الوفيرة من الوقود دون توقف . وطالب «فون مولر» الإستعانة ببعض بحارة من سفن «اللويذ الألمانية» Lloyd و«همبورج أمريكا» Hamthourg America line بعد أن أخفى جنسية هذه البواخر حتى ليخيل للناظر إليها أنها سفن تابعة لشركة «بلوفونل لايفر» Blue Funnel liner أو «بنسل انداورينت» P. & O. (١)

ولما كان الألمان أبرع شعوب الأرض قاطبة في هذا النوع من التمويه والخداع في الحروب ، فقد أدهشوا أعداءهم كثيراً طيلة الحرب بمثل هذه المفاجآت .

ولم يقف نشاط الألمان عند هذا الحد . بل سارعوا إلى بث الألغام في مياه «تسنيج تاو» وتكدست السفن الألمانية على اختلاف أنواعها وأحجامها في الميناء ، استعداداً لخوض المعارك البحرية عند أول إشارة .

(١) هي شركة Peninsul & Orient الإنجليزية .

وربما يتساءل الإنسان : إلى أين تذهب هذه المدمرات ؟
والجواب أنها ذاهبة للحاق بأسطول الأميرال « فون شبي »
الرابض في خليج جزر « ماريان » Mariannes^(١)
ولسكن لنعد إلى « الامدن » أنه تجمر بأجهزة الحرب
وعدتها . وكان نشاط البحارة فيه مبهوساً محسوساً . وجاء
راهب « كاثوليكي » ليبارك الضباط ورجال الطراد ويقوى
من عزيمتهم ، كما حضر قسيس « بروتستنتي » للبحارة الذين
يدينون بهذا المذهب . كان أولئك الأبطال في غير حاجة
إلى تقوية عزائمهم وإنما هي العادة في مثل هذه الظروف
التي تقضى بمجيء رجل الدين قبل الدخول في مساحة الوغى .
وكم من بطل من أولئك سيحرم من حنان أم عجوز ، أو حبيب
والد كهل ، أو حب عروس لم تنأ بزفافها ! إنها الحرب . .
وتحركت آلات « الامدن » وعلا صوتها الرهيب ،
وتبعته السفينة « برنس ايتل فريدريك » Prince Eitel Fredrick
عن كشب ، وقد تزودت بسلاح الطرادات لتكون له عوناً
في مناوراتها .

لم يتقابل الركب الألماني إلا بالبوأخر اليابانية ، فكانوا
يتبادلون التحية العسكرية . . . ثم أمسى البحر ، بعد مرور
هذه السفن اليابانية ، خالياً الأديم ، ظاهر الأفق . واعتدل

الجو ، فاتهمر « الامدن » بحو الطبيعة ليمرن بحارة السفينة
« برنس ايتل » على الرماية صوب هدف عائم أعد لذلك
خصيصاً .

وكما اقرب « فون مولر » بضعة أميال من جزر
« ماريان » أرسل برقية إلى « فون شي » يستفسر منه عن
الحالة . فكان يصله هذا الرد الموجز : « لا ترسلنى بالاشارات
اللاسلكية . ففهم « فون مولر » المقصد من هذه الجملة التي
قلت فدللت ، وأسرع في سيره .

وفي يوم ١٢ أغسطس ، شاهد قم جبال جزر « ماريان »
الحالية تقريبا من السكان . ورأى السفينة « تيتانيا » Titania
رسول الاسطول الالمانى فيها — رابضة في عرض خليج
« باجان » Pagan وعرفت « تيتانيا » المدمرة « امدن » فسارعت
إلى استقبالها بعد أن أعطتها إشارة خاصة . ثم قامت تسحبها
إلى أن أوصلتها إلى بقية قطع الأسطول الالمانى التي اتخذت من
خليج « باجان » « ماوى لها » ويقول « هو هتزلرن » في ذلك
« وكانت جميع هذه القطع منهمكة في الاستزادة من مقادير
الفتح . وعندما رسا « الامدن » صدرت الاوامر إلى قائده
بالحضور إلى السفينة « شارنهورست » Sharnhorst سفينة
الاميرال « فون شي » . قلب « فون » مولر نداء رئيسه ووجد
قواد وحدات الاسطول مجتمعين في مجلس استشارى حربى »

ظل هذا المجلس منهقداً بضعة أيام ، اتفق خلالها على الخطط التي يجب اتخاذها حيال العدو . وكان «فون شبي» رغم هدوئه المعتاد ، على شيء من التوتر الاعصاب لسوام فكره في الاسطولين الإنجليزي والفرنسي . أنها مهمة ثقيلة تلك التي ألقيت على عاتقه لمراجعة الأعداء المنتهالين ضد بلده وضد وطنه كما كان يخشى «فون شبي» أن يتحالف الاسطول الياباني مع العدو ، وكان أسطول اليابان قويا في ذلك الوقت . . . كانت هذه الافكار تجول بخلد الاميرال الالماني أثناء الاجتماع حتى أنه أعد عدته على أساس دخول الحرب بنسبة واحد ضد عشرة !

وكان الرأي السائد في هذه الجلسات ، القيام فوراً بحرب خاطفة لأرباك وحدات العدو وإدخال الرعب في قلبه وإرسال طرادين في المحيط الهندي ، لاصطياد السفن التجارية وقطع الطريق البحري التجاري فيه ، توطئة لشمل حركة العدو الاقتصادية .

وفسكرو «فون شبي» طويلاً في هذا ، ثم صمم على أن يغادر الاسطول جميعه في ١٨ أغسطس جزر «ماريان» . . . ولسكن إلى أين ؟ ظل ذلك سر القائد الأعلى «فون شبي» . اتجه الاميرال الالماني الفذ في مقدمة أسطوله ، مخترقاً

طريقته قبل المشرق. ويحدثنا الملازم البحري «هوهنزولرن»^(١) عما دار بينه وبين زملائه ، بحارة الامدن ، عندما رأوا الركب ينحرف إلى الجهة الشرقية : « ظننا أن الاسطول متجه نحو السواحل الغربية الامريكية . وكنا على حق حيث كننا نعلم أن العدو يتبادل تجارته بين أمريكا الشمالية وأستراليا بكل نشاط . كما فكرنا لحظة في الذهاب إلى «الكاب هورن» Cap-Horn ، كما عللنا النفس بالأمل ، أمل العودة إلى الوطن العزيز بعد الكفاح المرير !

كان جميع الضباط من البحارة — ماعدا «فون مولر» — يحملون المصير الذي كان ينتظرهم ، لذلك كم كانت دهشتهم كبيرة عندما وافقهم برقية سرية من السفينة «شارنهورست» في يوم ١٩ أغسطس نصها : « للطراد امدن حرية التصرف والاتجاه . حظا سعيدا . »

وهكذا أراد «فون شبي» أن يكون هذا الطراد حراً طليقاً في مهاجمة سفن الأعداء ، وشن الاغارات عليها ، (بى شاء ، منفرداً عن بقية الاسطول .

وسارع «فون مولر» بالرد على هذه البرقية قائلاً : « شكراً على ثقتكم بى . رحلة موفقة وحظا سعيداً للاسطول . »
كان لوقع أمر «فون شبي» أثراً بليغاً في نفوس بحارة

« الامدن » حتى إنهم لم يتمالكوا أنفسهم من شدة الفرح ،
فراحوا يرقصون فوق ظهر طرادهم : ويقول هوهنزولرن
« لقد تركنا أحراراً في تصرفاتنا وهى بغية كل بحار^(١)
وأعطيت الأوامر للبأخرة « ماركومانيا » Markomania
باتباع « الامدن » ، لتموينه عند الحاجة . »

وما هى إلا ساعات حتى غاب فى الأفق أسطول «فون شي»
وأصبح « فون مولر » سيد نفسه ، فقسام يبحث عن سفن
الاعداء بقلب ملؤه الشجاعة والاقدام والولام لوطنه حتى
أنه نال اعجاب واحترام أعدائه جميعاً ؟ وكان جديراً بهذا
الإعجاب ، لأنه — بلا ريب — يعد فى تاريخ البحرية الحديثة
والمعاصرة ، من أكبر البحارة نبلا فى الأخلاق ، واقداما
فى النزال .

(١) هزم الأميرال « ستردى » Sturdee ، أسطول فون شي »
ولإبادته فى أواخر عام ١٩١٤ فى موقعة « فولكلاند » Folkland المشهورة
على أن « فون شي » أباد قبل ذلك أسطولاً إنجليزياً فى « كرونيل » Coronel

البحث عن القرينة

وصاح « هوهنزولرن » فرحا : « لقد أصبحنا في حل من الاسطول ، نذبوا من البحر حيث نشاء » . ولما كانت بعض زجاجات الشمبانيا الممتلئة لا تزال باقية ، فقد شرّبها البحارة رغم الاخطار التي كانت تحدق بهم — فخبيا لمناسبة تحول طرادهم إلى « قرصان » البحار .

وفي يوم ١٩ أغسطس ، عرج « الأمدن » تنبعه الباخرة التي تحمل له الزاد والمؤونة على خليج « انجور » Angour ليستزيد من كميات الفحم . وجاء البرق من محطة « شنج تاد » يخبره بوجود الباخرة الضائعة « الأميرة أليس » (Princesse Alice) التابعة لشركة « فوردنتشر لويد » Nordentcher Lloyd في المياه الصينية وكانت قافلة من جزر الفيليبين Philippines ^(١) .

وفعلا قابلها « الأمدن » في يوم ٢١ أغسطس بحوار جزيرة « انجور » واتجه « الأمدن » نحوها وأوقفها وأخذ منها كل ما كان في حاجة إليه من أغذية وتموين ، كما طلب الاستعانة ببعض رجالها . وأخبره بأنها بأن الجيوش الألمانية

(١) هو أرخبيل تابع لجزر الملايو في بحر الصين . وقد تنازلات عنه أسبانيا للولايات المتحدة سنة ١٨٩٨ بعد الحرب الأسبانية الأمريكية سنة ١٨٩٦ . وهو الآن يتمتع بالحكم الذاتي .

قد احتلت مدينتي « نامور » Naur « ووبروكسل » Bruxelles ثم اتجه « الأمدن » بعد أن وقف على هذه المعلومات نحو الغرب ، دائراً حول جزيرة « تيمور » Timor حيث تقابل مع الطراد الألماني العتيق « جاير » Geier الذي أغرقه الانجليز فيما بعد .

وأخبره ربان « الجاير » بأن اليابان قد أعلنت الحرب على ألمانيا ، مما جعل فقدان « شنج تاو » أمراً لا مئاض منه . كما أخبره بأنه في طريقه إلى الغرب ، باخرتان انجليزيتان هما : « همبشاير » و « يرموث » Hampshire, Yarmouth تقومان بدوريات في البحر . فرأى « فون مولر » من الحكمة ، أن يتجنبهما إلى حين .

وفي يوم ٢٦ أغسطس ، وصل « الأمدن » أمام جزيرة « تانا جامبيا » Tana-Djambea من الممتلكات الهولندية . واتجه نحوه الطراد الهولندي « ترومب » Tromp ، وعرف « فون مولر » كيف يحترم البلاد المحايدة ، فأرسل التحية العسكرية إلى السفينة الهولندية كما قام بزيارة قومندانها . وجلس يحاذيه أطراف الحديث بين زجاجة من البيرة وعلمة من السجائر . وتفاهم البحاران الكبيران بلحن الحديث . وهكذا وقف « فون مولر » على أحدث الأنباء ، رغم قلة فصاحة زميله الهولندي . وعلى كل فان هولندا كانت ، رغم

حيادها شديدة الميل إلى جانب ألمانيا . وبعد أن نال
« فون مولر » مراده ، ذهب إلى طراد « احتذى » الترومب ،
بجاملة منه ، حتى خرج من المياه المحايدة .
وحياه القومندان الهولندي قائلاً : سفر آ سعيداً .

فرد عليه « فون مولر » : شكر آ لك .
ثم اتجه نحو الشمال . وعندما اختفى عن السفينة الهولندية
حول سيره نحو الجنوب قاصداً مضيق « سومبك » ،
Sombek ليتخذ منه مأوى ومخبأ .

وقام فون مولر إلى باب غرفته فأوصده عليه وعلى
مساعدته « فون موك » Von Mucke وصحى « فون موك »
إلى حديث رئيسه وهو يبسط له خططه .

وكان ضمن هذه الخطط ، الذهاب إلى المحيط الهندي
حيث تسكن سفن الحلفاء التجارية ، لشل حركة سير القوافل
فيه أثناء اتجاهها هبوب أوروبا ، ونشر الرعب في البحار وفي
كبريات موانئ الشرق الأقصى ، ومنها أيضاً الخروج سريعاً
من مضيق « سومبك » إذ لا يستبعد وجود بعض البواخر
الحرية الحليفة في هذه المياه ، ولا سيما (مونكالم) الفرنسية
و (همبشاير) و (ير موث) الانجليزيتين .

وضرب (فون موك) جبهته بكفه صائحاً : (ير موث)
إن هذه السفينة الحرية تشابه تمام الشبه (الأمدن) في هيكلها

ومدافعها ، فى كل شىء ماعدا المداخن ، فلها أربعة وللأمدن ثلاثة . ثم أراد أن يتحقق من قوة ذاكرته التى وعت معلومات جملة عن قطع الأسطول الأجنبية ، فراح يتصفح دليل السفن الدولى ، ووجد أن ذاكرته لم تخنّه ، فإن « اليرموث » له أربع مداخن فعلا والتفت إلى « فون مولر » وقال : — ولماذا لا نزيد مدخنة على الأمدن؟ وسرعان ما صنعت المدخنة الرابعة ووضعت بجانب الثلاثة الأصلية . ثم أجريت بعض تعديلات طفيفة فى الطراد الألماني من مقدمه إلى مؤخره ، حتى شابه تماماً « اليرموث » الإنجليزي .

ياله من بحار ضالع ، وقرصان بارع . ولكنها مهارة عرفناها عن الألمان . ويقول « هو هنزولرن » وهكذا ظهرت إلى حيز الوجود مدخنة رابعة صنعت من قطعة من التيل الغليظ الذى يكسو ظهر الطراد ، طولها متران وضعت أمام المدخنة الأولى بعد أن أسندت بقطعتين من الخشب تم أعطيت فيما بعد ، شكلاً بيضاوياً . وهكذا أصبح يخيل إلى الناظر إلى « الأمدن » ، أنه الطراد الإنجليزي (يرموث) الذى كان فى ذلك الوقت يقوم بمناورات فى مياه الشرق الأقصى . وإني واثق من أن أكثر سفن الحلفاء اغترت فيه . وأردنا أن ندخل فى يوم ٢٨ أغسطس ، المحيط الهندى

حيث عز منا على القيام بأعمال القرصنة فيه . وهكذا أخذنا
عدتنا وحذرنا لكل طارئة ، كج عملنا ما في وسعنا لتسلسل اليه
دون أن نلفت أنظار العدو (١) .

ولما كان الليل يرخي سدوله سريعاً في الشرق الأقصى ،
فقد ركبنا المادخنة الرابعة وخرجنا من المضيق في سكون
متجهين أمامنا . ولم نقابل أثناء سيرنا إلا بعض سفن شراعية ،
ثم درنا حول جزر (جاره) و (سومطره) ولما كنا في
أشد الاحتياج إلى كميات كبيرة من الفحم ، فقد ولجنا خليج
جزيرة سيمالور Simalur وتزودنا بخمسمائة طن من الفحم ،
ملنا بعدها نحو (سبانج كولومبو) Sabang Colombo ولم نجد
في هذه البقعة سفينة للعدو نهاجمها ، بينما تقابلنا مع بعض
البواخر الهولندية ، ولكن هولندا كانت وقتئذ على الحياد .
وفي يوم ٧ سبتمبر اتخذ (الأمدن) طريقه في البحر
بين (كولومبو) و (رانجون) Rangoon ولم يصادف في
سيره أي سفينة للحلفاء لينقض عليها . وكان من المجد حقاً
أن يظل البحارة يحذقون النظر من خلال المنظار ليل نهار ،
فكل واحد منهم يود أن يكون أول من يعلن عن وجود
باخرة للعدو ولكن طال انتظارهم .

وفي يوم ٩ سبتمبر ، تنفسوا الصعداء حيث رأوا عن

(١) الأمدن ، تأليف هو هنزولرن ، صفحة ٤٤٩ و صفحة ٤٥٠ .

بعد دخانا يتصاعد الى السماء فاستعدوا للنزال ورفعوا علمهم
الحربي ، وانطلق بهم (الامدن) كالسهم نحو الفريسة . كان ذلك
الدخان يتصاعد من الباخرة التجارية الانجليزية (اندوس)
Indus وأرسل (الامدن) أول اشارة اليها يأمرها
بالانسليم : (قفوا وابطلوا الآلات) ولسكن الباخرة الانجليزية
التي كانت تحمل زادا وخيلا للجيش الأوربية المتحالفة ،
أبت الانصياع لهذا الأمر . فأرسل «فون مولر» إشارة
ثانية بالانسليم أعقبها بقذيفة ارهابية مست جانب «الاندوس»
فسارع ربانها برفع راية الأمان . وفي أسرع من البرق — وقد
اشتهر الألمان بالسرعة في الأعمال الحربية — نقلت صناديق
المؤونة والذخائر إلى «الماركومانيا» كما نقل بحارتها مع رئيسهم
ثم نسفها «الامدن» فهوت إلى القاع . . . ثم اتبع «فون مولر»
سيره في هدوء . . .

وفي صبيحة يوم ١٠ سبتمبر أبصر بحارة «الامدن» بدخان
في الأفق . وكانت السفينة الانجليزية «لوفات» Lovat وحمولتها
٦٠١٢ طنا تتجه شطر «بومباي» لتنقل منها الجنود الهنود
إلى جبهة القتال في أوربا . واستعمل فون مولر نفس الطريقة
التي استعملها مع «الاندوس» وبعد أن نقل رجالها وعتادهم
إلى «الماركومانيا» أغرق (اللوفات) بطور يبد من الامدن .
ولما كانت هذه السفينة تحمل فيما تحمل كثير امن الصحف ،

هم البحارة الألمان بتصفحها للموقوف على آخر الأنباء ،
 لاسيما بعد أن انقطع اتصالهم بمحطتهم الرئيسية في (تسانخ تاو)
 التي حاصرها اليابانيون ولكن لاح دخان جديد في
 الأفق ، فألقوا بالصحف من أيديهم وقاموا يخوضون
 معركة ثالثة . . .

واتجه الأمدن نحو فريسته الجديدة . وكانت الباخرة
 الانجليزية (كابنجا) Kabinga وحولتها ٦٥٧ طناً ، وقد
 اكتظت بالبضائع فاستولى عليها الأمدن ولم يشأ (فون مولر)
 في هذه المرة أن يغرق (الكابنجا) ويفسر لنا (هو هنزولرن)
 ذلك قائلاً : إن القومندان (فون مولر) استصوب الاحتفاظ
 بهذه السفينة ليرسل عليها الأسرى إلى أقرب ميناء ، فضلاً
 عن أن (الكابنجا) كانت من السفن السريعة . ولا يفوتني أن
 أذكر هنا أن (كابتن) هذه الباخرة قد أسر هو وزوجته
 وابنه . كما كان في عدم نسف هذه الباخرة التجارية ، الدليل
 المادى على نضوج العقل الألماني في استيعابه للحرب الخاطفة
 التي كان يضمرها لأعدائه (١)

ثم عين (فون مولر) اثنين من رجاله لقيادة (الكابنجا)
 وعليها الأسرى ، كما عين لها بعض المساعدين من البحارة .

ولم يفته إتلاف محطة اللاسلكي المزودة بها ، ثم تابع سيره
وفي أثره (المراكومانيا) و (الكابنجا)

وفي نفس اليوم ، وبعد مضي ثلاث ساعات لاح في
الأفق هيكل سفينة .

ويقول هوهنزولرن في ذلك : (واتبعنا معها نفس
الاجرامات التي اتبعناها مع السفن الأخرى . فلما استسلمت
أرسلنا اليها ضابطين منا وهما : (فون ليفتوف) Von Levetzov
و (فون زمرمان) Von Zimmermann فأخبرانا بالاشارات
أنها الباخرة الانجليزية (كيلين) Killin وتحمل ٦٠٠٠ طن
من الفحم الهندي .) فحم ! يا لحظنا السعيد . ولكن (فون مولر)
وقد حنكته التجارب ، أبدى تحفظه قبل سروره ، فلم يشأ
أن يغرق هذه السفينة إلا في الصباح حتى لا تلفت نيرانها
— وهي تشتعل ليلا — أنظار البواخر المعادية ، فتأخذ
حذرهما . لذلك أمر بتفريغ حمولتها ونقل رجالها وسحبها
وراء (الكابنجا) و (المراكومانيا) .

وفي ١٣ سبتمبر ارسل « الامدن » إشارة تحذير وتسليم
إلى الباخرة الإنجليزية « دبلوماسات » Diplomat وحمولتها
٦٧١٥ طنا ، واستولى على شحناتها وقوامها ١٠٠٠٠ طن من
الشاي ، كانت مرسله من « كاسكوتا » إلى إنجلترا . ثم أغرقها
بعد أن تركها آخر بحارتها .

وفي نفس اليوم ، شامت الصدف أن يتقابل «فون مولر»
مع الباخرة الإيطالية «لوريدانو»^(١) Loredano فرجا
قومندانها أن يوصل البحارة الأسرى إلى أقرب ميناء موال
لألمانيا . فأبى ، ويقول «هو هنزولرن» : « ولم نرتح إلى سحنة
هذا القومندان الإيطالى المذبذب لذلك اتخذنا حذرنا منه وحوالنا
الدفة نحو الجنوب حتى يظن أننا نريد ذلك الطريق بينما غيرناه
فوراً إلى الشمال ، حيث رأينا من الخزم الاتبعاد عن الطريق
التجارى فيما بين «كولومبو» و «كلكوتا»

واتجه الطراد الألمانى فى طريق «مدراس - كلكوتا»
وفى ١٥ سبتمبر استولى على حمولة فحم أخرى . أن الحظ
يلازم «الامدن» ؛ ويقول «هو هنزولرن» فى ذلك «ونقلنا
بخارة السفينة المعادية إلى «الكابنجا» مع بقية الأسرى ثم
تركناها تحملهم إلى أقرب ميناء وصاح الركب محييا الامدن
ثلاث مرات بالكلمة الإنجليزية الشائعة : «هرا Hourrah»
ثم غابت بهم السفينة فى ظلمة الدجى^(٢) .

وفى ١٦ سبتمبر ، جاء دور الباخرة الإنجليزية «كلان
ماتسون» Clan Matheson وحمولتها ٧٧٥ طنا . واستولى
«فون مولر» على ما عليها من بضاعة ومؤونة وأسر رجالها

(١) كانت إيطاليا فى سنة ١٩١٤ على الحياد .

(٢) «الامدن» صفحة ٧١ .

ثم نسفها فذهبت تهوى إلى قاع اليم .

واستطاع الامدن فى مساء هذا اليوم أن ياتقط برقية
من سلة من الباخرة الإنجليزية « همدشاير » إلى السفينة الفرنسية
« مونكالم » هذا نصها : « احترس من الامدن »

لا شك أن الباخرة الإيطالية « لوريدانو » هى التى وشت
« بالامدن » وحذرت الطراد الإنجليزي منه ، ولكن لا ضير ،
فان « فون مولر » الداهية كان قد غير طريقه كما ذكرنا وهكذا
اتجه الطرادان الإنجليزي والفرنسى فى طريق مضاد للطريق
الذى قام فيه الامدن بثمن غاراته على السفن التجارية .

وبالرغم من الاجراء الحكيম الذى اتخذه « فون مولر »
فقد رأى ، زيادة فى الخطة أن يتجه نحو مضيق « ملقا »
Malacca حيث تتقابل مع الباخرة النرويجية « دوفر » Douvres
وجولتها ٤٠٠٠ طن . وكان كابتن هذه السفينة فى منتهى الرقة
والأدب فلم يمانع فى أخذ أسرى الباخرة « كلان ماتسون »
وتقاضى عليهم ١٠٠ دولار مكسيكى ، وهى العملة الرائجة فى
الشرق الأقصى ؛ ويقول « هو هنزوارن » : « وتم نقل الأسرى
على ما يرام وفى أسرع وقت » .

إن ملازمة الحظ « لفون مولر » فى جولاته البحرية ،
حفزه إلى أن يجرب حظّه فى إغارة جريئة خاطفة على إحدى
موانئ الشرق الأقصى ، واختارت هذه الفكرة فى رأسه

وراح يلتقط بدماهته المجهود جميع المخابرات السرية اللاسكية
التي تنبأ لها سفن الحلفاء فعرف خططهم ، ووقف على
خباياهم وأحاط بشراياهم . وعلم فيما علمه من برقياتهم أن
(الهمبشاير) ترك ميناء « مدراس Madras » فقام فورا إلى
رجاله يهيئهم إلى خوض الأخطار ، وأنفذ من تابعته
« الماركومانيا » ما يكفيه من زاد وفحم لرحلته . ثم تواعد معها
بعد يومين في مكان « ما » .

وهكذا انطلق « الأمدن » بمقدوفاته التي تحمل في بطونها
النار والدمار إلى ميناء « مدراس » أكبر ميناء على ساحل
« كورومندل » Coromandel ومدراس وهي ثالث مدينة في
الهند من حيث الأهمية ، فيها مقر الحاكم الانجليزى ، وعدد
سكانها ٥١٧,٠٠٠ نسمة . . .

مدراس

يقول « هوهنزولرن » : وكان الجو صحواً حتى نجيل
إلينا أننا نستظل تحت سماء المناطق الحارة .
وظل العمل مستمر فوق الطراد استمداداً للأغارة .
وبعد أن تنازلنا وجبة الغذاء نادانا « فوق موك » فاجتمعنا
عنده وظل يشرح لنا الخطة التي سنتبناها وجعل يملأ على كل منا
التعليمات التي يجب اتباعها فيما لو أصبح « فون مولر » أو

« فون مولك » ، في عداد الموتي . ثم أمرنا جميعاً بخلع الملابس التي علينا واستبدالها بملابس نظيفة حتى لا تتعرض جروحنا إلى جراثيم الغرغرينية التي يخشى عواقبها في المناطق الحارة أكثر منها في المناطق الأوروبية .

« ثم وضعنا — عند ما جن الليل — المدخنة الرابعة ، كما زدنا الضغط على خزانات البخار لنستطيع عند الحاجة التسير بالطراد بأشد سرعة .

« وفي الساعة ٨ مساءً ، شاهدنا أنوار ميناء مدراس — كما لو كانت في أيام سلم ، فدهشنا لهذه الظلمة التي يمشي الانجليز في جنوها . لا شك أنهم كانوا لا يتوقعون هجوماً ألمانياً على هذا الميناء المحصن . وكلما اقتربنا كلما زادت دهشتنا من هذه الأنوار التي تنبعث من كل موضع من الثغر ومن المدينة . وكنا حوالى التاسعة ، على مقربة من مدراس ونحن على أتم استعداد للضرب . ثم انطلق الطراد هبوب هذه الأنوار على سرعة ١٧ عقدة ، وفي التاسعة والدقيقة الخامسة والأربعين ، كنا على بعد ٣٠٠٠ متر من الأرض ، فأوقفنا ، الأمدن وآلاته (١) .

ومرت دقيقة رهيبية في سكونها ، أمسك كل منا أنفاسه

(١) الأمدن مؤلفه هو هنزولرن صفحة ٨١ و ٨٢ .

خلالها . . ثم دوى في آذاننا هذا الأثر المقتضب : « انيروا
الكشافات الأمامية ، أطلقوا النار » .

ودوت القذائف تشق سكون الليل في صوت كهوت
الرعد ، صوب أهدافها . . وانطلقت السنة الثيران من
خزانات البترول . ولم يرد علينا العدو ، وظلت بطاريات
الميناء في سكونها إذا استتيا بضع قذائف تساقطت بجوارنا
لاندرى من أين ألقيت .

ولترك « هوهنزولرن » يحدثنا عن هذه الموقعة الرهيبة
« أطلق الأمدن » ١٥٠ قنبلة على خزانات البترول
فأحرقها ، وأتلف أرصفة الميناء كما أعطب باخرتين .
ثم أسرع في خروجه من الميناء متجها نحو الجنوب ، ثم نحو
الشمال .

ولم يحدث خلال الليل ما يستحق الذكر أو التنويه .
وتذوق البحارة من جند وضباط قسما من الراحة .

ثم أردف « هوهنزولرن » قائلا : « وكانت هذه أول
موقعة بحرية يشاهدها : « إن سحب الدخان المتصاعدة
من البترول والتي كنا نراها على بعد ٦٠ ميلا ، لألحس دليل
على دقة أعمالنا » .

وفي صباح يوم ٢٢ سبتمبر ذهب « الأمدن » حسب

وعده لمقابلة « الماركومانيا » في المكان الذي أسره إليه
 في عرض البحر . ونقل « فون موار » ما رأى نفسه في
 حاجة إليه من زاد وفخيم . ثم ذهب يبحث عن فريسة تحمله
 وقوداً على الأنفوس ، لأنه كان في أشد الاحتياج إلى كميات
 من الفحم

السفينة الخفية

في يوم ٢٤ سبتمبر ، اتجه « الامدن » - وهو على بعد ٢٠ ميلا من شاطئ « سيلان » - شطر أهم طريق تجارى فى المحيط الهندى ، وهو طريق كولومبو - بنالنج - سنغافورة ، وكله أمل فى أن يأسر بعض السفن المشحونة بالفحم .

وتقابل مع الباخرة الانجليزية « كنج لود » King Lud وحمولتها ٣٦٥ طنا فى اتحامها نحو السوريس . فأوقفتها وقتشها فوجدوها مليئة بكل أنواع البضائع ما عدا الفحم تم مال « الامدن » إلى طريق « كولومبو - مينيكوى » Colombo Minikoi ، فأسر السفينة الانجليزية « تيمريك » Tymerik ، وحمولتها ٢٥٠٠ طناً ، وكانت غاصة بالسكر ولم يجد فيها شراً فأغرقها . ثم أغرق الباخرة الانجليزية « جريفيفيل » Gryfevale ، وحمولتها ٤٣٧ طناً وكانت متجهة نحو عدن . أين الفحم ؟ لقد دخل السأم نفس (فون مولر) . لا بد له من فحم يوقد به مرجل سفينته ، ليضى مطمئنا فى خططه البحرية البحرية . أنه يخشى أن تصبح سفينته طعمة لمارادات الحلفاء عند ما تنتهى شحنتها من الفحم . فى استطاعته أن يلجأ إلى ميناء محايدة فيظل فيها حتى توضع الحرب أوزارها ، ولكنه أبى ذلك بشهم .

وفي يوم ٢٦ سبتمبر ، اقتنص « الأمدن » الباخرة
 الإنجليزية (بوريسك) Buresk وحمولتها ٣٥٠ طناً . فلما
 فتشها وجد فيها ٦٠٠٠ طن من أجود الفحم (كرديف Cardiff)
 كانت مخصصة للأميرالية البريطانية في الشرق الأقصى . . .
 ما أحسن هذا الحظ ٦٠٠٠ طن في قبضته ، يالها من مفاجأة
 وعلا صياح البحارة الألمان في سرور عظيم : إنه فحم . . .
 وأمر (فون مولر) بنقل هذه الكمية الضخمة من الوقود
 إلى (الأمدين) كما أمر بنقل البحارة الإنجليز الذين أسرهم
 منذ يوم ٢٤ سبتمبر إلى « البوريسك » الذي تبعه .

وفي اليوم الثاني ، انقسم له الحظ فأسر السفينة الإنجليزية
 ريبيرا Ribera وحمولتها ٣٥٠٠ طن ، ووجد فيها سجل
 الإشارات السرية ، فاحتفظ به ، وأغرق السفينة .

ويقول لنا الضابط (هو هنزولرن) بأن هذا السجل
 أعلمنا بأن (الريبيرا) ستقابل أثناء مرورها في المحيط الهندي
 بسبع وستين وحدة بحرية انجليزية تحرسها المدمرة الانجليزية
 (سوفتسور Swiftsure) والطراد الروسي (اسكولد Ascold) .
 لا شك أن (الأمدين) وجد الحظ حليفه ، لقد وقعت في
 قبضته في نفس اليوم الباخرة الإنجليزية فويل Foyle وحمولتها
 ١٧٤ طناً . ولم يشأ (فون مولر) نسفها إلا في صباح اليوم
 التالي حتى لا تهتدى السفن الانجليزية إلى مكانه ، من جراء

ضوء النيران التي يحدثها انفجار السفينة ، فيما لو ضربها بطور بيد في الليل البهيم .

كان (الفويل) يحمل شحنة من الويسكي وسيجارات الهافانا الفاخرة ، فوزع منها (فون مولر) على بحارته وعلى الأسرى أيضاً . ما ألد الحياة فوق من هذه السفينة المسجورة . وفي ٢٨ سبتمبر وقف (الأمدن) عند منتصف الليل في مكان في عرض البحر ، ووقفت كذلك البواخر الثلاثة التي لم يغرقها ، وهي : «ماركومانيا» ، «بورسك» و«جريفيل» ، ثم أمر جنوده وضباطه الذين كانوا بحراسة السفينة الأخيرة بالصعود إلى (الأمدن) . وهكذا أخلى سبيل السفينة «جريفيل» .

ويقول « هومنزولرن » ولشد ما أخذتنا الدهشة من هذا التصرف الكريم ، لاسيما عندما رد عليه البحارة الانجليز — وقد فك أسرم — بثلاثة صيحات من كلمة الاستحسان الموروثة : هرا Hourra ، ثم اتجهوا بسفینتهم شطرا (كولومبو) بينما سلكنا طريقنا إلى الجنوب نحو (ملديف) Maldives .

وفي فجر اليوم الثاني ، وصل (الأمدن) إلى جزيرة (ملديف) وفي أثره السفينتين اللتان استبقاهما . فأخذ طريقه بين صخور المرجان في خليج ضيق ، ثم أخذ شحنته

من الفصحى من (الماركومانيا) وملاً مخازن (البوريسك)
بالكميات الباقية منه ، حيث رغب في استبقاء (البوريسك)
معه وارسال (ماركومانيا) إلى ميناء محايدة في الهند الهولندية
تعمل رسالات خاصة من (الأمدن) .

وسرعان ما أخذ كل بحار من بحارة (الأمدن) قلماً
و قرطاساً ليخط فيه ما شاء لأهله وخلائه . ويقول هو هنزولن
« كان كل واحد منا يأمل وصول خطابه إلى وطنه ، وكان هذا
الأمل ضعيفاً ، فقد تصادف (الماركومانيا) في طريقها
بواخر العدو فتأسرها » .

لذلك راجع (فون مولر) بنفسه جميع الخطابات
زيادة منه في الحيلة ، حتى إذا ما أسرت السفينة وقرأت
الرسائل ، لم يستدل منها العدو على حركات (الأمدن) .
وتركت (ماركومانيا) السفينة الألمانية حاملة رسائل البحارة
وتبعتهما أنظارهم حتى غابت في الأفق .

وبعد يومين ، اتجه (الأمدن) والسفينة الأسيرة نحو
جزر (شاجوس) Chagos لأسباب قاهرة .

كان على (الأمدن) أولاً ، أن تخيب مدة من الزمن
عن ساحة القرصنة ، لاسيما وأن باخر الحلفاء كانت تبحث
عنها بكل نشاط . وثانياً ، كانت آلاتها في حاجة ماسة إلى
إلى الكشف عليها وتغيير الفاسد منها .

لا شك أن عملية التصليح كانت صعبة في جزيرة بعيدة ليس فيها الاستعدادات اللازمة للكشف والتنظيف والتصليح . والسكن « فون مولر » كان يأمل الوصول إلى هذه الجزيرة بكل جوارحه ، ويحدثنا « هو هنزولرن » مفسراً : « كنا نود أن نخلص جدران السفينة من الأعشاب والقواقع التي التصقت بها ، وكانت تعوق السفينة نوعاً ما . كما كنا نريد طلاءها والكشف على آلاتها ، ولقد قام المهندسون بواجبهم على الوجه الأكمل ، وانتهزنا هذه الفرصة لتنظيف المدافع الرشاشة ، وبقية الأسلحة . ولقد قام الجنود بالتمرين على إطلاق البنادق على أهداف متصلة بالسفينة « بوريك » . مكنت هذه التمرينات بعض البحارة الرديف من بلوغ درجة الكمال في إصابة الأهداف . ولم تمنع سائق السفينة من التمرين على إطلاق المدافع حتى إذا ما فقدنا أحد رجال المدفعية ، وجدنا في الحال من يحل محله » .

وفي ٨ أكتوبر وصلت « الأمدن » حوالى الساعة السابعة مساءً إلى جزيرة « ديجوجارصيا » Diego-garcia قبلى أرخبيل « شاجوس » . ولقد كان لظهورها مع الباخرة التي تتبعها وقع كبير في النفوس .

ويقول « هو هنزولرن » لم نكد نصل حتى جاء إلينا زورق صعد منه إلى « الأمدن » مدير وكيل شركة الزيوت

« ديبيجو-جارسيا » وهو من مواليد مدغشقر ولا يتكلم إلا الفرنسية .

وكان ركب الالامدن جميعهم يتكلمون الفرنسية . أما الضابط « هو هنزولرن » المنحدر من جهة والدته من البوربونيين وأسرة بر اجانس ، فإنه كان أحسن من يتكلم اللغة الفرنسية فيهم ، ولنتركه يحدثنا :

« تكلم قائدنا معه هنيهة ، ثم صحبته إلى غرفة طعام الضباط ، وناولته قدحا من الويسكى والصودا المشبعة . وتناول الحديث شتى النواحي ، ولشد ما عجبنا عند ما استيقنا من أن وكيل الشركة لا يدري شيئا عن الحرب . . . وسرعان ما استخلصنا منه على سر له قيمته : تأتي سفينة شراعية كل ثلاثة أشهر من جزيرة « موريس » إلى « ديبيجو-جارسيا » وهي جبل الوصل الوحيد بين هاتين الجزيرتين . وكان وكيل الشركة في انتظار هذه السفينة .

وفعلا كان سكان هذه الجزيرة لم تصل إليهم أخبار العالم منذ آخر شهر يونيو . إنها فرصة سعيدة « للالامدن » . ولكن المدير راح يطرهم بوابل من الأسئلة على حد تعبير « هو هنزولرن » الذي يضيف قائلا : « كان لزاما علينا أن نجيبه ، وما أكثر الحكايات التي يستطيع البحار أن يقصها من مخيلته . فقصصنا عليه ما ابتكرناه من الحكايات . ورددنا

عندما سألنا عن سبب زيارتنا ، بأن السفينة في حاجة إلى التشحيم والتنظيف والتصليح ، وهي مهمة تتم في يومين

كانت هذه هي الحقيقة . ولكن المضيف راح يتابع أسئلته مع الضابط ، فأخبرناه بأن الأسطول الألماني يجري مناورة واسعة النطاق ، واتخذ لهذه المناورة المحيط الهندي ، وذلك مع الانضمام إلى الأسطول الانجليزي والفرنسي .

حقاً لقد كانت مناورة ولكن عداية . ولكن يتخلصوا من حديثه ، ففكر الضابط هو هنزولرن في مخرج منه لا يخلو من الفكاهة حيث قال له : أريد يا سيدي المدير الوقوف على بعض الأخبار ؟ ألم يعلم سيدي المدير ، بأن البابا « بيوس » العاشر مات ؟ .

كان المدير يجهل هذا الخبر ، وراح يتحسر على البابا بكل ما أوتي من إيمان . وقلده هو هنزولرن في حسرته وعلى كل فإن هذا المدير كان يصدق كل ما يسمعه ، وعندما تركهم ، أرسل إليهم هدية من الفاكهة ، فقبلها البحارة الألمان ، وأرسلوا إليه بدورهم بعض زجاجات الويسكي وبعدد غير قليل من السيجار

ولكن السفينة الشراعية - التي تأخرت عن موعد

وصولها إلى « ديجو-بارسيا » لم تحضر قط . وظل « الامدن » مطمئناً أثناء إصلاحه من يوم ٩ إلى ١٤ أكتوبر ، فحكمت جدرانها وكشفت على آلاته . وفي يوم ١٥ ، ترك « الامدن » الجزيرة التي آوته ، واتجه نحو جزيرة مينيكوي Minikoi ، ونحو الطريق البحري الذي اعتادت سلوكه البواخر التجارية . وفي مساء ١٦ ، أوقف « الامدن » الباخرة الانجليزية « كلاينجرانت » ، Clan-Grant وحولتها ٢٩٤٨ طناً . وفي ١٧ أكتوبر ، تقابل مع الكراكة الانجليزية « بونرابيل » Ponrabbel فأغرقها . وفي اليوم الثالث أسر الباخرة الانجليزية « بن موهر » Ben-mohr التي كانت آتية من اليابان تحمل شحنة من الدراجات والعشدد وقطع الخيار وكانت حولتها ٤٨٠٦ طناً ، فأغرقها على الفور . ثم تقابل مع الباخرة الفاخرة « ترويلوس » Treilus وحولتها ٧٥٦٢ طناً ، فلم يغرقها ، بل نقل إليها رجال السفن التي أغرقها وأمرها باتباعه . وبعد ساعات قليلة صادف الباخرة « سانت اجبرت » وحولتها ٥٥٠٦ طناً فأغرقها .

واحتفظ له الحظ في يوم ٢٠ أكتوبر بمفاجأة سارة . فقد أسر الامدن في هذا اليوم الباخرة « اكسفورد » وحولتها ٤٥٤٠ طناً وكانت مشحونة بـ ٥٥٠٠ طن من قم « كريدف » ويقول هو هتزلرن : كانت هذه الباخرة كأختها

« بورسك » تحمل هذا الفهم للاميرالية الانجليزية في الشرق الأقصى .

فلتنتظر الاميرالية الانجليزية إذن شحنتها من الوقود !
فلقد نقل الامدن الشحنة كلها في سفينته التي كانت الهدف
الذي تبحث عنه الطرادات والمدمرات الحليفة

ولم تكذب البحارة الألمان الانتهاام من التفريغ ، حتى
شاهدوا الباخرة « شلكانا » Chilkana وحولتها ٩٢٢٠ طنا
التابعة لشركة الملاحة الهندية الانجليزية ، وكانت تحمل
أدوات الطهي والسجاير وعشب الأكل المحفوظة والشوكولاتة
والبيرة والبن . آه ، إن رجال الامدن سيهاون فرحاً وسروراً
بهذا الصيد السمين . وسرعان ما أوقفوها وأفرغوا شحنتها ،
ثم وضعوا فيها لغمًا فوسفات لساعتها ، وغاصت بين أمواج
البحر .

اكتظمت السفينة « تروياوس » بأسراها من رجال
البواخر المخترقة ، وفسكر « فون مولر » في التخلص منها ومن
عليها بإرسالها إلى إحدى الموانئ المحايدة . وقبل أن يتركها
تأخذ سيرها نحو الميناء الذي حددته ، أمر بإفساد آلات
اللاسلكي فيها ، إلا أنه أعطى ربانها الانجليزى ، وكان برتبة
« كابتن » ، الزاد الكافى ، ولم يندس المهندس الألماني أن
يستعمل علمه وخبرته في جعلها كينات الباخرة تتحرك

ببطء شديد حتى لا يستطيع قائدوها الانجليزى السير بها
بسرعة .

ثم قال بحارة الامدن للسفينة بعد أن أطلقوا سراحها
« حظاً سعيداً » .

فرد الانجليزى مردها ثلاث مرات : حظاً سعيداً .
وكان الانجليزى يحب الصراحة في الحرب وكان «فون مولر»
نييلاً في معاملاته .

وذهب الامدن في يوم ٤ اكتوبر ، إلى عرض البحر
ليستخرج رجاله وأطلق (فون مولر) عنان فكره ، أنه
حتى الآن أنزل بالأسطول الانجليزى خسائر فادحة ، ومع
ذلك فإنه لا يزال يريد الانقضاض على العدو ، ولكن أين؟
وكيف؟ وكثيراً ما يتساءل الخبراء في الفنون الحربية
والبحرية ، لماذا أحجم طول هذه المدة عن الهجوم على
وحدات العدو؟

ويرد (هو هنزولرن) مفسراً لنا خطة (فون مولر) :
(كان لنا ما علينا أن نهيق العدو في تجارتها أولاً في أكبر
عدد ممكن من سفنه . أما الآن وقد تم لنا ذلك فسوف
نخوض غمار نوع آخر من الحرب البحرية) .

وفعلاً ، اختتمت فكرة الهجوم في رأس (فون مولر)

الجبار . فيسم شطر « بنانج » Penang ليغرق من السفن ما يستطيعه أثناء تكديسها في هذا الميناء .

واستعد « فون مولر » لتنفيذ خطته الباسلة ، وهو يعلم أن الهجوم على العدو في البحر في الوقت المناسب ، يعتبر في الوقت نفسه ، دفاعا عن النفس .

فأمر بوضع المدخنة الكاذبة في محالها ، وقام كل ضابط بحار إلى مكانه ، وجيء بالدخائر ، ثم انطلق « الأمدن » سريعا وهو على أتم استعداد ، بمنخر عباب البحر نحو « بنانج »^(١) وكانت المدمرات الفرنسية تدور حول لونداكر منها « بستوليه » Pistolet و « موسكيه » Mousquet و « فروند » Fronde و « أيرفيل » Iberville .

(١) في سنة ١٧٦٦ تزوج الكاتب الإنجليزي « لايت » Light بابتة أحد ملوك ماليزيا الذي أعطى للزوج ميناء « بنانج » مبرا فباع « لايت » هذه الميناء فيما بعد لشركة الهند Cie des Indes فأقامت فيها مدينة « جورجتاون » Georgetown التي أصبحت محط رجال السفن التي تقوم بالتجارة مع الصين ومع سفن هولندا في سلوكها طريق « بادانج — سنغافوره » Padang-Singapour ، ويواجه شاطئ خليج « بنانج » البنفوي ، شواطئ « سوماطره » التي هي تحت الانتداب الهولندي ، وانضمت الوحدات الحربية التي تقوم بالمناورات في هذه الجهات سنة ١٩١٤ إلى الأسطولين الإنجليزي والفرنسي ، تحت أمرة الأدميرال الإنجليزي « جرام » Jerram الذي قاد فيما بعد الأسطول الثاني المصفح إلى « جولاند » Jutland .
(المؤلف)

بناسنج

بناسنج ؟ . . جزيرة عند مدخل مضيق « ملقا » Malacca
تتكد تتصل بشبه جزيرة « ماليزيا » Malaisie .

كان ذلك فى ليلة ٢٧ - ٢٨ اكتوبر سنة ١٩١٤ . واختفى
القمر تحت سحب سوداء ، كما أسدل الضباب رداءه على
الشاطئ المالىزى . ولاحت مرتفعات الجزيرة كالأشباح ،
وكانت بعض الأضواء تنم عن وجود مدينة « جورج تاون »
النائمة . كما كان يتألا فى الظلام سنا نورين أحمرين عند مدخل
المرفأ الذى أضيئت أرصفته . وكثيراً ما طلب قومندان
الدمرة « ايرفيل » الفرنسية بإطفاء الأنوار ، واسكن مدير
الميناء لم يستمع لنصيحته .

كان مدير الميناء يكره الظلام ، فقد حدث منذ شهر ، أن
حاول تجربة اطفاء الأنوار ، وصادف هذا الوقت ، ساعة
دخول الطراد « يرموث » Yarmouth فى كادير تطم بسفينته
فى طريقه . لذلك أثار الميناء ، لا سيما وأن النور لازم لميناء
تكدست فيه أنواع السفن . أليس من المنطق أن تستطيع
كل سفينة المضى إلى حال سبيلها ، وهى مبصرة ، لا أن
تتجسس المياه فى سيرها ؟

والح قومن دان الابر فيل^(١) مرة أخرى في إطفاء الأنوار
ورفض مدير الميناء إجابته .

حقاً إن الفرنسيين عصبيون . أليس هذا المكان آمناً
مطمئناً ؟ كيف لا ، ولم ينطق ضابط الاستعلامات في بنائج ،
حتى هذه الساعة ، أى إشارة مقلقة . لا ننكر أن « الامدن »
كان منذ ٩٥ يوماً على بعد ٢٠٠٠ ميل من مضيق « ملقسا »
ولكنه غاب بعد ذلك متجهاً نحو الجنوب ، وذهبت في أثره
ست من أسرع الطرادات الحليفة . ولا شك انها ستقضى على
هذه السفينة التي أتقنت فن القرصنة . وأنى لها من الافلات
من ست طرادات . إذن لاخوف هناك ، ولا مانع من ترك
الأنوار القليلة في الميناء الذي ليس فيه إلا ثلاثة مدمرات فرنسية
هي : « فروند » و « بستولير » و « ابر فيل » والطراد الروسي
« يمتشوج » Yemtchoug المزود بثمانية مدافع قطر ٦٢ سم ،
وثلاثة قاذفات طوربيد ؟ كانت كل هذه السفن راسية لحماية
الميناء . أليس فيها الكفاية ؟

لا شك . ولكن يجب على الإنسان أن يتخذ حيطته ،
وعلى كل ، فقد قام « البستوليه » في الصباح بدوريته . وكان
« الفروند » مفكك الآلات لتصليحها ، وكانت مراجل « الابر فيل »
في حالة يرثى لها بعد ثلاثة أشهر قضائها في عرض البحر ، حتى

أن الأميرال جيرام^(١) الذي كان على رأس الأسطول الفرنسي الانجليزى فى الصين، صرح له بإجازة لمدة عشرة أيام لإصلاح المراجـل والآلات . وكذلك كان حال الطراد الروسى « يمتشوج » ، فقد صرح له الأميرال بخمسة عشر يوماً . إذن لم يبق إلا الطراد الفرنسى القديم « موسكيه » وكانت سرعته الفضيلة تتناسب مع تسليحه البسيط، وكان عليه أن يقوم بدورته من شمال بنانج إلى جنوبه . فكان هو المدافع الوحيد عن هذه الميناء المضنية كحقل عروس والتى يدخل الداخل فيها كما لو كانت سوقا ، ياللعصبية ! وهل يستطيع « الموسكيه » الدفاع ؟ إن مثله كمثل الوعل الذى أدمى قرنه فى نطاق الصنخور السماء . وأصبح الامدن ، بعد أن ركب المدخنة الكاذبة يشبه تماماً (اليرموث) الانجليزى وكان يمتخر عباب اليم فى ضوء القمر فى طريق (بولو بدانج) Poulo-Pedang

وغاب القمر فى الساعة الثالثة صباحاً ، وسط الضباب الكثيف . وأبصر (الموسكيه) فى الساعة الثالثة والنصف — وكان يخالف فى اتجاهه اتجاه (الامدن) — الأربعة مداخن ، فظنها مداخن اليرموث ، فمال إلى بنانج . لقد حان وقت العمل . انطلق الامدن بسرعة ١١ عقدة

(١) عين الأميرال « جيرام » فيما بعد على رأس الأسطول المصفح الثانى فى موقعة « جونلاند » .

شطار مدخل الميناء ، ويقول (هو هنزولرن) : « وكان يدلنا على الطريق ، النور المنبعث من الشمندوره ،

ولم ينتبه حارس السيفافور لحقيقة السفينة وهى داخلة بمدخلها الأربعة . لقد ظنها « اليرموث » قافلة من رحلتها ، تبغى الدخول فى الميناء . ودخلت (اليرموث) الميناء .

دخلت اليرموث الميناء ومضت عليها دقيقتان . ثم خمس . ثم سبع . لم يشك فيها أحد . وعلى حين غرة ، دوى صوت كصوت الرعد فى أرجاء الميناء ، وقامت المدافع تدوى بصوتها الرهيب ، وتوالت قذائفها تحصد السفن والأرواح . ما هذا ؟ ما دهانا ؟ ؟

لقد فهم رجال الميناء . . أنه ليس (اليرموث) وإنما هو (الامدن) لاشك فى ذلك . . إنه يتجه فى سرعة مخيفة نحو الطراد الروسى (يمتشوج) ولم يكن القومندان (١) فيه ،

(١) اجتمعت هيئة أركان الحرب فى أغسطس سنة ١٩١٥ فى « فلاديفوستوك » Vladivostock وحكمت بالسجن على قومندان اليمتشوج ثلاث سنوات ونصف وتجريده من ألقابه العسكرية . ويظهر من لحوى الحكم الصادر ضده إن القومندان كان مستهترا فكان يترك السفينة مع خمسة من الضباط ليتريض ، كما كانت زوجته تصحبه دائما فى رحلاته البحرية . كما ينضح أنه لم يأخذ الخطة الكافية فى مثل هذه الظروف الحربية فلم تكن الطوربيدات مستعدة للانفج كما كانت أنوار السفينة باقية كما لو كانت فى وقت سلم (أنظر كتاب Combat set Batailles sur mer صفحة ٨٧ لمؤلفه Farrère et Paul Chack .)

فقد تركه منذ برهة مع زوجته ، كما نزل منه بعض الضباط ، ولم يزل على سطحه إلا بعض الجنود . فسارعوا — وقد استسلموا لثورة الجنون من جراء الموت المحقق الذى يحدق بهم ، إلى مدفع يصوبونه نحو السفينة الألمانية ، دفاعا عن شرف بلادهم . ولكن «الامدن» أرسل طوربيدا نسف به الطراد وغاص بين قرعة تشيب لها الرؤوس . وصعد دخان كثيف غشى الميناء ، وكانت القذيفات تصفر خلاله نحو «الامدن» . إنه الطراد (ابرفيل) يطلق نيرانه على غير دقة فأطاح بمداخل سفينة يابانية . ولم يصب (الامدن) وانتشع الدخان . ولم يبق من الطراد الروسى غير أعلى الصاري ، ثم انقض الامدن كالثور نحو (الابرفيل) .

ولكن فى هذه اللحظة ، خان السراب البحرى (الامدن) ، وما أكثر السراب فى البحر ، فأفلت منه (الابرفيل) ونجا من موت محقق ، ويزيد (هو هنزولرن) بأن سفينته ظهرت عند مدخل الميناء ^(١) يخف بها الدخان الكثيف من كل مكان وظن (الامدن) أنها سفينة حربية حليفة ، فدار حول نفسه بسرعة ويمم شطر العدو الجديد .

وأخذ قومندان (الابرفيل) منظاره وأخذ يرهق ،

فرأى هو الآخر ذلك الدخان الكثيف ، ولعب السراب دوره معه أيضاً ، وتساءل أقاذفة طوربيد أم لا قطة الغام ، أم هو (المرسكيه) يطلق مدافعه ؟

وانقض الامدن على هذه السفينة ، ويقول (هو هنزولرن) وحاولنا من مقعد ربان السفينة أن نستبين هذه الباخرة ، ولكن الدخان الكثيف الذي كان يحيط بها ، حال دون ذلك ، فاضطررنا إلى فتح فوهات المدافع ، واصليناها نارا حامية على بعد ٥٦٠٠ متر ، ولكن لسوء الحظ ، لسبب السراب دوره فلم نصبها . وأخيرا تبيننا أنها سفينة تجارية صغيرة . فأوقفنا إطلاق النيران .

وبالرغم من عدم أهمية هذه السفينة الصغيرة ، فقد كان ظهورها منجاة (للابرفيل) وسفن شحن أخرى . وكان في نية قومنداننا أن ينسفها ولكنه آثر ، وقد خرج من الميناء ، ألا يدخلها ^(١) .

دامت هذه المعركة الوحشية عشرين دقيقة في ميناء (بناسنج) ، واتجه (الامدن) الذي غشه السراب ، إلى عرض البحر ، واجتمع ضباطه في غرفة الطعام ، وتناقشوا في حوادث الواقعة . ثم تناولوا الطعام في هدوء وارتفعت الشمس في الأفق الصافي ، وصاح بحارة (الامدن) مرددين صيحة الاستبشار والسرور (هرا) ثلاث مرات .

الواقعة

وفي نفس اليوم « يوم ٢٨ أكتوبر » في الساعة السادسة صباحاً، شاهدت السفينة الحارسة للمدمرة الفرنسية « موسكويه Mousquet » وهي قافلة نحو « بنانج Penang »، شبح سفينة حربية . ولم تتمكن من معرفة جنسيتها لبعد المسافة بينهما . فلقد كانت أبراجها وصواريخها ومداخلها ترقص ملتبسة في بعضها تحت أشعة الشمس . ولكنها هي الأخرى تكاد تكون راجعة من بنانج . ربما كانت باخرة حليفة .

ودار العقرب ليقف على السادسة والدقيقة الخامسة والعشرين . يخيل للرائي أن هذه السفينة القادمة أربع مداخل . نعم ، لها أربع مداخل . أنها تشبه « اليرموث Yarmouth » أنها اليرموث دون شك .

وطير خبر هذه السفينة إلى القائم مقام تيروين Theroinne قائد الموسكويه ، فنهض من مكانه ليصعد إلى القنطرة ثم أمر بتحويل مدمرته نحو هذه البخرة بعد أن أمر بإرسال إشارات التعارف . ولما كان نظام البحرية يقضى بأن يبدأ ذو الرتبة العالية بمخاطبة من هو دونه في الرتبة ، انتظر الموسكويه إشارة من المدمرة القادمة « ولكنها لم تخاطبه »

وتحرك العقرب إلى السادسة والدقيقة خمسة وأربعين ،
وكانت المسافة بينهما لا تزيد عن ٦٠٠٠ متر . هاهما يقتربان
إلى ٥٠٠٠ متر والمدمرة الكبيرة لا تتكلم ولا تسأل وأخيراً
اضطر الموسكيه إلى أن يصعد عليه . وردت عليه المدمرة
الغريبة بأعلامها الألمانية !

انتفض « تيروين » مذعوراً . إنه « الأمدن »
وفي لمح البصر ، أرسل الأمدن خمس قنابل فلم تصب الموسكيه
ثم أتبعها بقنابل أخرى كان حظها مثل القنابل السابقة .
« إلى أما كن القتال أيها البحارة » .
« نحن في أما كتنا جميعاً » .

وكان « تيروين » يعلم أن القتال لن يكون سجالاً ، « فالأمدن »
تفوقه بكثير بفضل بطاريته القوية ، وكان لابد « للموسكيه »
العجوز أن يصمد لضربات عدوه العنيد . والفرصة الوحيدة
الباقية لديه هي الاقتراب من المدمرة الألمانية في أسرع
وقت إلى مسافة ٦٠٠ متر ليقتذفه بطوربيد فيقتضى عليه قبل
أن يعاجله عدوه بقنبلة . وصمم « تيروين » Theroinne قائد
« الموسكيه » على ذلك حتى لو كانت نسبة النجاح في إصابة
« الأمدن » واحداً إلى عشرة . فان تعذر عليه ذلك ولقي حتفه ،
فعلى الأقل يكون أرضى ضميره وصان شرف الوطن . ثم
صرخ « تيروين » في رجاله بصوته الجمهوري : إلى المحركات

والآلات. أسرعوا السير! آه! لو تمكنت من إصابته وإيقاعه ونسفه. ثم تقدم «الموسكيه» السكهل نحو «الامدن» المنقض بسرعة مخيفة على عدوه.

«هلموا إلى الطوربيد»

أنها لبسالة. أنه الجنون الإقدام. فالتقوى غير متعادلة. لقد تشابه «الموسكيه» بالرجل الذي لا يحمل إلا نبوتاً غليظاً ويحاول منازلة رجل ممسكاً بسيف مهند وجاء أمره متأخراً حيث أحكم «الإمدن» ضربته الثالثة فأصاب سطح «الموسكيه» فأطارت مقدمته ونسفت أجهزته اللاسلكية وأحدثت فجوة في القزان الخلفي فتدفق منه الماء المغلي.

— «اقذفو»!

ولكن بهم يقذفون؟

وجاءت الضربة الرابعة من «الامدن» فنسفت العدد والأجهزة والآلات فتعطل عن السير وانبطح تحت القنطرة الباقية الموصلة إلى غرفة القائد، جميع الضباط والجنود، وطار شظية أصابت «تيروين» ولكنه لم يعبأ بجراحه وزأر في رجاله.

— «ارجعوا إلى مدافعكم!»

وقام فوق الجزء الباقي من ظهر «الموسكيه»، بضعة رجال تسيل منهم الدماء على رأسهم الضابط فلديودي توري،

وقد احترق نصفه، «يصوبون مدفعاً عيار ٧٧ نحو «الأمدين»
الذى أخذ يصب نيرانه على «الموسكيه» دون هوادة.

فاضطرب «تيروين» بعد استيقانه بخيبة الأمل، لأن يطلب
من الضابط «كاريسان»^(١) الذى لم يصب بسوء «أن يتحقق
من عدم وجود مدفع يصاح للأستمال».

وما أن ترك «كاريسان» محله حتى أصابته شظية أطار
ساقه. فأخذ يزحف على بطنه لينفذ أمر رئيسه. وعاجل
«الأمدين» عدوه بضربة خامسة راح ضحيتها المهندسون
السائقون والميكانيكيون وبقية الجزء المقيمين فيه.

لا. لقد انتهى «الموسكيه». أنه يحتضر. وأخذ يخصوص
شبيئاً فشيئاً. وأطلق عليه «الأمدين» الطوربيد القاضى فغاصت
مقدمته. ووصلت المياه إلى قدمى «تيروين» الذى «كان الدم
يسيل من جرحين فى رأسه»^(٢). فصاح يلقى آخر أمر
إلى بحارته :

— «اذهبوا إلى البحر!»

وقفز بعض الرجال إلى الماء. وألقى «تيروين» إلى
رجال الجرحى رغم أصابته القاتلة، أحزمة الانقاذ، ووقف

(١) أطلق اسم «كاريسان» على الغواصة الألمانية أ.ب. ٩٩ التى
آلت إلى فرنسا طبقاً لمعاهدة فرساي. أنظر كتاب «حرب المدمرات»

جزء ٢ ص ١٢٧

(٢) أنظر كتاب «المواقع الحربية» لمؤلفه كلود فارير ص ٩٦.

« فون مولر » وضباطه فوق « الإمدن » يشاهدون هذه المأساة وقد بدأ على وجوههم التأثر الممزوج بالاعجاب من بسالة أعدائهم وغاص « الموسكيه » مع قائده البطل الذي صمد إلى النهاية رافعاً العلم الفرنسي عالياً ! . والتقط « الإمدن » ٣٦ بحاراً ، منهم ١٦ جرحى ، وضابطاً واحداً هو الملازم « كاريسان » . ويصف لنا « هو هنزولرن » هذا الموقف بقوله : « وحتى لا يكون جذب أولئك البحارة الجرحى مؤلماً ، فقد أمر « فون مولر » بأن ترفع نفس زوارق الانقاذ بجرحائها إلى سطح المدمرة حيث توجد المتاريس ، ثم نقلوا إلى غرفة الاسعاف ورددوا على الأسر (١) .

وحف الأطباء من حول « كاريسان » لتضميد جراحه . فرفض قائلاً : « أطلب منكم المبادرة باسعاف رجالى أولاً » (٢) . وكان اليوم كله تعب ونصب وأعيام ونشاط غير عادى . ويحدثنا هو هنزولرن قائلاً : « وكان أغلب البحارة الفرنسيين من غير ملابس ، فاعطيناهم ملابس داخلية وملابس رسمية . لقد كان موقف رجال « الإمدن » وهم يواسون إخوانهم البحارة المنكوبين ، مؤثراً للغاية وكانوا لا يفتأون يمدونهم بالشوكولاته والسجائر والمثلجات ، ثم نقل الملازم

(١) « الإمدن » مؤلفه جوزيف دى هو هنزولرن ص ١٤١ .

(٢) « المفازم الحربية البحرية » مؤلفه كلود فارير ص ١٠٠ .

« كاريسان » لخطورة جراحه إلى غرفة مستقلة ، وذهبت لزيارته بعد أن أجريت له العملية الجراحية . فقد اضطر الأطباء إلى بتر قدمه اليمنى . وتحمل مصيبيته في سكون وصبر ، ولكنه كان يش من شدة الألم . فأخبرته بعدد البحارة الذين أنقذوا وبحالتهم الراهنة . فأسكن هذا الخبر كثيرا من آلامه وشكرني على اطمئنانه على رفقاته في الأسر بما حدثته عنهم^(١) . ومات جريخان فرنسيان أثناء الليل .

وفي التاسعة من صباح يوم ٢٩ أكتوبر ، هرع بحارة الإمدن ، إلى سطحها على أثر مناداتهم بالبوق . « ووقف الضباط بملابس التشريفة ووقف بعض البحارة بأسلحتهم . وتقدم الفرنسيون . وتسامل الجمع ، هل سينفذ حكم الاعدام رميا بالرصاص في أحدهم ؟ . كلاهما نعشان مقبلان ملفوفان بالعلم الفرنسي ذي الألوان الثلاثة ، وهما هو القومندان « فون مولر » بملابس التشريفة وخطب القائد الألماني بلغته ، خطبة وجيزة جداً ، تعد كلماتها ، ثم التفت إلى الأسرى الفرنسيين وقال : « فلنصلي على أرواح هذين الجنديين الباسلين اللذين ماتا متأثرين بجراحهما في معركة رهيبة . » ثم ألقى النعشين في اليم ، ونكس العلم الألماني لحظة^(٢) .

(١) « الإمدن » ص ١٤٣ .

(٢) المواقم الحربية البحرية ص ١٠١ .

وهكذا ضم البحر الخضم رفات البحارين، فكان لها قبرا
وكان لهما رمسا ١ وتابع «الامدن» سيره بسرعة فائقة .

وأقبل الليل . وكان طويلا على الجرحى المكتظين في
غرفة الاسعاف الضيقة بالنسبة لعدددهم . « واتجهنا لمناوراتنا
الحربية نحو الطريق التجارى بين « بناتج ورنجون ، على أمل
الانقضاض على فريسة أخرى، فننقل اليها أولئك الأسرى
لأنزالهم في ميناء محايدة، وعندما تنفس الصبح، ووقف عقربا
الساعة على الخامسة ، لاح فى الأفق دخان ، فتوجه (الامدن)
نحوه فورا، وعندما اقتربنا منه، عرفنا فيه باخرة تجارية ضخمة
فاطمأنا على مصير اخواننا الفرنسيين . وكلف (فون مولر)
الملازم لوترباخ ^(١) يأمرها بالوقوف الاجبارى ^(٢) ،

كانت هذه السفينة التجارية سفينة انجليزية حمولتها ٣٥٠
طن واسمها (نيوبرن) أقلعت من انجلترا قاصدة (سنغافورة)
وعليها أطنان من الملح . فأوقفت آلاتها عندما تلقت الانذار .
ويقول (فارير) ^(٣) «ودخل الرعب فى قلب قومندانها عندما
علم أنه أصبح فريسة الامدن . ثم زالت عنه الغمة، عندما تلقى
من (فون مولر) ذلك الأمر :

(١) Lauterbach

(٢) « الامدن » ص ١٤٧ و ص ١٤٩ .

(٣) المواقم الحربية البحرية ص ١٠١ و ص ١٠٢ .

« حول طريقك فوراً شطر « سابانج » (١) لتوصيل
البحارة الفرنسيين إليها .

« أسرع في السير لأن الضابط الفرنسي الجريح في حاجة
ماسة إلى العلاج في مستشفى » .

فأطاع الأمر . ويردف كلود فارير قائلاً : « وقام البحارة
الألمان بنقل رجالنا الجرحى إلى « النيورن » بكل عناية، وكان
الأمير « هو هنزولرن » ابن أخ الإمبراطور يشرف بنفسه
على هذا النقل ، كما كان يحمل الجرحى ويضعهم في الأماكن
التي خصصت لهم .

ووصل الجرحى الفرنسيين إن المستشفى وارتدوا
الملابس الهولندية البحرية . ولفظ كاريسان نفسه الأخير
بعد أن شاهد رجاله وهم مستلقين على أسرتهم في « المستشفى
الصغير النظيف » الذي استقبلهم . وكانت الساعة الثانية
عشر ليلاً . وارتسمت على وجه كاريسان علامة الانسراح
لأنه أدى واجبه على الوجه الأكمل .

(١) توجد سابانج في شمال جزيرة سومطرا (أندونيسيا) (المؤلف)

إلى أرخبيل كوكوس

إن «الإمدن» الذي ظل ثلاثة أشهر يشن غاراته البحرية على بواخر العدو قد أتى بالعجائب حيث أغرق «كانيجا» و«أندوس» و«لوفات» و«دبلومات» و«ترابوك» و«كلانمايون» .

ثم ضرب مدينة مدراس وأفسد مخازن البترول فيها . وعندما حول دفته نحو «كولومبو» أسر السفينة «بورسك» وأغرق «جرينفيل» و«كينج لود» و«تيمريك» و«زيبيرا» و«فويل» وكلها بواخر انجليزية . ثم استراح قليلا في «ديجو جارسيا» حيث أخذ شحنته من الفحم وفحص آلات الإمدن وقام بتنظيفه ثم انطلق جريا وراء بواخر العدو لينزid على قائمة صيده الباقية «سان اجبرت» التي أسرها ، و«كلان جارانت» و«بونرابل» و«بن مور» و«ترويلوس» و«شيلكانا» التي نسفها جميعا . وهي أيضا بواخر انجليزية .

ويقول الضابط الأديب «كلود فارير» المشهور باعتزازه بفر نسبته : «تم كل ذلك ولم يمس رجال «الإمدن» شعرة من أسير أو يحاولوا إهانة» ، كما كانوا يعملون كل ما في وسعهم لإرسال الأسرى من المحاربين وغير المحاربين إلى أوطانهم كلما سنحت

الفرصة . حقا إن الفخر في ذلك يعود إلى الكاتبين « فون مولر » قائد « الإمدن » إن « فون مولر » غنى عن التعريف في نبل أخلاقه (١) .

وبعد ذلك اتجه « الإمدن » صوب « بنانج » فأغار عليها وأغرق الطراد الروسي « يمتشوج » و« الموسكيه » الفرنسي . وحمل من ظل على قيد الحياة من رجاله ونقلهم إلى « النيوبرن » ليعالجوا في إحدى مستشفيات « سابانج » التابعة لهولاندا . ثم أراد « الإمدن » بعد ذلك أن يقتني آثار أعدائه بحيلة المعروفة عنه ، فيهم شطر « كولومبو » أمام الباخرة « نيوبرن » ، ثم عند ، ما غابت عنه حول طريقه وانطلق إلى عرض البحر ليخيب عن أفق أعدائه . .

كيف اختفى « الإمدن » عن أعين أعدائه الذين ما فتئوا يبحثون عنه ؟ إنه لسر عجيب ، وأين اختفى ؟ . أه لو علم أعداؤه مكان اختفائه ؟ ! ولكن أنى لهم أن يعرفوه ! . ويحدثنا « كلود فاير » قائلا :

وبعد ضربة بنانج غاب « الإمدن » واختفت آثاره ! ! ودخل الرعب في قلوب البحارة ، فكانت السفن ترتعد في تجواها بين « هونج كونج » و« بحر العرب » ولم يدر الأدميرال

(١) المواقع الحربية البحرية ص ٩٨ .

« جرام » أين يوزع طراداته العشرة من انجليزية وفرنسية ويابانية وروسية وهي بعض الوحدات التي يتألف منها أسطولها في الصين . وكان وهو في سنغافورة ، دائم الانحناء على أجهزة البرق ليحرف أين كانت آخر ضربة من ضربات « الامدن » وقاتلت القلوب من غيبة « الامدن » . وكيف يصدق العقل سكون « فون مولر » من يوم ٢٨ أكتوبر إلى ٧ نوفمبر؟ ويردف « فارير » قائلاً : « ليست لدينا أنباء عن « الامدن » منذ عشرة أيام . لم تشاهد سفينة حليفة أو محايدة شبح « الامدن » المخيف في هيكله ، المنخفض العاو ، المستطيل الدقيق » .

ولما كان لا بد للسفن أن تسير في البحر رغم الذعر الذي نشره « الامدن » ، فقد أوفد الأميرال « جرام » أربع طرادات لحراسة قافلة قوامها ٢٦ باخرة بين تجارية وحاملة جنود ، قامت من استراليا في أول نوفمبر قاصدة أوربا بما عليها من قمح ورجال . والطرادات الأربعة هي : « مينوتور » الإنجليزية و« ملبورن » و« سدني » الأستراليان ، و« ايبوكي » ، الياباني . وبينما كانت في سبيلها ، ألهم « جرام » أن يأمر الطراد « سدني » بترك القافلة والاتجاه نحو الجنوب لقيوم بالاستكشاف في مضيق « لاسوند » ، فأبرق إليه بذلك

فانحدر « سدن » إلى الجنوب . وسوف يرى القارىء فيما بعد نتيجة هذا الإلهام .

وإذا كان « الامدن » قد غاب عن أعين أعدائه . فإنه ذهب ليلحق بالسفينة « بورسك » التابعة له ليتزود منها بما يلزمه من خم ووقود، وقد تواعد معها في مكان ما في عرض البحر . وكان هذا المكان بالتحديد هو مضيق « لاسوند » . وظل يومى أول وثنائى نوفمبر يتزود بالفحم وينظف آلات « الامدن » ومحركاته ، وقد بلغت دوراته على حد قول « هوهنزولرن » عشرة ملايين دورة، أى أنها قطعت ٣٠,٠٠٠ ميل بحرى . إنه رقم قياسى بديع !

وخصص « فون موار » يوم ٣ نوفمبر — بعد أن اطمأن على الوقود والآلات — لراحة البحارة، وقامت الموسيقى تصدح بشغف رقصه الفالس . ويقول « هوهنزولرن » ، « وحفزت الموسيقى كثيرا من رجالنا إلى إلاتة عضلات سيقانهم » .

وبينما كان البحارة يرقصون ، أغلق « فون موار » غرفته عليه وعلى مساعده الفذ « فون مولك » ليرتبا موقعة جديدة . واتجه « الامدن » يوم ٣ نوفمبر نحو الغرب ثم نحو الجنوب فوصل إلى مضيق « لاسوند » حيث يجوب مياهه الطراد الإستراتيجى « سدن » ، دون أن يفتن إلى وجوده ! وفى

يوم هـ ، أرسل هـ الامدن ، السفينة هـ بورسك ، نحو أرخبيل
 كوكوس أو كيلينج ، ؟؟ ماذا ينبغي هـ فون موار ، من
 وراء هذا الأمر ؟ . إن جزر هـ الكوكوس ، هي عبارة عن
 ست أو سبع جزر صغيرة اصطفت على شكل نصف دائرة
 حول بركة من المياه ، وأهم جزيرة من بينها هي جزيرة
 « ديركسيون » ، وطولها ٢٠٠٠ متر وعرضها ٧٠٠ متر
 وأمامها على بعد ١٥ كيلو متراً صخرة تلتطمها الأمواج ، أطلق
 عليها اسم (كلينج الشمالية) ولا يوجد فيها الاخران واحد من
 الماء العذب ؟ .

هذا هو الظاهر لنا ، ولكن عقل (فون موار) الجبار
 رأى ما خفى علينا . أن لهذه الجزر شأن كبير فقد أقامت
 شركة التلغرافات « ايسترن اكستنشيون »^(١) ، منذ سنة ١٩٠٢
 أسلاكاً للبرق تصل بين إنجلترا والمحيط الهندي والمحيط
 الهادي . ولولاها لما كان لهذه الجزر أى شأن . وكانت هذه
 الأسلاك مقامة على جزيرة (ديركسيون) ومن بينها
 الأسلاك التي تصل لوندن بسنغافورة وباتافيا ، ولها فرعان ،
 فرع يمتد إلى جزيرة موريس ، والفرع الآخر إلى (برث)
 (باستراليا) .

ثم وضع في هذه الجزيرة ، منذ عهد قريب جهاز للبرق

اللاسلكي من أحدث طراز، وكان كثير آ ما يتكلم عن حركات
« فون مولر » ، لذلك صمم على أن يتخلص مرة واحدة منه
ومن أسلاك البرق الممتدة في قاع البحر .

ويشرح لنا هوهنزولرن ذلك بقوله : كان على الضابط
(فون مولك) ، اليد اليمنى ، لفون مولر ، الاتجاه ببعض البعارة
إلى جزيرة « ديركسيون » لينسف محطات البرق جميعاً . ولا تخفى
أهمية هذه العملية من حيث قطع الصلة بين استراليا والهند
وزننبار .

ولا شك أن هذه المناورة فيها خطوط رتها . ولقد برهنت
الأمور فيما بعد على أن « فون مولر » لا يجيد فن البحرية
فحسب . بل أنه من أفذاذ الرجال الذين يجيدون الفنون الحربية
البحرية على حد تعبير « كلود فارير » .

إن نسف محطات البرق في جزيرة « ديركسيون » معناه
عزل استراليا عن بقية العالم فلن يمكنها إرسال القممح والرجال
إلى جبهات القتال في فرنسا وغير فرنسا، إذن ماذا يخفيه القدر
لحرب سنة ١٩١٤ ؟

وفي ٧ نوفمبر ، انطلق « الأملدن » ، صوب « الارخبيل » ،
فلم يجد « البورسك » في انتظاره حسب اتفائه معه على بعد
٤ ميلا غرب الارخبيل .

أصجر هذا الخلف « فون مولر » دون أن يقلقه . سوف يحضر « البورسك » ، بعد قليل . والتقط « فون مولر » رسالة برقية أثناء الليل تقول بأن طرادا حليفا يحجب خلال مياه « لا سوند » مستكشفها . لم يعبا « فون مولر » بهذا النبأ فلديه الوقت الكافي لتنفيذ خطته قبل وصول هذا الطراد اليه و أثر الخوض في مياه المحيط الهادى ليحرب قنابله في خليج عدن ثم منها ليسد الطريق التجارى الموصل إلى « بومباى » حيث يكثُر فيه سير السفن التجارية . وعلى كل فطرق الهرب كثيرة فى أرخبيل « كوكوس » ، إذا ما جاءت سفن الاعداء تقلقه أثناء إغارتة . وإذا لزم النزال ، نازلهم « الامدن » .

وكان الاستعداد فوق « الامدن » تاما لنسف المحطات . ولاح الفجر بضياءه ، فظهرت جزيرة « ديركسيون » كأنها خالية من الأانس ، فكل ما فيها ساكن إذا استثنينا رؤوس أشجار جوز الهند الخضراء وهى تمزكها داعبها النسيم العليل . ودخل « الامدن » فى الخامسة من صباح يوم ٩ ، خليج جزيرة « ديركسيون » ، ويقول « هوهنزولرن » (١) فى ذلك : « ونزل البحارة الذين وقع عليهم الاختيار للأغارة ، فى زورق بخارى وزورقين من زوارق الانقاذ ، وقام « فون مولر » ، يدير هذه الحركة وهو واقف فى الزورق الأول بينما تبعه

(١) الامدن ص ١٥٦

الملازم الثاني دشمدت ، في الزورق الثاني ، وكان في كل زورق
مدفعان رشاشان . وسحب الزورق البخاري الزورقين الآخرين
إلى أن أصاب اليابسة . ورفعت الزوارق الثلاثة العلم الألماني .
وبزغت ذكاء من خدرها في السادسة ، وشاهد البحارة
قنطرة بين خط الصخور الأبيض ، كما شاهدوا أيضاً بعض
المباني وبعض أكوخ يقطنها أهالي الجزيرة ، ثم محطة البرق
وصارية اللاسلكي المشرفتين على الجزيرة . وعلى بعد قليل
بدت لهم أربعة أو خمسة زوارق « ماليزية » تتأرجح في الخليج
بحوار مركب بيضاء يخيل إلى الرائي لصغر حجمها أنها لعبة
طفل ، وكان إسمها : « عائشة »

— « هلموا إن كل شيء في الجزيرة هادي ونصف أهلها نيام . »
وقفز البحارة وعددهم ٣ ضباط و ٤ جنديا إلى أرض
الجزيرة وهم يحملون ٤ مدافع رشاشة . وأرسلت المحطة قبيل
مرسى البحارة الألمان بدقائق ، إشارة تلغرافية تقول : « باخرة
أجنبية في الميناء » ثم راحت عبارات طلاب الانقاذ تدوى في
الفضاء . فلم يلقطها من يريد التقاطها ! .

هالك الإمدن

وأمرع « فون بوك » منذ أن وضع قدميه على الأرض بتنفيذ خطته . وهجم بحارته على محطة الأسلاك وأخذوا يدمرون ما فيها من أجهزة الارسل والاستقبال، ثم كسروا الخزانات الخشبية، واستولوا على ما بداخلها من أوراق هامة وسجلات الاشارات والشفرة السرية .

وأطاروا عامود الاسلاكى بلغم . ثم نزل البحارة إلى البحر ليقطعوا الاسلاك الممتدة فيه بعد جذبها إلى الأرض، ولكن الاسلاك لم تطاوعهم ، فعملوا فيها بالبلطات ولكن بدون جدوى ، فضر بوافيها بالرصاص فالتوت ولم تتكسر . ولم يكن حظ الديناميت بأحسن وكاد اليأس يستولى عليهم لولا أن جالت بخلد هم فكرة نشر الأسلاك .

فنشروا سلكا منها وهو الموصل لاستراليا ولكن هناك سبعة أو ثمانية أسلاك أخرى لابد من تحطيمها ، لكنهم لم يهتروا على أى أثر لها .

أين هي ؟ وإذا كان رجال الاسلاكى سلموا أنفسهم للأسر دون أى مقاومة فانهم لا يتكلمون وكان مدير المحطة ينظر إلى أعمال التخريب بثبات وصبر عجيبين، كما لم يجب على أى سؤال وجه اليه، مكتفياً بجذب الدخان من « غليونته »

ومرت ساعة . ثم نصف ساعة . فوجدوا سلكاً آخر
فهموا بنشره ، ولما سمعوا صفارة الأمدن تدوى في
الفضاء . ثم أخذت تشير عليهم بالألوان : « اسرعوا » . فاسرعوا في
عملياتهم بقدر ما سمحت لهم الظروف وانتهوا من نشر الأسلاك .
ومرت عشرون دقيقة أخرى .

ثم أرسل الإمدن أمراً « مقتضباً » : « اجتمعوا »
فتركوا كل شئ في هذه المرة واستقوا الزوارق ليعودوا
إلى مدمرتهم وعلى حين غرة ، أبصر « فون موك » بالإمدن
وهو يغير اتجاهه بكل سرعة نحو الشمال ، ماذا حدث يا ترى
أنه لم يشاهد دخاناً في الأفق ؟ إلى أين ذهب الإمدن وماذا
سيفعل ؟ ودوى في الفضاء صوت انفجار فجأة اهتزت منه
الزوارق الثلاثة التي لم يكن في استطاعتها اللحاق بالإمدن .
إن الإمدن قد اشتبك في عراقك . وتناثرت الطلقات ، وكان الرد
عليها مخيفاً .

فبادر « فون موك » الذي لم يرتبك بالعودة إلى الجزيرة .
ولما تركهم ساعة في مكانهم هذا ، انرى ماذا دها الأمدن . .
لقد شاهد « الأمدن » دخاناً أبيض في الأفق لم يَـمَكُن
« فون موك » ولا رجاله من رؤيته ، مقبلاً نحو الجزيرة .
فظنه « الأمدن » السفينة « بورسك » التابعة له والتي تأخرت
عن مواعدها .

ويقول « هو هنزولرن » « إن الدخان الذي رأيناه مقبلاً
علينا ظنناه « البورسك » فلم نشك في جنسيته »

ولكن البحارة المختصين بالسهر على حراسة الالمدن ،
استطاعوا أن يروا بمنظارهم بعد أن اقترب الدخان قليلاً أن
ما ظنوه « البورسك » إنما هي سفينة انجليزية واستملاوا على
ذلك بطول صواريخها . ولم تمر لحظة حتى رفعت السفينة
أعلامها البريطانية .

لذلك نادى « الالمدن » رجاله الذين أمرهم بتحميل المحطات
التلغرافية ليلاحقوا به ، وظن « فون موك » أن السفينة القادمة
إنما هو الطراد « النيوكاسل » Newcastle الذي التقط إشارات
النجدة التي أرسلها رجال النخوة عندما هجم عليهم « فون موك »
لذلك لم يعبأ بهذا الطراد لأنه يعلم أنه لا يحتوى إلا
على مدفعين قطر كل منهما ١٥٠ ملليمتر وعشرة مدافع من قطر
عشرة ، وسرعته لا تزيد على ٢٥ عقدة في الساعة ولا بد
للالمدن من أن يحطمه

ويقول « هو هنزولرن » : وكنا نظن ، رغم شدة الطلقات
التي سلتبادل بين مدمرتنا والسفينة الانجليزية ، أن الغلبة ستكون
لنا ، واسوف نخرج من هذا القتال فائزين منتصرين ، لأن
الأيام السالفة برهنت على قوة إحكام رجالنا للضربات

وشجاعتهم في وجه العدو (١) .

ويقول « فارير » : وعمل « فون مولر » حسابه ليعطب
الباخرة الانجليزية بضرب جدرانها ثم يطلق عليها طوربيداً
فيها سكا (٢) .

ولو ثوق « الامدن » من قوته واعتداده بنفسه ، بدأ
بإطلاق قنابله وهو على ٩٠٠٠ متر فردت عليه السفينة
البريطانية بطلقة أخطأت به بادية الأمر . ولكن الماء الذي
كانت ترفعه هذه القنابل يدل على أنها من قطر كبير ، أكبر
من « النيو كاسل » . إذن ليست هذه السفينة النيو كاسل !
واقترب « فون مولر » من عدوه ليضربه بضربة محكمة .
وكانت ضربات « السدن » — لأن هذه السفينة إنما كانت
المدمرة « سدن » — في غاية الإحكام بعد ذلك ، رغم أنها كانت
على مسافة ٧٠٠٠ متر ، ولا يخفى على القارىء أن هذه المدمرة
كانت في قوة الإمدن أو تفوقه .

وهبطت القنابل الواحدة تلو الأخرى على الامدن ،
فأطارت محطة اللاسلكى ونسفت أحد مدافعه وجاءت
القنبلة الثالثة فدمرت مكبرات الصوت الخاصة برجال
البطاريات ، مما اضطر « فون مولر » إلى إصدار أوامره بقوة

(١) انظر (الامدن) صفحة ١٥٧

(٢) انظر المواقع الحربية البحرية صفحة ١٢٤ .

صوته الجمهورى وسط الانفجارات، فكانت الأوامر لاتصل إليهم على تمامها كما أن «الأمدين» فى هذه المرة أيضا أخطأ غريمه بضمير بانه :

وبعد خمس عشرة دقيقة مرت بين أتون النيران المتبادلة، تهدمت صواريخ ومدافع الإمدن واكتسحت مدافعه وتطايرت أشلاء رجاله ومات أكثر الضباط وتعطب محرك الدفة، وقتل الرجال المكلفين بها ! لقد انك «سدنى» قوى «الإمدن» .

ويقول «فارير» : وربما ينجو الإمدن لو أحكم ضربة واحدة . فأنطلق فى سيره نحو المدمرة الاسترالية ليقرب منها فيصيبها الإصابة التى يتوق إليها (١) .

وفى بعض ثوان ، أرسل «سدنى» قنبلة على ظهر الأمدين المصنوع فجاءت فوق غرفة قذف الطوربيد، ويقول «هونزولرن» وعلى أثر هذه الضربة تصدعت القنطرة، مما جعل الماء يتدفق إليها والغاز يكتنفها .

فقام بعض البحارة بسدّ الفجوات بالأخشاب التى كانت لديهم (٢) .

لم يهتم الأمدين بهذه الكوارث المتلاحقة . وظل يقترب

(١) المواقع الحربية البحرية ١٢٥ .

(٢) الامدن صفحة ١٥٩

حتى وصل إلى ٣٠٠ متر مؤملا في الطور بيد الباقي لديه
أن ينقذه .

وكان علي « هو هنزولن » نفسه أن يقذف هذا الطور بيد .
فدخل هو ورجاله إلى الغرفة المصفحة وقد أصبحت فجوة
من جهنم . وسمع دوى بعض القنابل وهي تسقط على الإمدن
وجاء بعضها فوق رأسه فكادت الغازات المنبعثة من
الانفجارات أن تقتلهم رغم ما وضعوه على أنوفهم من قطن
واق (لم تكن الأقنعة الواقية اخترعت بعد) .

ويردف « هو هنزولن » قائلا : « وكنا نسمع من وقت
لآخر هذا النداء : (إلى الطور بيد) فرد قائلين : نحن على
استعداد ، فيأتي الأمر (استعدوا للدفاع عينا)

فوضع فوراً الطور بيد في أنبوبته . « وكنا جميعا في منتهى
السرو والانشراح بمجرد تفكيرنا في إصابة العدو . ولكن
أمل ضائع ^(١) .

لقد تفادى « سدن » الطور بيد بسرعة وأخذ يكيل
الضربات للإمدن دون رحمة ولا هوادة ، فلم يبق على
طور بيده . وهنا جاء الأمر إلى « هو هنزولن » بالخروج
من مكانه قبل أن تغمره المياه فخرج ومن معه من الرجال

(١) الإمدن صفة ١٦٠ .

إلى سلاح الطراد فيها لهم ما رأوا من بشاعة المنظر ، فلم يصبح
 « الإمدن » إلا مجموعة من الحديد والدماغ . ومع ذلك لم
 يسلم « الأمدن » نفسه بل أفهم « سدني » بدوام طلقات
 مدافعه « بأنه لن يرضى بالأمر وسيقاوم إلى آخر رمق » كما
 يقول فارير .

ولكن « الإمدن » وصل إلى حالة النزاع الأخير .
 فليس فيه مدفع أو مدخنة أو صارية على حالتها ويقول
 « هو هنزولرن » : « وهنا ، صمم « فون مولر » على عدم التسليم ،
 وجنح إلى صخور المرجان المتناثرة في جزيرة « كيلنج الشمالية »
 لينسفه هناك حتى لا يقع في أيدي الأعداء من جهة ومن
 جهة أخرى ليبقى على حياة البحارة الذين سلموا من الموت
 حتى الآن ، لأنه إن لم يفعل ذلك فسيجعل رجاله يستهدفون
 لموت محقق (١) .

فسارع على قدر قوة ما تبقى له من الآت ، إلى الجزيرة
 ويقول « هو هنزولرن » : واستطاع فون مولر أن ينجو
 بأعجوبة من « السدني » وهو يمتدح عباب أليم بسرعة ١٩ عقدة
 فقط . فاتجه بدمرته نحو الشمال حتى وصل إلى جزيرة كيلنج
 حيث تمكن من الاختفاء بين صخور المرجان .

(١) « الإمدن » صفحة ١٧١ و ١٧٢ .

ويردف « هو هنزولرن » قائلا : « وعند ما وصل
الإمدن إلى صبخور المرجبان ، أوقفنا آلاته واطفأنا نيرانه
التي ما فتئت تشتعل حتى ساعة وصولنا إلى هذه الجزيرة » .
وكما أن القلب المريض يذبض ببطء إلى أن يقف عن
الحركة ، فإن آلات الإمدن أخذت تتضاءل حركتها إلى أن
وقفت . وكانت الساعة ١٥, ١٢ من يوم ٩ نوفمبر سنة ١٩١٤
لقد دامت معركة الإمدن العملاق ، ساعة وأربعين دقيقة
مستظل ماثلة في صفحة التاريخ .

حول الحطام

وفي الحادية والدقيقة خمسة وعشرين ، استعد «جلوسوب» Glossop قورمندان «سدني» لأن يقذف العلم الألماني الذي ما زال يرفرف على ما تبقى من هيكل «الإمدن» ، ولسكنه أبهر بدخان في الأفق فظنه الطراد الألماني «كونجسبرج» Königsberg فأمر رجاله بالذهاب إليه لمقاتلته .

ويقول «فارير»^(١) : ما أجمل هذه الضربة المزدوجة التي حظي بها «السدني» ، لقد انطلقت المدمرة الأسترالية في سرعة فائقة نحو السفينة الجديدة ، ولكن سرعان ما خاب أمل جلوسوب وهبط حماسه حيث كانت السفينة المقبلة ، «البورسك» حاملة الفحم والوقود «للإمدن» وقد تأخرت عن موعدها . . وأطلقت «البورسك» مدافعها رغم يقينها بالهلاك رداً على «سدني» وكان بحارتها في نفس الوقت يستعدون لنسفها حتى لا تقع في أيدي العدو . . وغاصت في اليم وسارع «جلوسوب» بالتقاط البحارة الألمان ليعود إلى حطام الإمدن ليأمره بالتسليم .

ويقول «فارير»^(٢) : ووقفت المدمرة «سدني» على بعد . . . ٤٠٠ متر من المدمرة الألمانية فشاهدت عليها الألماني وهو

(١) و (٢) المارك الحربية البحرية صفحة ١٢٦ و ١٢٧ .

يشرف من عل على هيكلها المحطم . وفكر القوم منذ ان الاسترالى
 دنيته فى قذفها بقنا بله ، ولكنهم عدل عن ذلك . وأمر برفع
 أعلام الاتفاق الدولة التى قام نسيم المام يداعبها .

« هل تقبلون التسليم ؟ »

ولكن « فون مولر » ظل صامتاً .

وعاد جلوسوب يقول :

« هل تستسلمون ؟ »

ولكن سؤاله ظل دون جواب . وظل العلم الألمانى

يرفرف عالياً .

ويقول « فارير » : وانغناظ « جلوسوب » وحنق على

هذا العلم فأمر رجاله بضربه (١) .

وقامت حرائق جديدة على حطام « الإمدن » وقتل عدد

من بحارته . ومرت الدقائق طويلة على « جلوسوب » ، وتسامل

لماذا صمم رجال الإمدن على ترك علمهم يرفرف بينما انتهت

مدمرتهم ، ولماذا يعرض « فون مولر » رجاله للمهلك المحقق ؟ .

لعل « الإمدن » خالياً من رجاله . وحملاق « جلوسوب » فى

منظاره فرأى رجالاً على الحطام يصمدون خلف الحدايد

والأخشاب المتبقية من المدمرة السيئة الحظ (٢) .

(١) المراك الحربية البحرية صفحة ١٢٦ و١٢٧ .

(٢) « الإمدن » صفحة ١٧٦ .

ودخل الغم قاب ذلك الاسترالى الخشن ؛ لا شك أنه
كسب المعركة وقضى على «الإمدن» ذلك العملاق الخفيف ،
وضمن للحلفاء طارق الملاحة التجارية ، ولا شك أن الحكومة
فى لندن ستسمر لهذا النبأ . وسينال الفخار والتقدير من وطنه
ومن الامبراطورية الانجليزية . وربما ينال لقب « سر » .
ولسكن من المحقق أن يرتفع إلى رتبة أميرال . وسوف
يسجل التاريخ اسم «المدمرة سدنى» مقرونا باسمه . ثم تلاشت
فرحة النصر عنه فجأة . أنه يعلم حسن حفظه فى القضاء على
«الإمدن» الجبار الذى نشر الرعب حينما من الزمن ، ويعلم
كيف دافع «الإمدن» عن نفسه دفاع الأبطال البواسل ،
إذن فيستحق «الإمدن» كل احترام . . . ودخل الإعجاب
برجال هذه المدمرة الألمانية ، قلب «جلوسوب» بصفته
بحارا قبل كل شيء . ومن صفته البحار أن يكون كريم
الخلق . . . ولسكن طالما أن هذا العلم الألمانى يهتز فلا بد
لجلوسوب أن يضربه .

وأمر باطلاق قذيفة أخرى .

ولما كان الإمدن قد احترقت منه الاشارات الدولية
المتفق عليها بحرياً ، فأمر «فون مولر» بارسال برقية «مورس»
يقول فيها : «أنا لا أفهم . ليست عندى شفرة «الاشارات» .
ويلوح أن «جلوسوب» لم يفهم معنى هذه البرقية حيث

يقول «هونزولرن»^(١) : «لا ادرى ماذا فهم الانجليز من برقيتنا . ولكن كم كان اندهاشنا كبيرا عندما واصل «سندس» ضربنا بلا هوادة ، وصاح فينا «فون موار» على الفور :
« ليس هو بنفسه من يجيد العوم منكم »

فقفز إلى الماء بعض البحارة وحاولوا الوصول إلى الجزيرة . فمنهم من وصل اليها ومنهم من قضى نحبه تحت الأمواج المتلاطمة .

ثم هدأ غيظ «جالوسوب» عندما رأى العلم الأبيض يرتفع من «الامدن» المحطمة . وأمر بوقف النار .

ويشرح لنا هونزولرن^(٢) هذه المأساة قائلا : إن قانون التسليم يحتم وجود أسلحة سالحة للاستعمال معنا ولكن مدمرتنا لم تكن إلا حطاما ليس فيها سلاح واحد صالح للاستعمال . فلم تكن المسألة إذن مسألة تسليم . ولقد أنزلنا العلم لأن «الامدن» ، وقد أصبح حطاما ، لم يكن من حقه أن يتركه مرفوعا ، كما أن سفنك الدماء بعد الحالة التي وصلنا اليها ، كان غير ذي معنى . ومع كل فقد نسيت العلم مرفوعا لأننا عندما اختفينا بين صخور المرجان ، كان لدينا من الأعمال ما هو أهم من تنزيل العلم .

(١) «الامدن» صفحة ١٧٦ .

(٢) إن منامرات البحارة الذين نزأوا من الامدن وصعدوا إلى جزيرة «دبركسيون» تستحق أن يفرد لها باب خاص (المؤلف)

ولم يخبرنا « هو هنزولرن » عن هذه الأعمال الهامة وطبيعتها ،
ولكننا نفهم منها أنهم كانوا مشغولين في حرق الشفرة
الخاصة بالإشارات ، وسجلات المدمرة والخطط الحربية
والأوراق السرية ، أى اتلاف كل ما يمكن أن يستفيد به العدو .
ويردف « هو هنزولرن » قائلا : وبعد أن أفلعت المدمرة
الاستراتيجية عن ضربنا ، أرسل قومندانها أحد رجالنا من
وقعوا في الأسر عند غرق الباخرة « بورسك » وهو الملازم
« فيكتورش » وبصحبته بعض البحارة . ثم أخذ « السدنى » طريقه
نحو الجزيرة ، فظننا أنه يريد أن يحمل معه رجال « فيون مولك »
الذين عاثوا الفساد في محطات اللاسلكى . كما ظننا أنه لا بد
أن يأتى إلينا فى صباح اليوم الثانى .

ويخبرنا « فارير » بأن الغرض من ذهاب « سدنى » إلى
جزيرة « ديركسيون » هو الاطمئنان على محطات البرق فيها .
ووصلت المدمرة الاستراتيجية عند الجزيرة فى الليل .
وعند ما تنفخ الصبح ، وجد « جلوسوب » محطة البرق قد
تخطمت كما لاحظ تكسير الأسلاك الممتدة فى البحر إلا
سلكا يمكن استعماله فى الإشارات البرقية نوعا ما . ولكنه
لم يجد أثرا لبحار الماء فى الجزيرة . والسبب يرجع إلى
أنهم استقلوا زفاحا كان فى الميناء وانطلقوا به إلى عرض
البحر . .

وفي هذه الأثناء ، كانت تجرى فوق « الإمدن » عمليات
النقاء الموق في البحر بعد وضع الأثقال عليهم ، وتضميد
جراح من هم على قيد الحياة ، بما تركته الحرائق من قطع
الملاءات والمفارش والفضوط (المناشف) ، وازواء غلة عطش
الجرى بما يوجد من ماء في المواسير التي لم تأت عليها شظايا
القنابل ، فكانت الأم البحارة كبيرة .

ويقول « هوهنزولرن » : « وكنت أمشي على بطني بين
حطام مقعد السفينة وهو محل إقامة ربانها لأبحث عن صديق
« لفتزوف » فوجدت جثته مهشمة بجوار أحد الصواري
المنسوفة ، فتعرفت عليه بشكل رأسه ويديه وما على كم سترته
من علامات تدل على أنه ملازم .

ويقول « هوهنزولرن » عندما شاهد أشلاء صديقه :
« لقد حزّ الألم في قلبي لوفاة صديق وزميلي في الحرب » .

وأقبل الليل بظلمته ليزيد من وطأة الموت الذي تفشى
على حطام « الإمدن » . وكان « فون مولر » يحاول جاهدا
أن يخفف من ويلات وآلام بحارته بكلماته التشجيعية .

وأخيراً عاد « سدن » في يوم ١٠ نوفمبر من جزيرة
« ديركسيون » ، واقترب محترساً بقدر الامكان من حطام
المدبرة الألمانية الراسية بين صخور المرجان ، ثم أرسل رسولا
من قبله مع زوارق الانقاذ ، وظل رجال المدبرة الاسترالية

ينقلون الجرحى من « الامدن » من الظهر إلى الساعة الخامسة عصراً ، وكانت عملية شاقة بالاريب ، لأن الأمواج كانت تتلاطم بشدة في هذه المنطقة الصخرية . وابتدأت عملية الانقاذ بنقل الجرحى الذين هم في حالة خطره ثم ذوى الجراحات الخفيفة . ثم الذين لم يصابوا بسوء ثم الضباط . وانتقل ركب « الامدن » إلى « سدنى » ماعدا « فون مولر » الذى ظل واقفاً على « الامدن » بخيلائه المجهود . كيف يتسنى له ترك مدمرته وقد أصبحت جزءاً لا يتجزأ من جسمه بل من قلبه وروحه ؟ إن « فون مولر » أحب مدمرته حباً جماً فاق حب الوالد لفائدة كبده . وشعر « فون مولر » بثقل فوق قلبه . إنه ألم الرذاع الأليم الذى لا يشعر به إلا أبناء البحار الذين اتخذوا من البحر أباً ومن المدمرة أمّاً ومن البحارة أولاداً وإخواناً . وقف « فون مولر » فوق حطام أعز شىء لديه فى الدنيا بعد نفسه ، فوق « الامدن » صامتاً لا يتحرك ولا يتكلم ، يرسل نظرة على شريكته فى الحياة ، فينقلب اليه البصر خاسئاً وهو حسير .

ولم يستطع « جلوسوب » إلا أن يمجد هذا البطل الألماني الذى كان اسمه يرعب السفن ويمز القلوب . فأرسل اليه زورقه الخاص . واشتد الألم على « فون مولر » عند رؤية هذا الزورق الذى يحمل فى ظاهره النجاة وفى باطنه النفى والأسر ويقول « فارير » وعند ما وصل إلى « سدنى » استقبل

استقبالا يليق ببطلوته، فكان استقبالا رائعا لا يقام إلا لقائد
عاد منتصرا من المعركة .

ثم سول « السدني » وجهته إلى « كولومبو » Colombo
ومر بالمنطقة التي فقد فيها « الإمدن » سبعة من ضباطه
ومائة وعشرة من بحارته ، ثم قابلته سفينة في طريقه فحياها .
وكان « جاوسوب » كثير الاهتمام « بفون مولر » فأجلسه
في غرفته الخاصة . وتبادل بحارة « السدني » مع بحارة
« الامدن » المائدة والأشوة ، فقاموا يقاسمونهم السجائر
والشوكولاته والملابس والكتب . وارتدى البحارة الألمان
الملابس البحرية الانجليزية وقاموا يحتسون البيرة ، تلك البيرة
التي حرموا منها الانجليز مدة من الزمن .

وأما الجرحى فكانوا في غرفة الاسعاف ، وكان الانجليز
يسهرون عليهم ويهتمون بالعناية بهم إلى حد يوجب
الاشادة بهم مدى الدهر .

وعندما وصلوا إلى « كولومبو » جاءت المدمرة الانجليزية
« همبشاير » Hampshire لنقل « فون مولر » وبحارته إلى
جزيرة « مالطة » حيث أودعوا الأسرى في يوم ٦ ديسمبر
سنة ١٩١٤ في قلعة « سان سلفاتور » S. Salvator تم في قشلاق
« فردالا » Verdala حيث لقوا من الجيش الانجليزي بعض
معاملات سيئة ، وشتان ما بين رجال أخلدوا إلى الأرض
وبين من طهرت المياه سجاياهم وأخلاقهم .

وبالرغم من أن النفي والأسر كانا صعبين على نفوس أولئك الأبطال الألمان ، فإن بارقة من السرور والارتياح دخلت على نفوسهم عندما كانوا يقرءون في الصحف الإنجليزية الاشارة بعمليات ومغامرات الإمداد البحرية .

ولقد قالت جريدة «الديلي كرونكل» Daily chronicle إن قومندان «الإمدان» لم يظهر مهارته وشجاعته كضابط بحار ذي كفاءة ممتازة وبسالة تستحق التنويه فحسب ، بل أنه أظهر من كرم الخلق مع رجال السفن التي أسرها ما يؤثر فيذكر . ولقد وجب علينا الاعتراف بذلك .

وجاء في «الديلي نيوز» : « أن الشعب الانجليزي لشديد الأسف على شيء واحد إلا وهو فقدان «الامدن» عددا كبيرا من رجاله . . إن اسم «الامدن» سيظل كاسم «الاباما» Alabama حيا في تاريخ البحرية »

وقالت «التايمس» Times : وإذا كان قتال جميع الألمان يشابه قتال قومندان «الامدن» لما أصبح الشعب الألماني مكروها من العالم بأسره . . . وإن التايمس لهلى حق .

ظل ركب «الإمدان» في جزيرة مالطة إلى عام ١٩١٩ ويقول « هو هنروارن » في نهاية قصته ما يأتي :

« لقد دقت ساعة الخلاص لي يوم ١٢ نوفمبر سنة ١٩١٩ ، ولا أستطيع وصف ما غمر قلبي من الغبطة والسرور في تلك اللحظة .

إننى أصبحت حراً فتركت مالمطة فى مساء نفس اليوم بصحبة الكونت « برنارد فون ماتوسكا » Bernard Von Matuska على باخرة إيطالية أوصلتنا إلى « سيرا كوزا » Syracuse يوم ١٢ نوفمبر . ثم أكملنا سفرنا بالقطار عن طريق « ميسينا » « نابولى » « Messine-Naples » حتى وصلنا إلى روما . وتركنا هذه المدينة مساء يوم ١٤ منه إلى « ميلانو » Milan ومنها إلى « زيوريخ » Zurich حيث استقرضنا فيها ٣٦ ساعة . وفى عصر يوم ١٧ نوفمبر وصلنا إلى « كونستانس » Constance حيث كان والدى فى انتظارى . وفى الساعة التاسعة من يوم ١٨ نوفمبر سنة ١٩١٩ كنت ولله الحمد فى « سيجارينجن » Sigmaringen مسقط رأسى العزيز .

لقد قضيت خمس سنوات من أحسن سنى شبابى فى المعتقل أقاسى بؤس الأسر . . خمس سنوات عرفت فيها الخامسة والرفعة كما ذقت فيها مرارة العيش . لقد حاربت بشرف وقت بواجبى نحو وطنى بقلب ملؤه الحب والوفاء لبلدى العزيز . ولقد شربت من كأس الهموم والآلام ، وما ضاع منى من آمال ، ضاع إلى الأبد . ومع كل ، فأنى احتفظ فى قلبى بذكرى عزيزة تخفف من أوجاعى ألا وهى خدمتى فى المدبرة « إمدن »

عائشة

ولنهد إلى الملازم «فون مولك» رئيس البعثة التي اختصها
«الأمدين» بتخريب ونسف أجهزة البرق في جزيرة
«دير كسيون». إنه لم يستطع اللحاق بالدمرة. فأثر العودة
إلى الجزيرة مع رجاله الستة والأربعين . .

وما أن وصل «فون مولك» إلى الجزيرة حتى تساقط سطح
أحد البيوت، وأخذ يتابع بمنظاره المعركة التي كانت تدور
بين «الأمدين» والدمرة الاسترالية «سدني» .

واستيقن عندما شاهد شدة المعركة بين المدمرتين، أن
الغلبة لن تكون في هذه المرة لدمرته التي بذت الرعب حينما
في البحار. فإن القنابل كانت تتساقط محكمة على «الأمدين»
وكان قلبه يتمشى في صدره من شدة الغضب والضجر والغم
أثناء متابعته هذه المعركة الخفيفة بمنظاره. ومرت الدقائق
سراعا. وغابت المدمرتان عن ناظره بين طلقات المدافع
ونيران الطوربيد، متجهتين نحو الشمال .

رفع «فون مولك» المنظار عن عينيه، وهو لا يأمل
اطلاقاً في نجاة «الأمدين». وعاد يفكر في موقفه الدقيق
فوق الجزيرة الثائية هو ورجالها لا بد له أن يقوم بأي عمل
ينقذه من المأزق الذي أصبح فيه .

لم تنسه هذه المواقف التي تشيب لها الرؤوس، رفع

العلم الألماني فوق الجزيرة ، نعم سيناضل العدو بكل ما أوتي
من جرأة وشجاعة ، حتى ينتقد شرفه العسكري . ثم ماذا ؟
لا شك أن قتابل « السدني » ستستنفهم جميعها بعد أن
تكون قد أتت على « الامدن » ، ثم هناك الاسر بعد نفاذ
الذخيرة ، ثم السجن في « سنغافورة » أو في أي مكان آخر إلى
أن تضع الحرب أوزارها . إنه مستقبلي لا يحسد عليه إنسان !!
واستاء « فون موك » من وجوده في هذا « الحيف بيض » ،
ورأى أن يكون فريسة سهلة للاقتناص . ففكر في الهرب ،
الهرب قبل مجيء « السدني » ، أو أي باخرة أخرى من بواخر
الحلفاء ، يكون سكوت هذه المحطة الهامة قد دفعها إلى معرفة
ما يدور في جزيرة « ديركسيون » وصرخ « فون موك »
في رجاله يجمعهم . ثم ذهب بهم إلى الميناء ، حيث توجد
سفينة صغيرة كان قد لاحظ وقوفها في الفجر . عندما غزا
الجزيرة . كانت هذه السفينة تحمل اسم « عائشة » وقد كتب
بالمداد الأسود على جدارها الأبيض .

ولكن « عائشة » كانت مهمة منذ مدة طويلة حتى أصاب
العطن أخشابها من طول مكثها في الماء دون حراك . كانت
هذه السفينة تستعمل فيما مضى لنقل ثمار جوز الهند إلى الجزيرة
ولكن أحدا لم يحاول ركوبها بعد ركودها الطويل . فهي
لن تتحمل أي إصابة ، ولكن الضابط الألماني صمم على ركوبها

قائلا : أفضل أن يكون البحر لى رسا من أن استسلم للعدو^(١) .
 واستيقن أهل الجزيرة من كلام « فون موك » أنه حقيقة
 ابن بحر خلق ليأمر وليطاع ، فقاموا من تلقاء أنفسهم —
 خشية بأسه — لاجتياز كل ما ظنوه أنه فى حاجة إليه لرحلته
 الغامضة . فجاءه بالماء العذب وبالأكل على مشهد من الإنجليز
 المقيمين فى الجزيرة الذين كانوا يمزون اكتافهم قائلين :
 « إنهم مجانين ، إنهم يلقون بأنفسهم إلى التهلكة ! »

وقام رجال « فون موك » ، وثلاثة أرباعهم لم يضعوا
 أقدامهم فى سفينة شراعية ، بالإصلاحات اللازمة كما لو كانوا
 نوتين حاذقين لمهنتهم . وكان جهد البحار منهم يعادل جهد
 أربعة . فرتبوا أدوات المركب ، وأصلحوا البكرات ،
 ونشروا الأشرعة ، وشدوا الحبال ، بينما كان دوى المدافع
 يسمع من بعيد : — أسرعوا أسرعوا ! وأسرع البحارة
 بتجهيز كل شىء ، لأن « السدنى » إذا وصل إلى الجزيرة قبل
 أن يغادروها ، فإنه سيقضى عليهم لا محالة^(٢) .

واختفت الشمس ، وقام النسيم العليل ، وكان كل شىء
 مجمزاً على السفينة الشراعية ، وعندما عسعس الليل ، سحب
 الرفاص الذى كان استعمله « فون موك » للسطو على الجزيرة ،
 السفينة « عائشة » مع زورقيها ، وصعد « فون موك » إلى أعلى

(١) المواقع الحربية البحرية ص ١٣٢ .

(٢) انظر ركب « عائشة » تأليف « فون موك » .

الصاري ليدل الركب على الطريق بين صخور المرجان
الخطرة . ولكي يخذع الانجليز الذين كانوا يرمقون حر كانه
في اندهاش ظاهر ، اتجه كمن يريد السواحل الأفريقية . . .
حتى إذا جاءت «السفن» تستنجر عنهم ، أخبروها بوجهته
الخادعة ، فلن تجد له أثرًا مهما طال بحثها عنه .

واجتازت عائشة الميناء وتبدأ حسب أمر «فون موك» .
ثم انطلقت إلى عرض البحر ميممة كما قلنا ، نحو السواحل
الأفريقية في الظاهر . . حتى إذا غاب «فون موك» عن رؤية
الجزيرة ، ترك الرفاص وحاله ، ثم حول اتجاهه نحو الشمال
الغربي ، وقامت «عائشة» يداعبها النسيم ، فسلكت طريقها
في اليم ، كما لو كانت في أيام صباها . ولكن أمامها ٨٠٠ ميل
لتصل إلى أول ساحل . فهل في استطاعة هذه السفينة العجوز
أن تتحمل هذا السفر الشاق ، وسط الأمواج المتلاطمة ،
ولا يزيد وزنها على ١٠٠ طن ، وجدرانها تتماسك بمعجزة
ستسير في البحر ليالي وأيام طوال . . وكانت أخشاب عائشة
تئن تحت ثقل ركابها ، فهل تقوى يا ترى على احتمال الأعاصير؟
الأعاصير التي لا تعرف الرحمة ؟

ولكن «فون موك» كان يسير على بركة الله ، كان
«فون موك» ذلك البحار الجريء الذكي المفسكر ، رقيق الشعور ،
قوى العقيدة ، فأفهم رجاله الذين بدأ الخوف يساورهم من

الركب ، بأن « عائشة » هو اسم زوج الرسول الكريم ، وأنه وضع نفسه تحت رعايتها ، فستنقذهم أجمعين (١) .

وابتعدت الركب . وهى أشبه فى حجمها الضئيل بالنسبة للكون ، بالعصفور فى أجواء الفضاء . ولكنها تحمل الرجل الثانى الذى كانت تعتمد عليه « الإمدن » وبصحبه ٤٦ بحاراً اندفع الركب تحت رعاية « عائشة » زوج رسول الاسلام وأنها سترحل بهم إلى بلاد الإسلام . . (٢) .

وبدأ « فون موك » ينظم نفسه على ظهر « عائشة » التى تحولت إلى سفينة حربية ؛ وكان عليه أن يأوى ٣ ضباط و ٤٦ رجلاً فى المكان الذى كان مخصصاً لضابط و ٦ بحارة من أهل « ماليزيا » . إنها المعضلة !

وغص المخزن الوحيد فى هذه السفينة بالبحارة ، مما ضايق الصراصير التى كانت مطمئنة فيه منذ زمن بعيد . فلم يذق البحارة طعم النوم ، فكانوا فى هذا الحيز الضيق عبارة عن اكوام من الأجساد . وكان اهتزاز السفينة يقذف بهم على بعض ، وأراد بعضهم أن يصنع من الجبال المتآكلة وخرق التيل ، اسرة متأرجحة ؛ فكانوا عند ما يلطم الموج أركان السفينة ، يقعون على إخوانهم ، مما أرق الجميع . أما الضباط فكانت لهم حجرتان ، غير أنهم أعادوا

(١) رك عائشة « فون موك » .

(٢) المواقع الحربية والبحرية .

إحداها لحفظ المؤن ، وحتى لا تصل الصراصير المعالونة إليها
سدوا جميع الشقوق التي كانت فيها ، ولكن هذه الدويبات
توصلت إليها رغم هذه الحيلة من شقوق أخرى لم يروها .
وحرموا من ألوان الطعام ، فليس عندهم إلا موقد واحد
صالح للاستعمال نوعا ما . فكانوا يضعون على ظهر المركب
أجزاء من الصاج ، ثم يوقدون عليها مستعينين في طهيهم بماء
البحر المالح لقلة الماء العذب ، لأنهم وجدوا صفيحتين من
الأرصفة التي ملؤها ماء قبيل مغادرتهم جزيرة « ديركسيون » ،
فقد أكلهما الصدا وأسن ماؤهما ، ومع ذلك فإنهم أخذوا
في حكمهما ، حتى رفعوا عنهما الصدا ، على أمل انتظار ماء
الأمطار لملئهما ، واتفق الركب على أن يشرب كل منهم
نصف قدح ماء في اليوم الواحد ، إلى أن تهطل الأمطار .
ودفع حب الاستطلاع البحارة إلى التفتيش والتنقيب
في أركان المركب ، فعثروا على جهاز لقياس الأبعاد ، وعلى
ساعات ، ومؤلف في التعليمات البحرية الخاصة بالمحيط
الهندي يرجع تاريخه إلى سنة ١٨٤٥ ، وخريطة كبيرة للسير
في هذا المحيط ، إلا أنها كانت خالية من البيانات . ثم عثروا
أيضا على دليل في علم الفلك للبحارة طبع في سنة ١٩١٢ .
فاستنتجوا على ضوء هذا التاريخ أن « عائشة » كانت صالحة
للملاحة حتى سنتين ، ياله من حظ ، لقد أصبح في مقدورهم
بفضل هذه الأجهزة ، وتلك المؤلفات ، أن يتحسسوا

الطريق . . إنهم على كل حال أسعد حظاً من « خريستوف
كولو موبوس » الذي لم يكن معه مثل هذه الأدوات .

ورمى « فون موك » برأسه إلى الوراء ، وضحك بملء
شدقيه تلك الضحكة التي لا يعرفها إلا أولاد البحار المتفائلين .

ليس هذا كل ما عثروا عليه . مهلاً إنهم عثروا في ركن
مظلم من أركان المركب على شيء يشبه النسي ، فأصابعوه ،
ونفخوا فيه ، فأحدث صوتاً ، ففتشوا قائلين : ما أحلى الحياة
هنا على نعمة الموسيقى ، واستبشرت القلوب وأخذ أحدهم
يشنف آذان أخوانه بنغمة أغنية شعبية المانية .

إنه لعجب حقاً . ستة وأربعون رجلاً تائهون في البحر
الخضم ، يرفعون أصواتهم بالغناء . وليس لهم أديم إلا من
الماء ، ولا غطاء إلا السماء .

إلى « بادانج » على بركة الله

واتجه فون موك ، نحو الشمال .

وقامت الأمواج تضرب السفينة من خلفها ، مما جعل
الزورقين الصغيرين الموثوقين وراهما يرتطان بها ، ويعوقان
سيرهما ، فأمر « فون موك » بقطع الحبلين فانفصل الزورقان .
ثم جاءت العواصف بدورها وهطلت الأمطار . وسارع
البحارة إلى ملء جميع ما عندهم من أوان ، من هذه المياه
السموية ، وأخذ بعضهم في حلق لحية وشاربه ، وفضل

البعض الآخر تركهم ، ولكنهم اتفقوا جميعاً على قص شعر
رءوسهم ، فكان كل واحد منهم يقوم بحلق رأس زميله . وكان
منظرهم مضحكاً حقاً . فقال لهم قائدهم مازحاً : « من أراد منكم
الاناقة فعليه أن يستعمل ماء البحر بدل ماء الكولونيا » .

وبالرغم من مزاح القائد الألماني على هذه السفينة ، فإن
الطاعة كانت عمياء . فكان كل بحار منهم يقوم بالعمل المنوط
به بكل دقة ، من تنظيف ظهر المركب والمدافع الرشاشة
والبنادق والمسدسات . كما كانوا يقومون بالتمرينات الرياضية
على أنواعها ، مما قوى فيهم العزيمة وزاد في روحهم المعنوية
وكلموا اقتربوا من خط الأسوار . كلما قامت الزوابع
الموجاء . وكانت الأثرعة لا تتحماها . فكانت تتمزق عند
كل لفحة منها ، وكان البحارة يرقعونها بالخرق الموجودة
أصلاً في السفينة ، ثم اضطروا إلى استعمال ملابسهم المصنوعة
من التيل لترقيعها فاذا ما استمر الحال على هذا المنوال
لما وجد البحارة ما يسترون به أجسامهم فيما بعد .

ويقول « فاير » : « وتطور المركب الألماني شيئاً فشيئاً
حتى أصبح البحارة عبارة عن قراصنة قد طالت لحاهم بقدر
ما تعرت أجسامهم » .

ولكن الأمواج والأعاصير لم ترأف بضعف « عائشة »
فكانت تهاجمها من كل جانب حتى كادت تفصل منها بعض
الأجزاء ودخلت المياه إلى قاعها ، واسوء حظهم كان

جلد « الطالبة » المأصدة تالفاً ، فقصده أكلته الصراصير ،
 وارتفعت المياه ، فاستمضوا بالخرق المبللة بالزيت بدل الجلد
 المتآكل ، وقاموا ينزحون المياه ، وعند ما بزغت الشمس
 الحارة في هذه المنطقة ، أذابت حرارتها القار الذي قلّفت
 به البحارة الشقوق حتى لا تدخل منها المياه ، وقل الزاد ،
 فقللوا كميات طعامهم .

وجاء يوم ١٧ نوفمبر وهم على هذه الحالة اليائسة .

لقد اجتازت « عائشة » الدرجة الثامنة منذ أيام ، وإذا
 أخذنا بأقوال الفيلسوفين ، فلا بد أن يهب النسيم العليل من
 الشمال الغربي ، ولكن النسيم لم يظهر إلا بعد ستة أيام ، وجاء
 يوم ٢٣ ، فقامت « عائشة » تتأرجح فوق أديم اليم ، مما أثلج
 قلب « فون موك » .

كان « فون موك » يريد الوصول إلى « بادانج » (١)
 Padiang الواقعة على الساحل الجنوبي الغربي من « سومطرة »
 بأي ثمن ، ذلك لأمرين : أولهما لأن أوراق السفينة تدل على
 أنها غير معروفة إطلاقاً في هذه الجهات ، وثانيهما لو وثقه
 بوجود قنصل في هذه المستعمرة الهولندية وبعض البواخر
 الألمانية يمكنهم الصمود على ظهر أحدائها ورجالها .

ولكن ربما قابل قبل وصوله إلى « بادانج » حاملة

(١) كان عدد سكانها وقتئذ ٣٠٠ و ٣٠٠ نسمة وهم الآن ٤٧٠٠٠ .
 وكانت مركز حكومة الساحل الغربي لسومطرة . وتقوم فيها تجارة البن
 والكافور وتجارة الذهب بكثرة شديدة (المؤلفة) .

طورييد الانجليزية أو فرنسية ، وفسكر « فون موك » مليا في هذا ، ثم صمم إن شامت الأقدار أن تفاجئه بما لا يجب ، أن يترك « الحاملة » تقترب من سفينته ثم يقفز هو ورجاله الستة والأربعون على ظهرها دفعة واحدة بأسلحتهم^(١) .

إنها فسكرة جنونية تدل على منتهى البسالة ، لم نسمع بمثلها في قصص « سركوف » و « بوفى »^(٢) ، ويقول « فارير » : « أن هؤلاء الرجال أحسوا بتولد روح القراصنة القديس فيهم ، إنهم يريدون النزال « وابلطة » في أيديهم والسكين بين أسنانهم » .

وفي يوم ٢٥ نوفمبر ، اجتازت « عائشة » القناة الكائنة بين جزيرة « سيرريت » و جزيرة « سيبار » . لم يبق الركب إلا على بعد ثلاثة أيام من « بادانج » و تراوت ، لهم في الناحية الشرقية من الأفق ، قمم جبال سوماطرة الشاهقة ، وكان رجال « عائشة » يسرون بها و أسلحتهم تحت أيديهم ، ولقد أحدثوا أربعة ثقوب في جدارها لتكون طاقات لأفواه المدافع الرشاشة ، وهي السلاح القوي الوحيد لدى هؤلاء البحارة الألمان ، وكان يخيل للمناظر إليهم أنهم صيدية يقومون « بالعبدة القراصنة » . ولما كان هذا الوصف ينطبق عليهم ، فإنهم لم يكونوا مازحين في تسليحتهم . بل كانوا يلعبون مع الموت الزؤام . — أنظروا ! وجاءتهم الفرصة المنشودة ، لمحوا طرادا ،

(١) انظر كتاب ركب عائشة لمؤلفه « فون موك » .

(٢) Surcouf, Bouvet

ففتن كل واحد منهم إلى سلاحه يقف به وقفة الاستعداد .
ولكن الطراد ظل واقفا بعيدا ، وخيل إليهم أنه لا يتحرك
وصعد أحد الضباط إلى الصاري ومعه المنظار ليقرأ اسم
هذا الطراد ، ضاربا صفحا بالخطر المحقق بعينه وبمظهره بل
بنفسه ، واستطاع معرفة اسمه . إنه طراد هولندي يدعى
« لانكس » Lynx .

وسكت الذئب . وتقدمت « عائشة » ببطء . ومكث
الطراد ثابتا في موضعه طيلة يوم ٢٧ نوفمبر بهيكلة الرمادي
وكأنه يتأمل سفينة « فون موك » البيضاء لا شك أن الطراد
الهولندي كان يراقب هذه السفينة المتداعية . ثم حاول في الليل
الاقتراب منها عن كثب . وهنا تناول « فون موك » مصباح
الاشارات ليقول بتلك العظمة التي اشتهر بها الألمان :
« ابتمد عنا . إنك تشل حركة سيرنا » .

واندهش قومندان « اللانكس » من هذه الجراءة
ولكنه لم يتزعزع . وتضايق « فون موك » . وأراد أن
يطمن هذا القومندان على جنسية « عائشة » فرفع في صباح
يوم ٢٨ نوفمبر الراية الألمانية في أعلى صاري السفينة .
وأرسل إليه اشارات فخواها : « أنا سفينة حربية ملك
صاحب الجلالة القيصر ، وسأرسو في ميناء « بادانج » وسأظل
فيها ٢٤ ساعة بما لي في ذلك من حق » .

ثم أراد أن يستفسر عن « الامدن » . فأرسل اشارة

أخرى إلى « اللانكس » يقول فيها : « هل لديك أخبار عن
« الامدن » ؟ » .

وفاه بهذا الرد المختصر : « نفس الامدن » . . .

واقتربت « عائشة » من « بادانج » ، وقابلت في سيرها
الفلاّك المالينية بأشروعها المفصلية . وكان سراب البحر يجعلها
في عين الرائي أشبه بوط اطها نل الجنة ينشر جناحيه في الفضاء .
ثم ظهرت مدينة « بادانج » تحيط بها قمم البراكين المتناثر
عليها النبت الأخضر . ولاحت دورها بين الأشجار . الوارفة
كباقات الزهور .

واستنشق بحارة « عائشة » ريح اليابسة وفيه أريج أشجار
وثبت الغابات ، فقلّوا به صدورهم ، وكانت الأمطار تهطل
بين الآونة والأخرى فتغيب تحت ثقلها تلك المناظر الخلابة
ولكن لم تفتح أسارير « فون موك » لهذا الجمال الفتان ؛
ان القلق يساوره ، ويلوح أن أفكاره شاردة ، إنه يفكر
في المصاعب التي سيلاقيها عند ما يدخل الميناء . إنه يعلم جيداً
أن السلطات الهولندية لا تعرف المزاح في الرسميات ولا سيما
في قانون الحياد ، وحالة « عائشة » ليست عادية ! . وخشى
أن يجد الهولنديون بندا من بنود هذا القانون يعرقل سير
« عائشة » ، لأنهم إن وجدوه فلن يتورعوا عن مضايقته به ،
إنها خاتمة مقلقة ! . وأخذت « فون موك » نخوة البسالة التي
نشأ عليها ، وراح يحدث نفسه بأن اللذة لا يفوز بها إلا الجسور .
وسيكون « فون موك » جسوراً . . .

معضيات سياسية

إقترَب الزورق من « عائشة » وراح يدور حولها .
ما أغرب هذه الباخرة ! ؟ . وصعد البحار إلى ظهر
السفينة بدون أى حماس . ولما رأى وجوه هؤلاء القراصنة
طلب فوراً ثمن ترحيلهم .

ولكن خزانة « عائشة » كان لا يوجد فيها غير شلن
وبنسين . فما كان من « فون موك » إلا أن بادره بقوله إن
قنصل ألمانيا سيدفع كل شيء .
— « قنصل ألمانيا ! ؟ » .

— نعم « دون شك » . أنظر إلى أعلى ! « .
ورفع البحار بصره فشاهد في أعلى الصاري الراية
الألمانية الحربية . ماذا يريد بعد ذلك ؟ .

واتخذ البحارة الألمان وقفة أخرى ؛ فاصطفوا وفي أيديهم
البنادق وقبل البحار هذا العرض خوفاً من أولئك
القراصنة . وقال : لا مانع ، ليدفع عنكم قنصل ألمانيا .
واجتازت « عائشة » خليج « بادانج » على هذه الحالة
ودخلت الميناء في الساعة الخامسة بعد الظهر من يوم ٢٨
نوفمبر سنة ١٩١٤ .

وأبرق «اللانكس» بوجود هذه السفينة الحربية العجيبة

من حفر أهل «باداخج» إلى الخروج إلى رقيقها ، وعلمت بذلك
البواخر الألمانية التجارية الأربعة الراسيات في الميناء .

واقتربت عاتشة أثناء دخولها الميناء من السفينة الألمانية
« رانيلاند »^(١) وصاح « فون موك » : « أرسلوا إلينا أقواتنا
بسرعة فمحن في أشد الحاجة إليها ! » ورددت الباخرة « رانيلاند »
هذا النداء إلى البواخر الثلاثة الأخرى وهي : « كلايست »
و « نينوا » و « شويننج »^(٢) فتههمت لتلبية نداء « فون موك »
وعقدت مارست عاتشة سارعت إليها الزوارق الألمانية تحمل
إليها القوت والملايس والأغذية والنسخ .

ولم يكف يطمئن « فون موك » على وجود ما هو في حاجة
إليه ، حتى جهده الأمر التال من السلطات الهولندية :
« لا تنزل الأرض إطلاقاً » .

ولا شك أن « فون موك » كان ينتظر مثل هذه المضايقات .
وتقبل البحارة الألمان هذا الأمر بشيء من المضض ، رغم
أن هذا المنع إنما اتخذته السلطات الهولندية حيلة منها على الحياة .

لقد كان هؤلاء المساكين الذين جاؤوا أخطار البحار في
أشد الحاجة إلى النزول إلى الأرض للتنزه على الأقل ، وكانت
مدينة « باداخج » تخريبهم بطرقاتها الخاصة بالناس وبدورها
التي تحيط بها الأشجار الوارفة والنخيل الباسق . وكم تمنوا
الحياة ولو وقتاً قصيراً في هذه الجنة الزاهرة التي حرمت عليهم ،

Rheinland (١)

Kleist, Niniva, Choising (٢)

وافتزت قلوبهم طرباً بمشاهدتها من بعيد .

ثم توالت على « فون موك » المضايقات السياسية . ولم تكن السلطات الهولندية تضرع العداء للألمان ولسكنها كانت ضيقة العطن بقدر ما هي بعيدة عن حب التفاهم . وقام قنصل ألمانيا بكل ما في وسعه ، وتخطبت محطة البرق في بادانج مع باتافيا Batavia وردت « بانافيا » على بادانج ، وتوالت الأوامر والمذكرات والمعارضات . وقبلت طلبات « فون موك » . ثم روى عدم قبولها ، ثم نوقشت مرة أخرى ، ثم رفضت ثم عرضت على بساط النقاش مرة أخرى ، وتضايق « فون موك » ، ولسكنه ملك أعصابه . وعلى كل فلم يطالب القائد الألماني منهم الحصول على السكوكب الدرى ، وإنما طلب منهم القوات وهو من حقه .

ولسكن الهولنديين ظلو يحجبونه بقولهم : « إنما نحن على الحياد » ، ورد عليهم — « فون موك » قائلاً : « لا بأس . وهما هي قائمة ما نحن في حاجة إليه من مؤن نريدها غداً ، وسأخذها غداً صباحاً قبل انقضاء الأربع وعشرين ساعة الممنوعة للجواخر المحاربة في أوقات الحرب ، وشكر آمقدمات . وشكر آمقدمات ؟ لا بد أن يكون هذا الربان قد اعتراه الجنون ، نعم هو مجنون ولكن من أحسن أنواع المجانين الذين خلقهم الله ليضربوا الأمثال لذوى العقول الجامدة .

أليست العقول المتهورة هي التي اشتهرت بالبسالة وخلقت
الرجال العاملين ؟ نعم أيها القارىء . واحترت الدنيا في عيني
« فون مولك » من معاملة الهولنديين الخشنة التي لا تتركز
على أبسط قواعد المنطق ، فصاح محتجاً : « كيف يحرق
هؤلاء على معاملة سفينة حربية ألمانية بهذا الشكل ؟ . أليسوا
جميعاً بحارة حربيين فوق ظهر « عائشة » قد سجلت أسمائهم
في القوائم السنوية للجنود الإمبراطورية الألمانية ؟ ألا يوجد
في أعلى صاريجها الراية الألمانية البيضاء بصلبها الأسود ؟ .
حقاً إن « عائشة » لم تدخل بعد في قائمة البواخر الألمانية ،
ولكن ليس هذا من شأن الهولنديين ، ولكن من اختصاص
رؤسائه فقط ، وأما حمايتهم فإنها تختم عليهم إمدادهم بالقوت
اللازم لهم والوقود الكافي ، حتى يصلوا إلى أقرب ميناء من
وطنهم . وسينتظر « فون مولك » وصول هذه المؤن ، ثم يترك
هذه الميناء سريعاً .

وجاء إليهم الهولنديون ينصحونهم بالمسكن في الميناء
فإن « عائشة » متفككة بقدر ما أكل عليها الدهر وشرب .
ثم إن هناك بارجة يابانية في أعالي مياه « بادانج » إن هي
رأت « عائشة » وقذفها بطوربيد أو قنبلة ، لآثت عليها
وعلى ركبتها .

كان « فون مولك » يعرف ذلك جيداً ولكنه أثر

الموت في البحار من البارجة اليابانية أو أى باخرة أخرى ،
على أن يظل أسيراً للعقابة الهولندية الضيقة ، لذلك رأى
أن يسارع بترك « بادانج » قبل أن يطالب الخلفاء بالخاح
في حين « عائشة » في هذا الميناء إلى ما شاء الله .

وعزم « فون موك » على الرحيل بما معه من المؤن التي
أرسلتها إليه البواخر الألمانية الراسية وهي مؤن قليلة في الواقع ،
ولسكنها أفضل من لا شيء . وصاح القائد الألماني : « شكرا
لكم ، سأبرح ميناءكم خالي الوفاض كما دخلتها ، ولا شك أن
حكومتى ستقدر لكم إيوائكم لنا على هذه الصورة .
ومعاملتكم التي خلّت من حقوق الإنسانية في أوقات الحرب .
ولكن لكل وجهة نظرة ، وما أن انتهى « فون موك » من
كلامه حتى أمر بحارته بالخروج من هذه المياه .

كانت الساعة الثامنة مساءً . ورفعت « عائشة » هانها
وسارع إليها زورق من الميناء واقترب منها ، وكان هذا
الزورق يتبع السلطات الهولندية ، ويحمل للركب الألماني
المؤن والمياه والأدوية . ياللعجب إن الهولنديين قد حنت
قلوبهم على الستة والأربعين بحاراً

وتهدد « فون موك » مسروراً بما تعطف به عليه الهولنديون
الأتقياء . وهنا انتهز أحد بحارة الزورق وكان من أهل
« ماليزيا » فناول سراً « فون موك » وريقة من قنصل ألمانيا .

وامتن قلب البحار الألماني الكبير ، كما يهتز قلب العاشق عند ما يقرأ خطاباً من محبوبته . وغاب هنيهة في غرفته وفتح الوريقة فوجد فيها : « إلى قائد عائشة ، إلى انتظار تعليماتك ، وألقي لفون موك » نظره على ، خريطة المحيط الهادى وكتب الرد التالى : « سأكون حتى يوم ٢٠ ديسمبر حول نقطة العرض ٣,٢٠ جنوباً و ٩٩,٢٠ من نقطة الطول شرقاً ، وسأكون قريباً من هذه النقطة بقدر ما تسمح لى به التيارات الهوائية والمائية ، كما أنى لن أبتعد أكثر من ٢٠ ميلاً عنها . وناول هذه الوريقة للرسول الأمين دون أن يراه أحد .

فلو أن باخرة ألمانية استطاعت أن تأتي إليه فى هذه النقطة ، لكان خيراً « لفون موك » وابتعد الزورق . .

كانت الساعة التاسعة مساءً ، وجاء رفاص تجارى إلى عائشة ، ليخرج بها من الخليج . وشم البحارة رائحة زهور مدينة (بادانج) الصغيرة التى لم تغطأها أقدامهم ، وتلايلات النجوم ، وتأرجحت (عائشة) وئسداً فوق المياه ، وجاء الريح ينفخ أشراعتها ، فسارت فى طريقها إلى عرض البحر . ولم تظهر باخرة عدائية أو محايدة أو صديقة فى الأفق .

وملاً (فون موك) صدره بهواء البحر النقي . إن الحياة جميلة فوق المياه حتى لو قابلنا القنابل اليابانية . . .

ووصلت (عائشة) في يوم ٤ ديسمبر إلى النقطة التي أخبر بها فون مولك تفصل ألمانيا .

ومرت عشرة أيام دون أن يرى الركب الألماني خلاصاً ،
غير سفينتين ، أراد فون مولك أن يقتنصهما دون جدوى ،
وكانت محاولته جنونية لا شك .

ورسم (فون مولك) خطته بعد مضي هذه الأيام العشرة
طبقاً للأخبار التي وصلتته من (بادانج) على الوجه الآتي (١) :

أصبحت (تسينج تاي) Tsing-Tao نقطة الارتكاز الهامة
الألمانية ، في قبضة اليابان ، إذن أضحت هذا الطريق مغلقة في
وجه (عائشة) ، ولكن الإمبراطورية العثمانية أعلنت
الحرب على الحلفاء منضمة إلى ألمانيا ، إذن أصبحت جزيرة
العرب المأوى الوحيد (لفون مولك) . فإذا لم تلاحق (بعائشة)
أى باخرة ألمانية كما اتفق عليه (فون مولك) ليصل عليها
إلى السواحل العربية ، فانه سيضطر إلى التوجه بمركبه المعجوز
مهما كلفه الأمر ، نحو سواحل سومطرة الغربية ، ثم
منها إلى الخط السادس شمالاً ، وهنا يهب ربح الشمال
الشرقي فيساعد سفينته على السير سريعاً نحو (ملديف)
Maldives وخليج عدن ومضيق بريم ثم يدخل البحر

(١) انظر كتاب « ركب عائشة » لفون مولك .

الأمر إلى جدة . ومن جدة يأخذ طريقه براً إلى حلب ومنها إلى استامبول ثم إلى وطنه .

ولو نظرت أيها القارئ الكريم إلى الخريطة الجغرافية لوقفت بنفسك على بسالة (فون موك) الذي أراد أن يجتاز هذه البحار وتلك الجزر بمركب مثل (عائشة) . ولكن شجاعة (فون موك) نادرة .

وابتسم له الحظ أخيراً ! . وشاهد «فون موك» في ضحى يوم ١٤ ديسمبر الباخرة «شويننج» وحوادثها ١,٦٠٠ طن إحدى أسطول شركة لويد الألمانية لنقل الفحم . استطاعت هذه الباخرة أن تترك «بادانج» لتتجه نحو «لورنزو ماركيز» Lorenzo Marquez^(١) . ووضعت هذه الباخرة نفسها تحت أمر القائد الألماني .

ولكن «شويننج» لم تحمل معها تمويناً كافياً . فلم يتركها الهولنديون تتزود إلا بهذا القدر الضئيل من الأقوات - حذراً منهم . وعلى كل فقد قابله ركب «عائشة» بالترحاب الشديد . وفي يوم ١٥ ديسمبر . بينما كان البحر هائجاً . استطاع ركب «عائشة» أن يستخفوا وراء جزيرة «باجه» ليصعدوا على ظهر «شويننج» ولكن بشيء من الصعوبة . ثم أغرقوا «عائشة» وبدأ التأثير شديداً على وجه

(١) مستعمرة برتغالية في الموزامبيق على السواحل الأفريقية .

« فون موك » الذى أخذ يتبعها بعينيه المملوءتين بالدموع .
وهى تغوص فى الماء .

وهكذا غابت فى غياهب البحر السفينة الصغيرة التى أنجحت
٦ « بحاراً ! » عائشة ! ظل هذا الاسم منقوشاً على قلبه . واكمل
رحلته متيمناً بهذا الاسم وعلى بركة صاحبه السكرية .

راح « فون موك » يفحص بنفسه « الشويننج » . وعلم
متأسفاً بأن هذه الباخرة لن تستطيع السير بسرعة لأنها
لا تحمل إلا أتربة الفحم ، لا قطعه . والفرق شاسع بين
مرجل يغلى بتراب الفحم وآخر يضطرم بقطعه . لذلك أمر
بحارته بانتقاء أحجار الفحم الكبيرة ووضعها على حدة
لاستعمالها عند اللزوم لزيادة السرعة فى السير . أما الآن فان
هذه الباخرة لن تسير على أكثر من أربع عقدات .

وابتدأ « فون موك » بعد ذلك إلى تنظيم نفسه ، ونعنى
بذلك الاستخفاء . والاستخفاء فى الحروب واجب ، فما
الحرب إلا خدعة . وعلى ذلك اختلفت ألوان الشويننج السوداء
والبيضاء والصفراء عن مختلف أجزائها ، لتحل محلها ألوان
بواخر شركة « جنوا » للملاحة الإيطالية .

وبدت تحت اسم جديد مكتب بالحروف البيضاء :
« شنير — جنوا »

ورفعت الراية الإيطالية فى أعلى صاريها بعد أن قام أحد

البحارة الماهرين في الرسم والتلوين برسم أسلحة بيدت سافويا .
أصبحت بذلك « الشوينج » حرة السير في البحر فما هي
إلا باخرة إيطالية يصعب على العين المتمرنة أن تستبين حقيقتها .
وعلى كل فالبحر واسع . . اللهم إلا إذا تبعهم النحس وقابلتهم
بارجة من بوارج الحلفاء تكون استنشقت ريحهم .

ولكن الحظ السعيد كان حليف « فون موك » في هذه
المرّة . وتابعت السفينة الألمانية سيرها فوق مياه البحر الهادئة .
وجاء عيد ميلاد المسيح وعيد رأس السنة . . وابتهج الركب
بهما واحتفل احتفالاً بقدر ما سمحت به زجاجات الويسكى .
وقام أحد البحارة واصطنع من يد مكنسة شجرة الميلاد ، ومن
الورق الملون أوراقها وفروعها . وقام « فون موك » خطيباً ،
واختتم كلمته بحياة القيصر ثلاثاً . اليس القيصر قائدهم الأعلى ؟
ثم علت الأصوات بالأغنيات الشعبية .

ظل الركب ٢٤ يوماً في المحيط الهادى حتى اجتازه دون
أى حادث يذكر .

وشاهدوا في ليلة ٧ — ٨ ديسمبر سنة ١٩١٥ . . باب
المنذب ، يحرسه « برجم » وكان « فون موك » يعلم خطورة
الاقتراب من هذه البقعة وسار بسفينته على سرعة ٨ عقدات
في الساعة . وهي آخر سرعة تستطيع الباخرة السير عليها
بفضل ما احتجزه من أحجار الفحم .

ولكن مهلاً . أن الخطار تهدف بهم من كل جانب .
فهل يا ترى سيختار «فون موك» هذه البقعة سالماً . إن قلب
البحار الألماني يسرع في ضرباته ، يسرع كثيراً .

استطاع أن يختار «باب المنصب» و «بريم» بسلام
ليدخل البحر الأحمر وبعده ٢ ساعة، شاهدوا أنوار حديدية،
إحدى موانئ اليمن . وكان ذلك يوم ١٠ يناير .

وتنفس «فون موك» الصعداء . لقد وصل إلى أول هدف
من أهدافه ، لقد سمع أن سكة حديد جدة قد امتدت إلى
حديدة وترك مخيلته تسبح في عالم القنى ، فرأى نفسه راكباً
القطار يقطع به أرض فلسطين^(١) ثم سوريا^(٢) ثم آسيا
الصغرى فاستانبول فيرلين . وفي برلين ستعين له السلطات
بارجة أو مدمرة يقودها ليواجه بها الاعداء ، فما خاف
«فون موك» إلا للحرب ، الحرب المستمرة .

واستعد «فون موك» في ضحى يوم ١٠ يناير للنزول
مع رجاله إلى سواحل حديدة في أربعة زوارق .

ولم يفسه الفرح والسرور أن يكون على حذر في جولاته .
فطلب من ربان «الشوينج» أى يختبئ في الخلجات الكثيرة
الموجودة في هذه البقعة ، على أن يأتي بمسد ليلتين في نفس
النقطة التى نزل منها «فون موك» ورجالهم في زوارقهم، حتى

(١) و (٢) كانت فلسطين وسوريا تحت الحكم العثماني في ذاك الوقت .

إذا ما فاجأهم العدو أسرعوا هائدين إلى باخرتهم .
 « وسار فون موك في جنح الليل مع رفقاءه نحو الساحل ،
 أو بالأحرى نحو ذلك النور الذي كان في الحقيقة البارجة
 فرنسية راسية عن كشب في هذه المياه ، أسمها « ديسى » Desaix
 كانت تلعب بأنوارها حتى يظن فيها أنها رحيف ميناء .
 ولكن « فون موك » فطن إلى هذه الخدعة عندما اقترب
 منها ، وحقق عليها كثيراً .

ماذا ؟ أبعد أن اجتاز أخطار المحيط الهندي وجزءاً من
 البحر الأحمر سالماً ، يأتى بنفسه إلى الموت وهو على كشب
 من أرض المأوى ؟ وتراجع « فون موك » دون أن تشمر
 به البارجة الفرنسية لكثرة الضباب وحلكة الظلام ، ثم وقف
 على بعد ٨٠٠ متر من الساحل الصغير هنيهة ليكمل سيره
 نحو الساحل ؛ فنزل فيه مع رجاله بكامل أملحهم ، وخشى
 بعد أن وطأت قدماه الأرض ، أن تكون هذه البلاد قد
 وقعت في أيدي الحلفاء لوجرد هذه البارجة الفرنسية . ولم
 تمنى « فون موك » أن يعرف الحقيقة بأى ثمن .

ولاحث ذكاء . . فرأى على ضوء الضمى الفيضاني
 الشاسعة . أنه في عزلة عن الناس ، ولكن هذه العزلة لم تدم
 حيث رأى جماعة من العرب مقبلين من وراء كشبان الرمال ،
 أنهم مائة عربى بأيديهم البنادق ويصيحون قائلين : « يوم »

« بوم » وهم يشيرون نحو البارجة الفرنسية، فظن «فون موك» بأن المراد من لفظة « بوم » هو صوت المدفع، أى أن هذه البارجة قد رمتهم بقنابلها .

وأقبل عليهم « فون موك » وهو يشير لهم بإشارات يريد أن يقول لهم بها بأنه صديق وأنه ليس له أى شأن بهذه الباخرة الفرنسية ، ثم رفع رايته الألمانية قائلا : « ألمان . الماني . المانيا »

وفهم العرب أنهم المان . فرفعوا بنادقهم تحية لهم واخذوا يرمونها ثم يلقفونها سرورا بقدمهم ثم توجهوا معهم إلى أركان حرب الأتراك في حديدة . .

نحو صنعاء اليمن

وقابل ضباط هيئة أركان حرب تركيا في حديدة «فون موك» ورجاله بكل ترحاب . ثم اغتسلوا واستراحوا هنيئة، قدم لهم بعدها اللحم المشوى الذى أعجب الألمان كثيرا . وبعد أن شبعوا قدمت اليهم القهوة اليمنية اللذيذة الطعم .

وعلم من الأتراك أن سكة حديد جدة لم تمتد إلى حديدة، وهى على كل حال بين أيدي الشوار المنشقين على الدولة العلية، لذلك فإن الطريق الساحلى الموصل إلى جدة غير مأمون . كما أن البحر الأحمر غاص بالبوارج الفرنسية والإنجليزية

وأسلم طريق هو الطريق الصحراوي الموصل إلى عنابة
عاصمة اليمين، ومنها إلى عسير ومن عسير إلى جندة، ثم يستطيع
بعد ذلك أن يكمل طريقه إلى استانبول بالسكة الحديدية .

وزود الضباط الأتراك « فون موك » بتموين كثير من
قوت وماء ووضعوا تحت تصرفه الجمال والهداة، وسار « فون موك »
برجاله قبيل الضحى . وهنا تبدأ قصة جديدة لركب « عائشة » .
ظلوا يسرون أربعة أيام على الرمال التي أسخنتها أشعة
الشمس المحرقة ، ليصلوا إلى فيافي وكشبان من الرمال وتوءم
من الصخور أقيم على كل منها برج يحرسه العرب الأشداء
الأقرباء وسط أرض قاحلة لا يرى فيها نبت ولا شجر .

وكان السير عسيراً على هؤلاء البحارة الذين رغم
تعودهم على اهتزازات البحر ، لم يرتاحوا إلى ظهور الجمال
في حركاتها . فكان بعضهم يسقط من فوقها . ثم تعودوا أخيراً
على ركوب سفن الصحراء . بعد سفن الماء .

كان البرد يشتد عليهم ليلاً بقدر ما تحرقهم الشمس نهاراً .
وقل الماء وأسن، ومرض بعض البحارة بالديسنتاريا والحمى .
مما أنهلك قوائم وأضغف قليلاً من عزائمهم .

وفي اليوم التاسع شاهدوا مآذن الجوامع . جوامع
صنعاء التي وصلوا إليها مساء . فقابلهم ضباط حاميتها
الأتراك بكل ترحاب . ثم نقلوا المصابين إلى المستشفى وبات

الآخرين في القشلاق .

واشد ما تضجره فون مولك عند ما علم أنه لن يستطيع السير بعد ، من صنعاء ، لأن قبائل العرب بالمتشردة وضعوا أيديهم على عسير ، لذلك فإن حامية صنعاء لا تأخذ على عاتقها أية مسئولية لن يتجول بعيداً عن حدود الحامية .

وبقدر ما تضجره فون مولك بقسود ماس الضباط الأتراك لوجوده برجاله بينهم وهم أولى شجاعة وبأس وقوة وأرادوا أن يقنعوا « فون مولك » بالإقامة بينهم لشياطنهم مع رجاله الدفاع عن صنعاء ، ولكنه أبى إلا السير .

نعم ، لم يصل « فون مولك » إلى هنا ليقتل هو ورجاله في حرب برية رغم صداقة الأتراك لقبضهم . إنما يريد أن يركب البحر دون أن يترك وراءه جندياً واحداً من جنوده ليصل بهم إلى براين ، واضطر إلى الإقامة حتى ينشأ آخر مريض من رجاله .

وكان « فون مولك » يقتل الوقت بكتابة مذكراته وبالنزول على متن الحيل في صنعاء ، وكان يسمع من بعيد طلقات الرصاص المتبادل بين العرب المتشردين وبين رجال السلطان العثماني ، وتفاقت الثورات يوماً بعد يوم ، وكان « فون مولك » يتسامل من أين جاء العرب بهذه الأسلحة الحديثة ١٤ .

ياحبذا لو أن « فون موك » غير فكرته ورضى بالإقامة
بينهم ، ولكن « فون موك » لم يغير خطته وكان ينتظر بفارغ
الصبر شفاء آخر جندي من رجاله . ليتخذ سبيله نحو المستقبل
المجهول .

وفي يوم ٣ مارس . استأذن « فون موك » من الضباط
الأتراك بالإصراف شاكرًا لهم ضيافتهم . ولكن لم يتركوه
يذهب دون أن يزودوه بالآلات والماء والخبث والبقالة
والجمال وبعض الهدايا ليهدونه الطريق إلى الساحل .

وبعد عشرة أيام قضاها بين أشد الصعوبات وصل
رجالها إلى « يبنه » ثم ركبوا مركباً يمنية طولها ١٤ مترًا
وعرضها أربعة ، وقام « البق » يفتك بهم ليلاً مما أنقص
حياتهم ورجعوا بخيالهم إلى أيام « عائشة » فكانت في نظرهم
«جنة» بالنسبة للحياة بين هذه الحشرات المؤلمة . وكان البحارة
العرب يقودون هاتين السفينتين على بركة الله بالقرب من
الساحل ، وفي يوم ١٧ مارس وقع بجوار ميناء « مرقه »
ما يجب أن يقع من حوادث . ورسا « فون موك » بسفينة
بين صخرتين وانتظر مجيء السفينة الثانية ، ولكن سمع صوت
أخشاب تتكسر ثم أصوات استغااثات ، لقد ارتطمت
بصخرة فتشمت وغرقت وعام رجال « عائشة » إلى سفينة

قائدهم، وكانت الحمولة كبيرة على هذه السفينة، فسارع « فون مولك » بإلقاء الأمتعة في اليم محتفظاً بالأسلحة والذخائر . وكادت هذه السفينة تغوص من ثقل رجالها لولا أن الله سلم . وهب النسيم وسارت السفينة بركبها وثيداً نحو « قنفذة » .

وعند ما وصل « فون مولك » إلى « قنفذة » طلب من الأتراك سفينة كبيرة قوية ليصل بها إلى جدة . فلم يتوانوا في انجاز طلبه . وصعد على ظهرها مع رجاله واتجه بها إلى عرض البحر بعد ما هاله من شدائد السير بجوار السواحل الصخرية ليستريح قليلاً .

واجتاز « فرسان » الذي لا تستطيع البواخر الكبيرة دخوله لكثرة صخوره وتقاربها من بعضها ، ولكن ماذا بعد ذلك ؟ .

إنه اجتاز « فرسان » ووصل إلى ميناء اللد . ولكن حلم « فون مولك » تبدد ؟ . إن جدة التي يهدف إلى الوصول إليها قريبة منه ولكن عليها حراسة شديدة من جانب الأساطيل الفرنسية والإنجليزية . فالبحر هنا مغلق ، وكل سفينة تلجئه تفتش تفتيشاً دقيقاً ، إذن لابد أن يلتجئ إلى الصحراء ، الصحراء المخيفة ولكنها آمنة طريق إلى جدة ، جدة أول خطوة إلى بلاده . .

الحرب في الصحراء

وفي يوم ٢٥ مارس قبيل الفجر ، توغل « قون موك »
في الصحراء مرة أخرى مبع دليليه العربيين وستة جنود
وصول مكثافي وتسعين جمالا

وأخذت القافلة تواصل سيرها بين عيون الماء وهي في الواقع
عبارة عن حفر : بلغ عمقها ١٤ مترا ، وقبض الجند الأتراك
على شيخ القبيلة التي مروا بها واحتفظوا به كرهينة - حرب ،
وكانت الشررات تندلع^(١) بين القبائل الحجازية وكانت البلاد
في أتون من نيران الحرب .

كانت القافلة ثقيل أن شاء ساعات الحر الشديد أي من
الساعة التاسعة صباحاً إلى الرابعة بعد الظهر ، وتسير في غير
عند الأوغات وتبدأ على قدر خطى الجمال المربوطة بعضها
بعض ، وكان لهذا السير البطيء أسوأ الوقع على نفوس
البحارة الألمان ، فضلا عما انتابهم من مرض « الديسنتاريا »
ومن الحمى .

وظلت القافلة تطوى القفار والفيافي المخيفة حيث يكثُر

(١) كان ذلك في وقت الثورة العربية التي أحب خلالها السكاكين « لورنس »
دوره في استقلال الحجاز ، حتى أطلق عليه لقب « لورنس العربي » (المؤلفة) .

فيها السراب ويلعب بالأبصار، فيريها أشياء وخيالات
لا وجود لها، مما كان يجعل الجنود يصوبون بنادقهم استعداداً
لإطلاق قذائفها .

لقد ذاق الجنود الأمرين من السراب ومن الحمى حتى كادت
أعصابهم تنهدم .

وعند ما وصلوا إلى آخر بشر ماء ، وجدوا عندها قوة
تنتظرهم ، قوامها ضابط تركي و ١٧ جندياً نظامياً ، فانضمت
هذه القافلة إلى ركب « عائشة »

وعند ما جاء يوم ٣١ مارس ، لم يبق عليهم إلا اجتياز
مرحلة قصيرة ليصلوا إلى « جدة » ، فرحت هنالك القلوب ،
وأحسن كل رجل من رجال القافلة أن مريضاً أو صحيحاً
بنشاط غير عادي يرجع إلى هدوء أعصابهم لمجرد استيقانهم
من قرب ترك هذه الصحارى القاحلة المخيفة في سكونها
واتساعها ، وكان كل منهم يتمنى لو استطاعت الجمال أن
تسرع في سيرها ، ولكن إني للجمال أن تعرف قيمة الوقت
وفي أول أبريل ، نظم « فون موك » رجاله بأن جعلهم
صفين تحيط بهم القوة العثمانية من الجانبين .

وارتفعت الشمس في كبد السماء ، وأخذ الركب يتساق
للمرتفعات الواحدة بعد الأخرى وكأنها لا تنتهي ، وبدأ

السروور على وجهه « فون موك » عند ما علم أنه على بعد ثمانى ساعات من « جدة » وأخذ يصفر مغتبطاً

وعلى حين غفلة وقفت الجمال ، وأخذت تشم الهواء وتهدر ، وماهى إلا هنيهة حتى انهالت طلقات البارود على القافلة ، وتخبط رجل فى دماثة فوق الرمال المحرقة .

وجم القوم جميعاً ، أنهم يسمعون الطلقات ولا يرون انساناً وهنا فكر البحارة الألمان فى البحر ، البحر الصريح الذى لا يمكن للعدو أن يختفى فيه ، أما فى الصحراء فإنهم لا يرون شيئاً ، ويأتهم الخطر بغتة

وكان العدو المختفى وراء الأطلال والأكبات يطرهم على فترات بوابل من رصاصه ، ثم ظهرت مائة رأس ثم مائتين ثم أربعائة ثم خمسمائة وأكثر ، وطلع عليهم البدو من كل فج وقد تسليحوا من أخمص أقدامهم إلى أعلى رؤوسهم .^(١)

وفى الحال . استعمل البحارة بنادقهم الرشاشة التى ظلوا محتفظين بها منذ جنوحهم إلى جزيرة « ديركسيون » و « كوكوس » فاخفت الرؤوس ، ولكن لمدة وجيزة . وكان من الجلى الواضح أن تكون هذه المنازلة المفاجئة أول

(١) انظر « ركب طائشة » لمؤلفه « فون موك » طبعة مايو . ١٩١٤

عامل لعدم توغل العثمانيين والألمان إلى ما بعد هذه البقعة ،
كما كان عليهم أن يستعدوا لكل مفاجئة . وأن ينظموا أنفسهم
لرد كل عدوان .

كانت أسلحة هذه القافلة لا تتعدى البنادق الرشاشة
الأربعة و ١٤ بندقية المانية و ١٨ بندقية قديمة في حيازة
العثمانيين ، و ٣٤ مسدساً وعدداً ضئيلاً من الخراطوش . وإن
كان هذا التسلح غير كاف في الواقع لهذه القافلة المخامرة ،
فإنها على الأقل ترد عنهم بأس العربان التأثيرين المختلفين ورام
الأكات وكشبان من رمال .

ولكن أنى لهم التناوش مع . . . عربى اختفوا فجأة
عندما سمعوا طلقات المدافع الرشاشة؟! وهل تطمئن الأنفس
لهذا الاختفاء؟ . كلا . ففكر ، فون موك ، فوراً في التمهق .

ونظم القائد الألماني رجاله على ستة صفوف ، جامعاً
المصابين منهم في الوسط مع الزاد والمؤنة ، وجعل عشرة من
بقية الرجال يحمون المؤخرة بعد أن زودهم ببندقيتين من
الأربعة الرشاشة وعشرة جمال ليواصلوا نوعاً ما طلقاتهم
ضد البدو الذين عادوا إلى عدوانهم دون أن يكلفوا أنفسهم
مشقة الدقة في الإصابة .

وتقهقرت القافلة رويداً رويداً بين طلقات الرصاص .

وكانت كل اكمة تخفى عددا من الاعراب المسلحين، فازدادت
اصابات رجال القافلة بقدر ما قل الزاد . لقد أصبحوا في
هأزق من أمرهم، وربما كانت هذه الواقعة نهاية مغامرة رجال
«عائشة» الذين قهروا البحار حيناً من الزمن . لا بد لهم من
القيام بأي عمل حاسم ينجيهم من قبضة أولاد الصحراء
الغشومين الجسورين قبل أن ينتهي خراطوشهم ، وقبل أن
يرتشفروا آخر نقطة من الماء الباقي لديهم .

ورأى «فون موك» أن يلجأ إلى المفاوضة-حتى يستطيع
الوصول إلى «جدة» ، فرفع أحد الضباط الأتراك متديلا
أبيض طلباً للمداولة والتفاهم فسكت العرب وتقدم الضابط
ومعه رجلان من القافلة نحو البدو حتى غابو جريماً عن ناظر
«فون موك» وراء إحدى الاكبات .

وبينما كان التركي يتفاوض . خندق «فون موك» بسرعة
بالغة ليحمي المصابين وما تبقى لديه من ماء وأكل وذخيرة .
وبرك الجمال حول الخندق . ووضعت البنادق الرشاشة
في أركان الخندق لحماية ناسه وطال الانتظار بركب «عائشة»
وكاء يفرغ صبر «فون موك» وظن أن الضابط التركي قد
أسروا لن يعود ؟

وبينما القافلة في حيرة من أمرها ، إذ ظهر الضابط التركي
وجندياه ، وكان يحمل معه رسالة لا يمكن قبولها ، فانهم طلبوا

مقابل ترك القافلة في سيرها إلى جدة ، أن يأخذوا الجبال والأطعمة والأسلحة واثنى عشر ألفاً من الجنهات الذهبية . ورفض « فون موك » هذا العرض بشمم وإباء مفضلاً الموت في هذه الصحراء الجرداء على تسليم سلاحه إلى العدو . وعندما علم البدو بهذا الرفض أخذوا يطرئون الأتراك والألمان هوابل من الرصاص إلى أن غابت الشمس وراء الأفق .

وكلما أقبل الليل بظلماته ، كلما قلت الطلقات وتفاوتت إلى أن جن الليل البهيم فقام « فون موك » بأمر رجاله بحفر الأرض ليوارى جثث المتوفيين ، لقد مات ثلاثة من الألمان وانتابت الآخرين حمى عالية ، ورغم كل هذا ظل البحارة الألمان لا يشربون الأجرع من الماء لا تقنى من العطش .

وانتظر « فون موك » غياب القمر في كبد السماء وسط هضبتين ، ليوفد رسولا عربياً إلى جدة وقد أصبحت على بعد سبع ساعات ، ليأتيه بالمدد حتى يستطيع السير إلى الميناء الحربي الليلة المقبلة .

وتزود « فون موك » ومن معه بالصبر ، حتى يعود إليهم هذا الرسول ، ومرت الساعات طويلة ، ثقيلة على قلوبهم ، بينما كانت أعينهم تجوب الأجسواء ، وأصابهم تضغط على الزناد .

الأمـل

وكسا صـباح يوم ٢ ابريل ، وجه تلك الليلة الليلاء بنور
الأمـل ، لقد فاحت الروائح السكرية من المعسكر الألماني من
رسم الجمال المقتولة ، وقام الرجال يسحبون هذه الرسم المتعفنة
بعيدا عن المعسكر رغم رصاص العدو الذي كان ينهال عليهم
كالمطر ، ثم عادوا أدراجهم زحفا حتى وصـاوا إلى أخوانهم^(١) .
وكما ارتفعت الشمس في القبة الزرقاء ، كلما زاد الحر
في الحنادق حتى أصبح الرجال يتنفسون بصعوبة ، وكانت
الرمال التي تتطاير من جراح الرصاص تلفح وجوههم فتلهب
أجفانهم وحناجرهم ، كما كانت تدخل في فوهات البنادق
الرشاشة فتحيق طلقاتها ، وكان الرجال يكتبون بجرعة ماء
ولقيات يقيمون بها أصـلابهم ،

وطال انتظارهم طيلة اليوم حتى زحف الليل بدهمائه ،
ولسكن هذا الليل لم يفرج لهم كربة كما أن فجر اليوم الثاني لم
يأت لهم ببصيص من الأمل ، وأخذ كل واحد يقول وساوسه ،
فمنهم من جزم بقتل الرسول ، ومنهم من اتهمه بالانضمام إلى
الثوار ، كل ذلك قد يجوز وقوعه كما قد يجوز أن يظهر الرسول

(١) انظر كتاب « ركب عائشة » مؤلفه « فون موك » .

ومعه المدد ، من يدري ؟ لا يجب أن يدخل اليأس القلوب
وظلوا في انتظارهم المريع ...

ولاح الفجر ، فجر اليوم الثالث ...

وتتابعت الطلقات متفاوتة الآونة ، وكاد الماء ينفذ ، وزاد
التهاب الحناجر وزاغت الأبصار ، وراح السراب يلعب دوره
بعميون هؤلاء الرجال الذين أنهكهم العطش والجوع والحر
والمرض والحمى . فكانوا يرون بحيرات من الماء ونخيل . وما
هو إلا خداع السراب . ودوت ضحكة فزع لها بقية الرجال
إنها ضحكة مصاب بالجنون ! ومرت الساعات . وأيقنوا
بأهلاك في هذه البقعة ، وأجمعوا على دق أسفين في صفوف
الأعداء المتوارين وراء الهضبات بكل وسيلة . ولكن هل
لو استطاعوا شق طريقهم بين البدو وكشبان الصحراء ،
سيستطيعون المشى وتلك حالهم ، سبع ساعات حتى يصلوا إلى
جدة ؟ . جدة ذلك المرفأ الذي ضاع أملهم في الوصول إليه !

ورغم ما أصاب القافلة من يأس ، فإن « فون موك » ظل
محتفظاً بنشاطه كقائد مسؤول عن رجاله . فكان يشجعهم
ويعينهم ويشاطرهم الماء الآسن ويطلق معهم الرصاص ،
وعندما علم أنهم استعادوا شيئاً من عزيمتهم الأولى . قام
بتنظيمهم إلى صفين ، جاعلاً الجرحى والمرضى في الوسط ،

وجعل كل منهم سلاحاً استعداداً لاطاعة أوامر «فون موك» .
وصاح « فون موك » بصوته الجمهوري : « إلى الأمام
يا اخوان . إلى الأمام يا رجال البحر » . وتقدم القائد
الألماني على رجاله بنحو خمسين متراً ممسكاً بمسدسه . ثم
صعد إحدى الهضبات وأخذ يحول نظره . ما أغرب هذا
الامر . لقد سكنت الطلقات النارية فجأة . وراح كل رجل
من رجاله يصعد الأكتاف والكثبان . بين صمت البدو . وعلم
« فون موك » أنها حيلة من حيل حرب الصحراء . فأمسك
بمنظاره الميكرو وجمال ببصره يمنة ويسرة ، لا شك أن البدو
قد اختفوا وراى هذه الهضبات المتناثرة .

إحذروا ! . ما هذا الذي أرى مقبلاً علينا من بعيد ؟
أهو السراب يلهب بنا ؟ إنهم جنود ، إنهم البدو عادوا
أدراجهم ليكملوا علينا . . وقد يكون الرسول الذي طال
انتظاره ؟ ولم يثماً « فون موك » أن يخبر رجاله بهذا الفرض
الآخر قبل أن يتحقق منه حتى لا يذهب سرورهم سدى إن
لم يكن المقبلون المدد المنتظر .

وبعد هنيهة ظهرت الجمال في صفها الملتوى وأخذ «فون
موك» يدقق النظر في منظاره وراح يعدد الجمال . . إنها
سبعون جملاً يتقدمها علم أحمر اللون ، زركش بالخيوط
الذهبية التي تضيئ تحت أشعة الشمس .

وكان يتقدم هذا الركب على ظهر بعير أبيض ، شاب
يلبس البياض نحيف الجسم ، أصبل المنبت ، كحيل العينين ،
أسود اللحية ، على رأسه كوفية بيضاء مشبّعة بعقال ذهبي .
وكانت الأحجار الكريمة تلمع من حزامه وهي مصفوفة على
شكل شارة الملك ، وكان يتبع هذا الشاب الوجيه الأنيق ،
بقية الركب على مسافة محترمة ، وقد ارتدوا أحسن اللباس .
وقف الركب صامتين ، وبركت الجمل ، وتقدم الشاب ذو
اللباس الأبيض نحو الضابط الألماني الذي بادره بالتحية .
إنه الأمير عبد الله ^(١) النجل الثاني للشريف حسين ^(٢)
أمير مكة .

وكان الأمير لا يتكلم الألمانية كما كان غير محب للألمان .
لذلك نراه قد تجاذب أطراف الحديث مع الألماني باللغة
الفرنسية مبدئياً له أسفه الشديد لتأخير النجدة عليه ، وإن ما قام
به البدر إنما هو من مصادفات سوء التفاهم . وإن «فون مولك»
الآن أصبح تحت رعاية أمير مكة وفي حماية الشريف حسين
والده . وأنه أصبح في مأمن من المخاوف . وسوف يصططحبه

(١) هو الملك عبد الله الحالي . ملك شرق الأردن .

(٢) هو الشريف حسين أمير مكة الذي تحرر من سيادة الامبراطورية
العثمانية . ونادى بنفسه ملكاً على الحجاز . ثم أبسده عن الملك ، الملك
عبد العزيز آل سعود المتربع الآن على الجزيرة العربية . وكان وقتذاك أمير
نجد (المؤلف) .

إلى جدة بنفسه بعد أن يستريح البحارة من عناء وهمول ما مر بهم من أيام نحسات ، ثم أمر الأمير رجاله بتزويد الجند الألمان بالماء والطعام حتى يستردوا قواهم .
وما أن رأى العساكر الألمان الماء حتى تدافعوا عليه يرتوون منه .

ودعا الأمير «فون موك» ، واثنين من ضباطه إلى الجلوس معه على البساط الذي وضعه أحد الخدم على الرمال وسط واد ، بينما انهمك رجال آخرون إلى تحضير القهوة ، وكان كل من الداعي والمدعويين يتكلم في شتى الأمور ولكن بكل تحفظ .
وفي الساعة الخامسة بعد الظهر أركب الأمير البحارة وأمر بحمل مامعه من أسلحة وأمتعة على بعض الجمال وسار الموكب على بركة الله .

ورغم إجادته «فون موك» ركوب الخيل على غير عادة البحارة ، فإنه لم يسترح على ظهر البعير ، وراح يعتذر إلى الأمير عن غشمه في قيادة سفينة الصحراء ، وضحك الأمير ، ودار الحديث بينه وبين «فون موك» الذي كان يدرس الأمير جيداً أثناء حديثه .

إن هذا الشاب الكريم المحتد ، نبيه وكريم ولسكنه متحفظ ، إنه لا يظهر لك إلا نصف أفكاره . تاركاً لك استنباط نصفها الثاني ، وكان «فون موك» هو الآخر يرد على أسئلة

الأمير بنفس الطريقة. إن كل واحد منهما يحذر الآخر دون
سبب بين، وكان « فون موك » لا يفتأ يتأمل في وجه الأمير
وملاحظته النبيلة، دون أن يصل إلى نفسيته العميقة. ثم عاداهمت
بينهما ثانية، وكان كل منهما يقتل الوقت بالاستسلام لبعض
خفيف.

وكان أحد الأعراب في آخر الموكب يغنى غناء يشوبه
الحزن في نبرات صوته، ولم يفهم « فون موك » هذه الأغنية
ولكنه استمتع أنغامها.

وأقبل الظلام وتناثرت في أجوائه السكواكب والنجوم
فاذكر هذا المنظر « فون موك » بحنينه إلى البحر الخضم
كم يود أن يسمع تلاطم الأمواج في جدران مدمرته، آه،
لو استطاع أن يعود إلى البحر.

وعلى حين غرة مد الأمير يده نحو نقطة تتلألأ في الأفق
أشبه في حجمها بنجم السيجارة الموقدة وقال : جدة .

العودة إلى الوطن

واتضح لفون موك، وهو في « جدة » النزاع، القائم بين الأتراك الذين يلومون العرب والعرب الذين يتهمون الأتراك. وأرادت القوات المرابطة في « جدة » أن تحاول مع « فون موك »، ما حاولته سلطات صنعاء معه من ملازمته هو وجنوده لهم، وراحوا يدخلون في قلبه الخوف من أساطيل الحلفاء المنتشرة في البحر الأحمر، ومن ثوار العرب المسيطرين على الخط الحديدي برا، وأن الأفضل له ولرجاله الإقامة بينهم حتى لا يعرضوا أنفسهم مرة ثانية لموت محقق إلى أن ينجلي الموقف .

ولكن « فون موك » كان قد شبع من مثل هذه الأراجيف، كما كان يعلم أن الموقف لن ينجلي في أيام ولا في أشهر، لذلك أكد للسلطات التركية في جدة بأنه سيواصل سيره مهما كلفه الأمر حتى ولو اقي حثفه إلى أن يصل إلى « المدينة » طالما أن السكة الحديدية مأمونة المغبة من هذه البقعة .

لم يسترح الأتراك لهذه المخامرة . ولكن الأمير عبدالله انضم إلى رأي « فون موك » . وبعد أن تفاهم « بالمسرة » (التليفون) مع والده الشريف حسين المقيم في مكة بسط « لفون موك » ما أخبره به والده من استعدادده لحسن ضيافته

على أن يذهب على بحارته بعدم دخول أرض «المدينة» لقدسيتهما ،
اكتفاء بتجوالهم في ضواحيها إلى أن يصلوا إلى الخط
الحديدي .

وبعد مناقشة طويلة ، اتفقت الآراء فيها على أن
يذهب « فون موك » ورجاله إلى ضواحي «المدينة المنورة» .
وشكر « فون موك » الأمير على هذا الفضل الكبير
لأنه يعلم أن « المدينة المنورة » محرمة على الذميين ، ثم قامت
السلطات في جدة بمعاونة « فون موك » ورجاله على معدات
الرحيل .

ولم يثر وجوده فضول الأهالي لأن أهل الشرق تعودوا
من أهل الغرب حب الاستطلاع ووضع أنوفهم في كل شيء
ليدرسوه أو يتأملوه . فإذا كان « فون موك » راح يحول في
أنحاء جدة دون أن يهتم به أحد ، فلأن الأهالي اعتادوا رؤية
الأجانب ، ولكن الويل له إن قام بما يغضب العرب بعاداته
الغريبة .

وقادته قدماه إلى الميناء بالسليقة ، لأن البحر كان ينقصه
برائحته ورائحة القطران . إنه يحب التأمل في المراكب الراسية
وأشرعتها المطوية بعد قيامها بالصيد . إن مثل هذه
المناظر تدخل في نفسه الهجة والسرور ، إنه مريض بحب
البحر وهو مريض قلبا يشفي منه بحار ذاق حلاوته ومرارته .

ومن صفات البحار أن يكون دمث الأخلاق متحجباً إلى الناس . وكان « فون موك » على هذه السجية . فكان يجلس في مقهى يخشاه الأوربيون الذين يجدون لذة في التحدث مع الباعة والتجار والنوتية ، فتجاذب أطراف الحديث مع بحار مصرى فى سن الشياى يجيد اللغة الانجليزية وله إمام بخفايا وخبايا البحر الأحمر . وسر « فون موك » كثير آ من هذا الشاب النابه الماهر .

ولما وقف الشاب على رغبة « فون موك » قام يبحث له عن مركب صيد كبيرة فسيحة الأركان والجوانب . وسرعان ما وجدها . وراح « فون موك » يضع فيها الزاد والأمتعة على قدر المستطاع . كما استأجر بحارين يمانين لهما دراية بالملاحة فى البحر الأحمر ، وطلب من البحار المصرى أن يسهر على المركب إلى أن يعود .

هل يرغب « فون موك » أن يلعب دوراً مع مضيفيه ؟ ربما أراد ذلك .

وأخذ الأتراك والعرب يعدون العدة للقافلة التى ستسير إلى المدينة المنورة .

وفى يوم ١٠ ابريل ، أى قبل رحيل البعارة الألمان بيومين . دعا الأمير عبداللّه بقصره فى جادة فون موك وضابطيه إلى وليمة شرقية . أعجب بها الألمان أيما إعجاب وشكروا الأمير

حسن ضيافته لهم . واتفقوا على أن يسيروا بالقافلة بعد غد إن شاء الله .

وفي يوم ١١ إبريل أخذ الألمان أهبتهم للرحيل فجمع « فون موك » رجاله وقال لهم أمام دهشة الأتراك : « هلموا بنا إلى السفر اليوم » ! وظن الأتراك أن مسا أصاب القائد الألماني . إنه مجنون بلا شك . نعم هو مجنون . وقام رجاله بتنفيذ أمره فوراً وتبعوه إلى أن وصل بهم إلى الميناء حيث كان « السنبك » في انتظارهم كامل العدة . واندفعوا به في عرض البحر ، تاركين الأتراك والعرب ، غير خائفين من الحلفاء وأساطيلهم التي لا تفتأ تبحث عن غواصة ألمانية ، أو سفينة عدائية أو محايدة ، وشق « السنبك » طريقه في البحر بجوار الشاطئ وهو أشبه بضفدعة بالنسبة إلى حوت إذا قيس بالبوأخر الحربية . واتجه به « فون موك » نحو « ينبع » .

لقد أعاد البحر إلى رجاله قوتهم ونشاطهم . وأحس المرضى بخفة وطم المرض عليهم . وراح كل منهم يستنشق الهواء العليل . آه إنهم يستنشقون الهواء بشغف بعد أن حرموا من أريجهم أشمرا طوالا .

كانوا في شهر إبريل . أهدب شهر الربيع الجميل الذي تهبُّ فيه الزهور والورد بألوانها الجميلة الساحرة .

وإذا كنت أيها القارىء لم تتمتع بالربيع في وسط البحار، فقد حرمت نفسك من جمال الطبيعة التي سخرها الله لعباده. وحدث فصل مضحك أثناء الطريق بين «جدة» و«يافع» اتخذ به البحارة الألمان تسلية لهم. لقد شاهدوا بخاراً يمانياً من الاثنين اللذين استأجرهما «فون موك» بصفر لونه ويرداد صفرة مع الوقت، يعدو سريعاً نحو مقدمة المركب وهو يصرخ من مخلص في أمعائه. وعندما كشف عليه الطبيب الألماني، ظهر له أنه شرب إحدى زجاجات «زيت الخروع» التي اشتراها «فون موك» من «جدة» لمرضاه، فأصيب بهذا الاسهال الحاد.

وبعد أن رست المركب ثلاث مرات على ساحل الجزيرة العربية، وقام في كل مرة منها الطبيب الألماني بمداواة أحد شيوخ القبائل العربية. وصلت في أمان إلى ميناء «شرم منديورة» الصغير.

ولا يفوتني أن أذكر أن الشيخ العربي الذي نال الشفاء على يد الطبيب الألماني، ملأ المركب بالزاد، اعترافاً منه بالجميل المسدى إليه.

ورست المركب في يوم ٢ مايو في «الوجه» حيث اندهشت الحامية التركية لمجيئهم رغم وجود سفن الحلفاء في البحر الأحمر ثم راسوا بكرمون وفادتهم. وكان الهدوء متوفراً في «متصرفية الوجه» وضواحيها.

حتى لقد يلوح أن الثورة لم تصل إليهم . وفي يوم ٦ مايو
وصل الألمان إلى « العلا » على خط السكة الحديدية
الحجازية حيث ركبوا القطار إلى « حلب » .

ومن « حلب » أبرق « فون موك » إلى السفير الألماني
وحكومة الباب العالي بقرب قدومه إلى استانبول .

وجاء يوم ٢٢ مايو سنة ١٩١٥ وغصت محطة استانبول
بالناس ، ووقف على الرصيف جماعة من كبار الموظفين .
بلباس التشريفة . وكان يقف بجانب السفير الألماني ، على مسافة
قليلة الأميرال « سوشون » قائد الطرادين الألمان المرسدين
إلى الحكومة التركية من قبل الأمبراطور ، وهما « جوين »
و « برسلاو » ، وكان يحيط بهما أركان حارب وضباط
البحرية العثمانية .

ودخل القطار السريع المحطة ، ونزل البحارة ووقفوا
صفوفا . وكانت ملابسهم ظاهرة القدم بادية ، الترقيع ، إلا
أن أسلحتهم كانت تلمع وتقدمت الصفوف بخطى سريعة قوية
وعلى رأسها « فون موك » نحو الأميرال ، ثم وقفوا على
مكث منه وأدوا له التحية . وارتفع صوت « فون موك »
الجمهوري ، يدوي كصوت « البورى » :

« نحن رجال « الأمدن » ، وأنا الضابط « هليوث فون
موك » ننتظر إشارة منكم لنطيعها !... »

مؤلفات بنت بطوطة

أحاديث تاريخية

من تاريخ هارون الرشيد والبرامكة

فيثقيته

صفحات من تاريخ البحرية المصرية في عهد محمد علي باشا

هذه الكتب طبعت بمطبعة حلبي بدمنهور